

المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

تاريخ الأندلس

يوسف أشباح

تاريخ الأندلس

في عهد المرابطين والموحدين

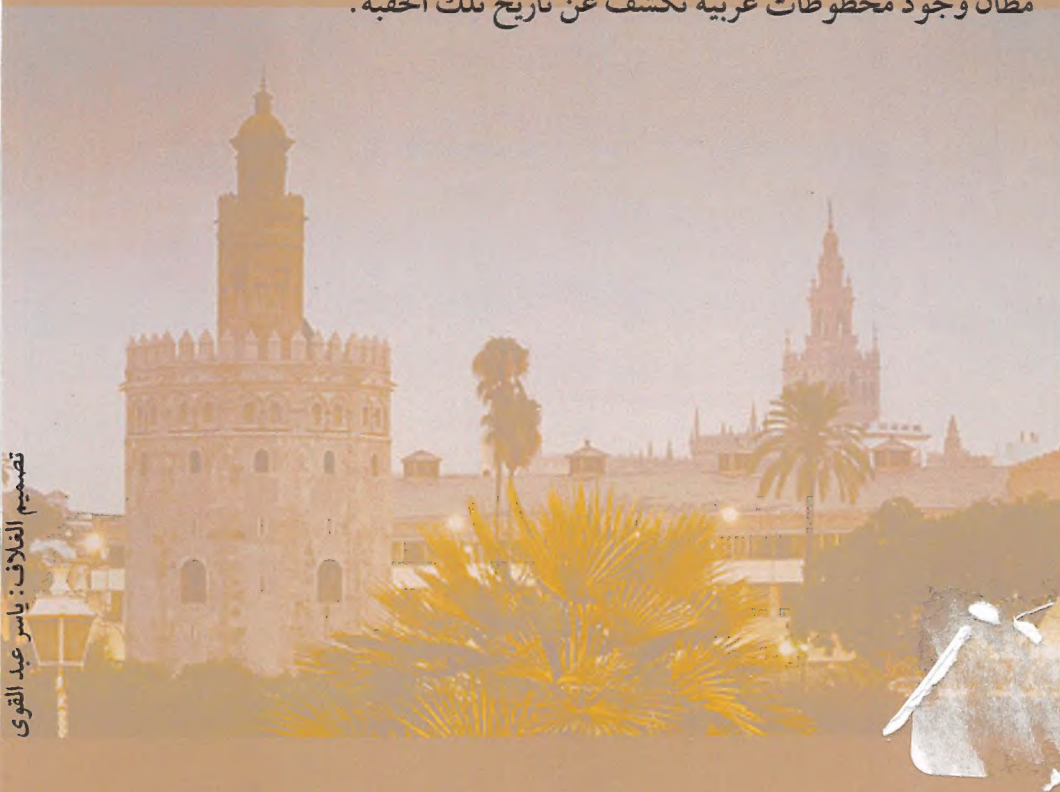
الجزء الثاني

ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان
تقديم وتنويه: سليمان العطار

1880

كيف حكم البربر الأندلس؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتتا في المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمت أولى الدولتين نفسها دولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها دولة الموحيدين. هذه القصة الطويلة هي موضوع هذا الكتاب الممتاز الذي ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان.

والأهمية البالغة لهذا الكتاب ترجع لكون مؤلفه مطلعاً على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر الأوروبية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاثة، وارتباطها الوثيق وتداخلها. والمؤلف أيضاً ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوروبية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (1837) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة.



تاريخ الأندلس

في عهد المرابطين والموحدين

الجزء الثاني

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1880

- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: الجزء الثانى

- يوسف أشباخ

- محمد عبد الله عنان

- سليمان العطار

- 2011

هذه ترجمة كتاب:

**Geschichte Spaniens und Portugals zur Zeit der Herrschaft
der Almorawiden und Almohaden**

Von: Joseph Aschbach

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524 - 27354524 فاكس: 27354554

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

الجزء الثانى

تأليف : يوسف أشـبـاخ
ترجمة : محمد عبد الله عنان
تقديم وتنويه : سليمان العطـار



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أشباح، يوسف.
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين
(الجزء الثانى) / تأليف: يوسف أشباح، ترجمة
وتعليق: محمد عبد الله عنان، تقديم وتنويه: سليمان العطار
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١

٢٧٦ ص، ٢٤ سم

١- الأندلس - تاريخ - الموحدين.

٢- الأندلس - تاريخ الخلفاء المرابطون.

(أ) عنان، محمد عبد الله (ترجمة وتعليق)

(ب) العطار؛ سليمان (تقديم)

(ج) العنوان

٩٥٣،٠٧١٣

رقم الإيداع ٢٠١١ / ٥٠٥٤

الترقيم الدولى : 4-977-704-978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يشتمل هذا الجزء — وهو القسم الثاني من كتاب تاريخ الأندلس في عهد الرابطين والموحدين — على بقية تاريخ دولة الموحدين منذ افتتاحهم لقرطبة حتى سقوط دولتهم في المغرب والأندلس . ويعنى المؤلف عناية خاصة بمرض تاريخ عبد المؤمن وفتوحه وتنظيم دولة الموحدين في عهده ، وتاريخ أبي يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك ، وهي أعظم المواقع التي نشبت بين الموحدين والأسبان ؛ ثم يقدم إلينا رواية صافية عن موقعة العقاب التي تلتها في الأهمية ، والتي حطمت فيها قوى الموحدين في الأندلس ، وبدأ انهيار دولتهم من بعدها .

ويعرض المؤلف خلال ذلك تاريخ الممالك الأسبانية النصرانية بتفصيل واف ، وهو ما يتقص المصادر العربية ، ويحدثنا عن أحوالها الداخلية ، وعن نظمها وقوانينها ، وعن نموها الطرد بما تفتتجه تباعاً من القواعد والثغور الإسلامية ، وعن الحوادث والظروف التي أدت إلى تضعف دولة الإسلام بالأندلس ، وسقوط قاعدتيها العظيمتين قرطبة وإشبيلية في أيدي النصارى .

ويختتم المؤلف كتابه بالتحدث عن نظم دولتي الرابطين والموحدين ، وعن أحوال الحضارة والعلوم في عهدهما ؛ وحديثه في ذلك موجز ، بيد أنه يتضمن بعض المعلومات والتعليقات المفيدة .

وقد اتبعت في هذا الجزء نفس الطريقة التي اتبعتها في الجزء الأول ، من التعليق والشرح في جميع المواطن التي تقتضي شيئاً من الإيضاح ، أو التصحيح أو التذييل ، وعنت عناية خاصة بذكر الأصول والمصادر العربية ؛ وتفضل صديقي العلامة الأستاذ أحمد ~~بن~~ أمين بقراءة ترجمة هذا الجزء ، كما قرأ ترجمة الجزء الأول ، فله جزيل الشكر على جميل معاونته ما

محمد عبد الله عنان

القاهرة في ١٢ جادى الأولى سنة ١٣٦٠

لوافق ٧ يونية سنة ١٩٤١

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومة الحماسية النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية
في النصف الثاني من القرن الثاني عشر

الفصل الأول

تاريخ إسبانيا النصرانية

منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديز

حتى ولاية الملك ألفونسو الثاني الأراجوني الحكم

كان المسلمون والنصارى ، يتناوبون التفوق في المارك الطويلة التي تنشب بينهما في شبه الجزيرة الاسبانية ، تناوب المد والجزر . فقد لاح قبيل عبور الرابطين إلى الأندلس ، أن الإسلام في اسبانيا قد انتهى أمره . وتسمى الفونسو السادس قيصر أعلى جميع اسبانيا ؛ ولكن تغير كل شيء بمد موقعة الزلاقة ، وأضحى يهدد النصرانية في شبه الجزيرة خطر الفناء على يد المسلمين ، شأن الإسلام بها من قبل ؛ بيد أن انهيار سلطان المرابطين بسرعة ، واتحاد القوى النصرانية تحت لواء القيصر الفونسو ريمونديز ، مكّنت النصرانية من التفوق مرة أخرى . فلما تمزقت اسبانيا النصرانية عقب وفاة هذا القيصر القوى ، وأدت فتوح الموحدين في الأندلس ، وفي البسائط المجاورة ، إلى تغيير جديد في سير الحوادث ، استرد الإسلام تفوقه من جديد ، واضمحلت سيادة النصرانية ، وخيل أنها لن تستطيع النهوض من غترتها .

ولما توفي القيصر الفونسو ريمونديز ، لاح أن كوكب السعد الذي قاد النصرانية إلى اسبانيا حتى ذلك الحين إلى النصر ، قد خبا تألقه ؛ وفقدت أوصال الدولة الاسبانية ، الرأس ووحدة العزم ، ونسيت خمس دول تتعادل في القوة ،

خلال معاركها الداخلية أمر العدو المشترك ، ولم تثب إلى رشادها ، حتى كان هذا العدو يهدد بالفناء كل شيء ؛ وعندئذ فقط اتحد النصارى إزاء الخطر المشترك ، وعاد التوفيق يحالفهم في كفاحهم ضد الإسلام .

وقسم القيصر مملكته بصورة خطيرة على مستقبلها ، ففتح أكبر أولاده سانشو الثالث عرش قشتالة والأراضي التابعة لها في أعلى التاجه ، وعاصمتها طليطلة ، وجعل له أيضاً حق الجزية على مملكتي نافارا وأراجون ؛ ومنح ولده الأصغر فرديناند الثاني مملكة ليون وجليقية واشتوريش وجزءاً من الفتوح الجديدة في أراضي استرامادوره ، وكذلك دعوى السيادة على مملكة البرتغال . وإذا كان القيصر الفونسو الثامن (ريمونديز) لم يستطع مع ما اجتمع له من قوى قشتالة المتحدة ، أن يرغم ملك البرتغال على الخضوع لأداء الجزية ، أو أن يفرض على الممالك البرينية (نافارا وأراجون) أى نوع من السيادة الحقيقية ، فقد كان من الواضح بعد تقسيم مملكة قشتالة ، أن الممالك النصرانية الخمس التي قامت في شبه الجزيرة أضحى كل منها تبحث عن صوالحها الخاصة مستقلة عن الأخرى ، غير مكرثة بما إذا كان الوطن المشترك يغم بذلك أو لا يغم . ومن ثم فكثيراً ما كان يحدث أن يقتتل القشتاليون ، والليونيون ، والبرتغاليون ، والنافاريون ، والأرجونيون فيما بينهم بأشد ما يقاتلون أعداءهم المسلمين في الأندلس أو في بلنسية . وقد كان لرجال الدين الاسبان الفضل في أن وحدة اللغة والخلال والدين ، وهي التي كانت في بعض الأحيان ، قلما تحدث أثرها في القلوب التي تحجرت بطول الصراع ، لم ينجب أثرها ، وعاد السلام بعد الخصام بين الأمراء النصارى ، واجتمعوا في جبهة موحدة لقتال المسلمين .

ولما قسم القيصر مملكته بين ولديه . (وكان ذلك قبل وفاته بنحو عشرة أعوام) لم يكن في نيته قط أن يشطرها إلى مملكتين مستقلتين ، بل كان يرى إلى أن تبقى مملكة قشتالة ، وعاصمتها طليطلة ، مركز السيادة النصرانية في اسبانيا ، وأن تكون ليون مملكة تابعة لها ، مرتبطة بها ، على مثال أراجون

ونافارا . وهكذا كان من برنامج هذا المشروع أن يتخذ الملك سانشو الثالث ملك قشتالة لقب القيصر ؛ ولكن قشتالة لم يكن يوسمها أن تؤيد سلطانها على الدول الاسبانية الأخرى ، إلا إذا كانت متفوقة في القوى ، ولم يكن يتاح لها هذا التفوق إلا إذا ضمت لها مملكة ليون . وكانت الأسر القوية في ليون وقشتالة بما تضطرم به من الحسد والبغض ، تعمل على قسم أواصر القرى التي تربط الأمرين الملكيتين ، وعلى دفع الدولتين المتجاورتين إلى قتال بعضهما . ومن ذلك الحين اضطرت قشتالة أن تنزل عن سيادتها على اسبانيا النصرانية ، وحاولت نافارا وأراجون أن تتحررا من عهد الجزية ، وهي محاولة كللت بالنجاح .

وقد استطاع الملك سانشو الثالث بكثير من القوة والعزم أن يقيم هيئة قشتالة مدى حين ؛ بيد أن حكومته لم تعيش طويلاً ، ولم تحظ نظمه وترتيباته بشيء من الدوام . وعمد أخوه فرديناند ملك ليون إلى جميع العظماء الذين يخلصون لقشتالة (وكان من بين هؤلاء القومس الشجاع بونسيوس دى منرفا) فجردهم من ألقابهم ومناصبهم ، وأخرجهم من مملكته ، معتقداً أنه يمدو بذلك أقدار على حفظ استقلال ليون . ولم يلق البمدون في قشتالة حفاوة وترحاباً فقط ، بل لقوا كذلك عوناً ضد مليكهم . وقاد سانشو ملك قشتالة أشراف ليون الفارين على رأس جيش قوى إلى ليون ، وأرغم أخاه الذي لم يكن قد تأهب للحرب بعد ، على أن يرد البمدون إلى مناصبهم وأملأ بهم ، وأرغمه كذلك في لقاء خاص بينهما على أن يتعهد بأداء الجزية .

وانتهز سانشو السادس ملك نافارا الملقب بالقوى ، وصهر ولدى القيصر ، فرصة هذه الحرب الأهلية بين الأخوين ، ليرفع يبر قشتالة عن مملكته ، وليسترد ولاية ريوجا التي كانت من قبل تابعة لمملكة نافارا ، واستطاع باتفاق عقده مع أراجون بأن ترد كل مملكة إلى الأخرى ما افتتحت منها من الأراضي ، أن يتفرغ لمقارعة قشتالة . بيد أنه لم يتح له بعد افتتاح ولاية ريوجا أن يحتفظ بها ، ذلك أنه كان يعتمد على انشغال قوات قشتالة بمحاربة ليون ، وعلى أن تنهض مملكة

أراجون في الوقت نفسه فتعمل على التحرر من عهد الجزية لقشتالة ؛ فلما لم يقع هذا الحادث أو ذلك لم يرد أن يمضى وحده في خوض الحرب ؛ فترك ولاية ريوجادون أن يشتبك في أية معركة مع الجيش القشتالي الذي أرسل لقتاله ، متوجساً من زحف القشتاليين على نافارا ذاتها ؛ ثم عقد بين الفريقين صلح ردت الأمور بمقتضاه إلى ما كانت عليه .

وهكذا أثبت سانشو الثالث أنه ملك ذو بأس ، واستطاع بسرعة أن يرد أخاه الملك ، والملكين التابعين له ، إلى واجب الخضوع والطاعة . وكان قد اتخذ الأهبة لتتويجه ؛ وكان المفروض بلا ريب أنه سيحذو حذو ملوك قشتالة السالفين في اتخاذ لقب القيصر ، وتقرر بالفعل أن يشهد ريموند برنجار الرابع ملك أراجون وقطالونية احتفال التتويج وأن يحمل الصولجان كتابع للعرش ، وأن يشهده كذلك الملكان الخاضعان للجزية ملكا ليون ونافارا ، وأن تنهز فرصة اجتماع الملوك الأربعة للتشاور في تنظيم حملة مشتركة ضد الموحدين ، الذين اتسعت فتوحهم في جنوب إسبانيا اتساعاً يدعو إلى الجزع .

ولكن هذه الخطط كلها انهارت لوفاة ملك قشتالة على غير انتظار ؛ ذلك أن سانشو الثالث توفي فجأة في طليطلة ، بعد أن حكم عاماً واحداً وشهراً (من أول أغسطس سنة ١١٥٧ إلى ٣١ أغسطس سنة ١١٥٨) . ولم يترك ذلك الملك البارع في الخلال والفروسة ، الذي سمي « بالمحبوب » ، وأجمت الروايات المختلفة على مديحه ، سوى طفل في الثالث من عمره هو الفونسو الملقب « بالنيل » أو « الصغير » . وحرص سانشو الثالث على أن يبعد ملكي أراجون ونافارا عن كل تدخل في شؤون الحكم في قشتالة فلم يختار زوجه الملكة بلانكا أخت ملك نافارا ، أو أخاه فرديناند ملك ليون للوصاية ونياية الحكم ، ولكنه اختار في وصيته ، للولاية على ولده وللنيابة في الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديز سليل أسرة كاسترو القوية ، وقرر في وصيته أيضاً أن يحتفظ جميع الأشراف بالقابهم ومناصبهم حتى يبلغ الفونسو سن الرشد .

ومن ذلك الحين يتخذ تاريخ اسبانيا النصرانية طابعا جديداً ، فلم يبق الملوك بعدهم محور السلطان والحكم ، ولكن الأمر الاسبانية القوية هي التي تتولى عندئذ هذا الدور ، وهي التي توجه سير النظم والحوادث الداخلية وتسيطر بالأخص على أقدار الحرب ضد العدو الخارجي ؛ أجل لم يقع تغلب الأرستقراطية على سلطة الملك في الدول النصرانية الخمس في نفس الوقت ولا بنفس النسبة ، ولكن عوامل هذا التغلب كانت تجمعت منذ بعيد . ذلك أنه حيث يسبغ السيف والشجاعة أعظم التقدير ، وحيث تغدو الحرب الداعمة مهمة الحياة ، فإن النفوس التي تعودت مقارعة الحروب والأخطار ، تأتي - إذا لم يكن خطر العدو الخارجي داهياً - أن تنحني أمام السلطان أو تنزل راضية عند حكم القانون والنظام . ولم تك معظم الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية ينقصها الملوك الأقوياء ذوو الخلال الحربية البارعة ؛ فإن سانشو الثالث ملك قشتالة ، والفونسو هنريكز ملك البرتغال ، وفرديناند الثاني ملك ليون ، وسانشو السادس ، الملقب بالقوى ، ملك نافارا ، وريموند برنجار الرابع ملك قطلونية وأراجون ، كانوا جميعاً ملوكاً ، يقدمون في كثير من الحروب التي يخوضونها على رأس فرسانهم الشجعان ، القدوة لكل فضيلة حربية ؛ ولكن الأرستقراطية نمت واشتد بأسها ، حتى غدوا ، أو غداً من بعدهم خلفاؤهم القصر ، عاجزين عن التغلب على قواها المتفوقة . وظهر ذلك في البداية حينما توفي سانشو الثالث ملك قشتالة ، وخلفه طفل قاصر ؛ ثم ظهر مثل ذلك سراعاً في أراجون وقطلونية حينما توفي الأمير الباسل ريموند برنجار الرابع ، وخلفه أيضاً ولده القاصر ألفونسو الثاني .

وتولى ريموند برنجار الرابع منشى مملكة أراجون وقطلونية المتحدة حكم أراضيها الأصلية (قطلونية) زهاء إحدى وثلاثين عاماً ، وحكم مملكة أراجون مدة تقل عن ذلك ببضعة أعوام ؛ وكان في حكمه أميراً ذكياً مستقيراً ، وحاكماً قوياً في نفس الوقت . وأوحى إليه حسن فهمه لظروف اسبانيا ، أن ينضوي منذ البداية تحت سلطان فيسر قشتالة القوى ، وأن يرتبط معه بأوثق الصلات ؛ وقد ضحى

في سبيل هذه الصلة حتى باستقلال مملكته ، موقناً بأن انضواء مملكته الكونة من وحدات متنافرة تحت حماية قشتالة ، هو أسرع السبل لظفرها باستقلال قوى الدعائم .

وأنفق ريموند برنجار كل حياته في محاربة المسلمين ، ومحاربة ملك نافارا ، والأشراف الفرنسيين في لانجدوك وبروفانس . وقد تحدثنا فيما سبق عما قام به في سير الحوادث الاسبانية ، وخصوصاً في افتتاح الرية ، وعن افتتاحه لطرطوشة ، ومكونيزا ، ولاردة ، وافرغة ؛ وعن حروبه مع نافارا ، وصداقته للقيصر الفونسو ريمونديز ؛ وبقي علينا أن نتحدث هنا بإيجاز عن حروبه في لانجدوك وبروفانس ، وهو حديث في الواقع أكثر اتصالاً بالتاريخ الفرنسي منه بالتاريخ الاسباني .

منذ اتحاد قطلونية مع أراجون في مملكة واحدة ، غاض كل أثر كان يربط قطلونية حتى ذلك الوقت ، بعمد تأدية الجزية لفرنسا ؛ وبحيث من الوثائق الرسمية حتى عادة إثبات سني حكم الملوك الفرنسيين ، وأصبح معظم ولاية لانجدوك كما أسلفنا من قبل ، ملكاً لأمير قطلونية ؛ وكان يحكم ولاية بروفانس الكونت برنجار ريموند ، ولد صاحبها الكونت دولشي ، بالوراثة عن أمه ، وهو أيضاً أخ لريموند برنجار الرابع .

ولكن الكونت ريموند دي بو ، ولد أخت الكونت دولشي ادعى حقاً على نصف ولاية بروفانس ، وحارب صاحبها الكونت برنجار ريموند بمعاونة الكونت الفونس أمير تولوز (تولوشه) ، والجنويين ، وعدة كبيرة من الأنصار من فرسان الولاية ؛ وقبل أن يستطيع الكونت ريموند برنجار الرابع ملك أراجون أن يبادر بإيجاد أخيه الكونت برنجار ، قتل برنجار مدافعاً عن أرضه في موقعة نشبت بينه وبين سفينة جنوية (سنة ١١٤٤ م) ، فتولى أمير قطلونية الوصاية على ولده الطفل ، ورباه في قصره ، وحفظ له أراضيه ، بالرغم من أن الكونت دي بو سعى إلى لقاء القيصر الروماني كوزاد الثالث ، وهو صاحب السيادة على مملكة برجونية التي تتبعها ولاية بروفانس ، وذلك في فيرزابورج (في مارس أو إبريل سنة ١١٤٥) ،

وحصل منه لنفسه وللقب أخت الكونت دولشي على حق حكم جميع الأراضي المتنازع عليها نظير أداء الجزية ؛ ولكن ريموند برنجار الرابع ، بمد أن افتتح مدينة آرل^(١) ، أرغم أشرف الولاية على أن يؤدوا له عيين الطاعة ، وتلقب من ذلك الحين أيضاً بكونت بروفانس ، باعتباره حاكم الولاية بالنيابة عن ابن أخيه ، ورأى ريموند دى بونفسه فى النهاية مرغماً على التنازل عن كل دعوى على بروفانس . ولكنه بعد أن توفى (سنة ١١٥٠م) ، حاول ولده الكونت هوجو أن يثير هذه الدعوى من جديد ، وحصل لنفسه أيضاً من القيصر فردريك الأول على تأييد حقه فى حكم أراضى جدته (سنة ١١٥٣م) ، وهكذا نشبت الحرب مرة أخرى ، وقدم ريموند برنجار الرابع إلى بروفانس بجيش قوى ، وأرغم أعداءه على طلب الصلح ، والتنازل عن كل حق ودعوى .

وبينا كان ريموند برنجار الرابع ، تارة يقاتل فى جنوبى فرنسا ، وتارة فى مفاوز البرنيه ضد نافارا ، وآناً يحارب المسلمين ، إذابه يعمل فى نفس الوقت باطراد لتوثيق الاتحاد بين أراجون وقطالونية . ولما توفى القيصر ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة ، وجاءت وفاته نذيراً باستقلال الدول النصرانية الاسبانية الأخرى ، لقي ريموند برنجار ، سانشو الثالث ملك قشتالة فى أوسمه ، ورغب إليه أن يتحرر من عهد الجزية ؛ ومع أنه لم يوفق إلى تحقيق أمنيته كاملة ، فإنه تقرر نظراً لتقدم الموحدين فى جنوبى اسبانيا بصورة مزعجة أن يقتصر عهد الجزية بالنسبة للملك أراجون فى المستقبل ، على حضور حفلات تنويع ملك قشتالة وغيرها من الحفلات الملوكية المشهودة ، وعلى أن يقدموا أمداد الجند حين الطلب ؛ وأما حق ملوك قشتالة فى احتلال المناطق والمدن الخاضعة للجزية ، فقد ألغى (سنة ١١٥٨م) .

وفى نفس الوقت الذى تراخت فيه عرى التحالف بين أراجون وقشتالة ، عقدت أراجون مع هنرى الثانى ملك إنكلترا محالفة ضد الكونت ريموند أمير

(١) كانت مدينة آرل يومئذ عاصمة ولاية بروفانس ، كما كانت من قبل عاصمة مملكة آرل القديمة التى انتقمها العرب سنة ٧٣٠م (١١٢هـ) ، وفرضوا عليها الجزية .

تولوز ، وصهر لويس السابع ملك فرنسا ؛ وكان هنرى الثانى مدعى على ولاية تولوز حقوقاً باعتبارها ميراثاً لزوجته اليونور دى جويان . وحاصر هنرى وريموند برنجار مدينة تولوز بقوات مشتركة ، ولكنهما لم يقوزا منها بطائل ، لأن لويس السابع بادر بإيجاد صهره ، وقضى على جهود المهاجمين ؛ ولما رأى الحليفان ما تكبدان من خسائر غير قليلة ، قررا وقف الحرب ، وعقد الفريقان هدنة ، تلاها عقد صالح ، يحتفظ فيه ريموند دى تولوز بإمارته (سنة ١١٦٠ م) .

وفى تلك الأثناء توفى سانشو الثالث ملك قشتالة ؛ وترتب على وفاته أن نارت المحصومة من جديد بين ناقارا وأراجون ، وهى خصومة عمل رجال الدين على إخمادها بسرعة ؛ وأثار الكونت هوجو دى بوى الوقت نفسه اضطراباً فى ولاية بروفانس ، ولكنه لم يقد منه شيئاً ؛ وأخيراً جنح القيصر فردريك الأول ، وهو الذى كان إلى ذلك الحين يحمى الكونت هوجو إلى تأييد أمير قطلونية ، ومنح القيصر أمير قطلونية ، وابن أخيه ، عهد الجزية على بروفانس ، كما كانت لأبيه من قبل ، ومنحه أيضاً مثل هذا العهد على مدينة آرل ، وولاية فوركالكيه ؛ وذلك على أن يقدم الأميران إلى القيصر عهد الطاعة بالنسبة للأراضى المذكورة ، وأن يتمهدا بتقديم أمداد الجند ، وأن يمتزقا بالبابا فكتور الثالث الذى اختاره القيصر . ولما سافر الأميران إلى مدينة تورينو حيث كان القيصر يقيم يومئذ ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، مرض ريموند برنجار أثناء الطريق وتوفى فى السادس من أغسطس سنة ١١٦٢ ، وهو فى الخمسين من عمره ؛ فتابع ابن أخيه برنجار الثانى رحلته إلى تورينو ، وتلقى العهد المنشود .

وفى وسعنا أن نقول إن ريموند برنجار الرابع ، ولو أنه لم يتسم قط بملك أراجون حتى بعد وفاة راميرو (رذمير) الثانى ، هو مؤسس عظمة أراجون الحقيقى . وقد كان ياجع الرواة أميراً مثالياً تتجلى فى شخصه كل الخلال البارعة ، التى تتطلبها القروسة الحققة ، والحكم المستنير ، مثل العدالة ، والصدق ، والإنصاف ، والشجاعة ، وغيرها .

ولما وصل نبأ وفاة الكونت إلى اسبانيا ، استدعت أرملته بترونيلا طبقات الأمة الثلاث إلى الاجتماع في وشقة ؛ ونُص على حضور نواب الطبقة الثالثة بطريقة صريحة ؛ وفتحت في هذا الاجتماع وصية الأمير المتوفى ، وفيها يمهّد إلى ولده ريموند برنجار ، الذى اتخذ عندئذ اسم ألفونسو الثانى ، بحكم أراجون وقطلونية ، وأراضى لانجدوك ؛ وأن تمنح ولاية شرطانية^(١) ومعها قرقشونة ، وحق الجزية على الفيكونت ريموند ترنكافل ، وكذلك على الجزء الذى يخص ريموند برنجار الرابع من اربونة ، إلى ولده الثانى بيدور ، وذلك على أن يكون خاضعاً لأخيه الأكبر . وإذ كان ألفونسو لم يجاوز العاشرة من عمره ، فقد تولت أمه الحكم على مملكة أراجون ، وتولى عمه الكونت برنجار أمير بروفانس حكم قطلونية ؛ وربى الأمير الفتى ، الذى تلقب عندئذ بألقاب الملك في برشالونة . على أنه لم يمض عام آخر ، وطدت فيه بترونيلا سلام المملكة ، ووثقت أوامر التحالف بينها وبين قشتالة وإنكلترا ونافاراً ، حتى تخلت عن الحكم بموافقة الأشراف لابنها ألفونسو ، على أن تكون ولاية العهد في عقبه ، فإذا لم يعقب آل الحكم إلى إخوته أو عقبهم ؛ ونص على حرمان عقب الإناث حرماناً مطلقاً ؛ وعاشت بترونيلا بعد تخليها عن الحكم ، عشرة أعوام أخرى ، ثم توفيت في برشالونة في سنة ١١٧٣ م .

(١) هي بالفرنسية Cerdagne (سردانيا) وهي مقاطعة صغيرة من أعمال البرنيز الشرقية .

الفصل الثمانى

قيام جماعات الفرسان الدينية

فى اسبانيا والبرتغال

فى نفس الوقت الذى غاضت فيه وحدة اسبانيا ، وأخذ سلطان الموحدين الناهض وفتوحهم تنذر النصرارى كل يوم بالويل التزايد ، يقع قيام جماعات الفرسان . ولما كان أولئك الملوك الذين يقاتل بعضهم بعضاً ، قد أصبحوا عاجزين عن صد « أعداء الدين » ، فقد برزت إلى الوجود هيئات كذلك التى أدت فى فلسطين للنصارى أجل الخدمات ؛ ولولا قيام هذه الهيئات ، لضاعى جهود قرون عديدة فى أعوام قلائل .

ومع أنه لم تقم فى أراجون وقطلونية جماعات فرسان دينية خاصة بهما ، فإن أمراء هاتين الدولتين كانوا مع ذلك أول من قدر أهمية هذه الجماعات ، ولفتوا إليها الأنظار . وكان الملك ألفونسو الأول الأراجونى الملقب بالمحارب ، قد اعتزم أن ينشئ جماعة فرسان دينية ، وذلك فى وقت لم تكن قد قامت فيه بالشرق أية جماعة من هذه الجماعات^(١) ؛ وكانت تقوم بين مسلمى الأندلس مثل هذه الجماعة ، ومنها اشتق ملك أراجون مشروعه . ولواقع أن مسلمى الأندلس أنشأوا قبل ذلك بمصور نوعاً من الفرسان لحماية الحدود ، يسمون « بالمراطة » ؛ وكان هؤلاء

(١) المفروض أن المؤلف يشير هنا إلى جماعات الفرسان الدينية النصرانية التى قامت فيما بعد بفلسطين والشام ، مثل الداوية والسيارية ؛ ذلك أن المشرق قد عرف جماعات المحاربين الدينية المسلمة قبل أن تعرفها الأمم النصرانية بمصور ، ويكفى أن نمثل لذلك بجماعات الفداوية الإسماعيلية الذين أغنوا فى الفرنج الصليبيين وقتلوا منهم عدة أمراء ، فقد ظهروا فى المشرق منذ أواخر القرن الخامس الهجرى .

يخصصون حياتهم مختارين للقتال ، ويهبون أنفسهم لحماية الحدود (الثغور) من غارات النصارى الفجائية ومحلاتهم^(١) ؛ وكانوا يمشون في نقشف بالغ ، ولا ينتظم في سلوكهم سوى فرسان امتازوا بالشجاعة ونقاء السيرة ؛ وقد مرّوا من حياة القتال الدائمة على الجلد والثبات في أشد الأزمات ، فكانوا يقاتلون في الحرب بشجاعة فائقة ، ولا يسمحون لأنفسهم بالفرار قط ، فإذا فاتهم النصر ، فإن الموت يقدو واجبهم ومطلبهم . أجل عرف النصارى الأسباب جماعات من الفرسان تربطها نظم وصفات معينة ، بيد أنها لم تكن جميعات منظمة وفقاً لقانون معين . وكان الجند الأرجونيون الخفاف ، وهم الذين يسميهم العرب « بالمجاورين » ، يؤلفون في بداية القرن الثاني عشر جماعات شديدة البأس ، مرنت على احتمال كل ضروب الحرمان والحزن ، ويحسب لها المسلمون أيما حساب ؛ بيد أنها لم تكن تنظم في جمعية حربية منظمة .

ولما أنشأ ألفونسو الأول عقب افتتاحه لسرقسطة سنة ١١١٨ م (١٠١٢هـ) قلعة « مونريال » على الحدود لتقوم بدفاعة المسلمين^(٢) ، كان يفكر في إنشاء جماعة من الفرسان برسم القبر المقدس ؛ وليس من المحقق ما إذا كان قد عرف عندئذ بقيام جماعة « الداوية » (فرسان المعبود)^(٣) ، وجماعة فرسان القديس يوحنا ؛ وعرض ملك أراجون مشروعه على الأشراف (البارونات) ، وطلب إليهم مبالغ طائلة من المال لإمداد الجماعة والعمل على نشرها . ولكن المشروع بقي بلا تحقيق ، وذلك

(١) سبق أن شرحنا كلة الرابطة ومصدر اشتقاقها ، ومنزاعها التاريخي (راجع الحاشية في ص ٦٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) وتزيد هنا أن أطراف الأندلس الصليبية مما يلي برشلونة وسرقسطة إل ما وراء جبال البرنيه ، كانت منذ الفتح تعرف بالثغر أو «رباط الثغر» وكانت المدن أو القواعد الأمامية المجاورة لأراضى الدو تعرف بالرباط ؛ فكان ثغر «أربوثة» مثلاً يعرف قبل سقوطه في يد الفرنج برباط الثغر ؛ وقد اشتهر المدافعون عن هذه الثغور في تاريخ الأندلس بالشجاعة الفائقة . وظاهر أن طوائف الفرسان التي يشير إليها المؤلف ، هم حاة الرباط ، أو الثغور ، أعنى أطراف الحدود المجاورة للنصارى ، وقد ورثوا تقاليدهم وخلالهم الحرية المتأخرة عن أسلافهم حاة الرباط .

(٢) راجع ص ١٥٣ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) راجع الحاشية الخاصة بالداوية (ص ١٧٥ من الجزء الأول) .

فما يظهر ، لعدم وجود الفرسان الصالحين لتنفيذه .

على أن الفكرة آتت مع ذلك ثمرتها ؛ ذلك أنه لما أخفق مشروع إنشاء جماعة دينية اسبانية من الفرسان ، انجذبت الفكرة إلى إنشاء فرع من فرسان الداوية في اسبانيا ؛ وانتظم الكونت ريموند برنجار الثالث أمير برشلونة قبيل وفاته بقليل (سنة ١١٣١ م) في سلك الداوية ، وأنشأ ولده وخلفه أول دير للجماعة في قطلونية . وذهب ألفونسو المحارب ، حسبما ذكرنا من قبل ، بعيداً في تأييد الداوية فنزل لهم في وصيته عن تلك مملكته ؛ ولكن الجماعة لم تحصل على هذا التثالث ، لأن الشعب الأرجوني أبي تمزيق الملكة ، يد أنه لا طالب الداوية بعد وفاة ألفونسو بأعوام قلائل بحقوقهم في الملكة ، عقدت بينهم وبين أراجون في عهد ريموند برنجار تسوية في هذا الشأن خلاصتها ، أن يعنى فرسان الداوية من الخضوع لقضاء الملك ، وأن يمطوا نصيباً مميئاً في المدن التي انتزعت من المسلمين مثل وشقة ، وبربشر ، وقلعة أيوب ، وسرقسطة وغيرها ؛ وفي مقابل ذلك يتمهد الفرسان بأن يخصصوا خدساتهم لحماية النصرانية في تلك الأنحاء ؛ وتم هذا الاتفاق في اجتماع عقد في جيرونة في سنة ١١٤٣ م ، وشهده المندوب البابوي وكثير من الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية .

وسرعان ما ظهرت أهمية العون الذي يبذله فرسان الداوية في كل حرب تنشب مع المسلمين ، ولا سيما في الدفاع عن حدود أراجون الجنوبية وما ترتب على هذا العون من النجاح والظفر ، حتى أنه عهد إليهم ، كما حدث مع فرسان القديس يوحنا ، بحراسة معظم الحصون التي افتتحت في المهد الأخير ، وكان من الطبيعى أن يقع مثل ذلك في قشتالة والبرتغال ، فيمهد بالدفاع عن حصون الحدود الهامة المجاورة للمسلمين إلى فرسان الداوية ضد الغزوات الإسلامية ، ويحصل الفرسان غير بعيد جزاء جهودهم على كثير من الأراضي .

ونستطيع أن نقول إن جماعات الفرسان الدينية في اسبانيا ، وجماعة «آفيس» Avis البرتغالية كانت تقليداً لجماعة فرسان الداوية التي نقلت نظمها من فلسطين

إلى اسبانيا ؛ وقد بدأت هذه الجماعات في معظم الأحيان صغيرة لا أهمية لها ، وقامت وفقاً لضرورات الحوادث ، وسرعان ما اشتدت وقوى بأسها .

ومن الغريب ، أنه لم تنشأ في أراجون ، أى في نفس الأرض التي استقر الداوية فيها قبل غيرها ، وكانوا فيها أكثر عدداً ، أية جماعة محاربة جديدة إذ لم تدع الحاجة إلى قيام مثل هذه الجماعة ؛ أما في قشتالة الجديدة وفي استرامادوره ، وهما أشد النواحي تعرضاً لغزوات الموحدين وعييتهم ، ولم يحتمل الداوية فيهما سوى قلاع قليلة ، فقد حدث بالمعكس أن قامت جماعتان محاربتان ، لا يفصل بين قيامهما سوى أعوام قلائل . ذلك أن رجال الدين ، وخصوصاً في الأديار ، كانوا يعيشون من أجل الحرب والدعوة إلى الصليب أكثر مما يعيشون للعزلة والعبادة ، وقد رأوا حينما قسمت مملكة قشتالة ، وما ترتب على تقسيمها من تمزيق لاسبانيا ، أنه لا بد من قيام جماعة مستقلة من الفرسان تكون بمنزلة عن تقلبات السياسة في الدول الاسبانية النصرانية ، لتدود عن الدين المسيحي ، وقد تجلت قوة الشعور بهذه الحاجة ، بما بذل يومئذ من جهود عديدة في هذا السبيل .

أما أى الجماعتين القشتاليتين من الفرسان كانت الأولى فأمر يختلف عليه المؤرخون الاسبان ، بيد أنه بعد تحييص مختلف الروايات يمكن القول بأنه إذا كانت جماعة « فرسان القنطرة » Alcantara التي اتخذت هذا الاسم فيما بعد (في سنة ١٢١٩) هي أقدم الهيئتين ، فإنها لم تنم وتتقدم بمثل السرعة التي تقدمت بها جماعة « فرسان قلعة رباح » Calatrava . وإليك كيف تقدم إلينا الرواية نشأة « فرسان القنطرة » : في سنة ١١٥٦ م ، في عصر القيصر الفونسو ريموندز ، وقبل وفاته بقليل ، اتفق فارسان من شلمنقة أحدهما يدعى سويرو والآخر جومز نذرا حياتهما لمحاربة المسلمين ، مع ناسك يعيش بقرب شلمنقة واسمه سانت أماندوس على البحث عن مكان يصلح لإقامة حصن ، تؤسس فيه جماعة من الفرسان لمحاربة أعداء الدين المسيحي ؛ وألفوا طلبتهم في المكان الذي يقع فيه دير سنت جوليانوس ، فبنوا حول الدير باذن الأسقف أردونو ، أسقف شلمنقة الذي يقع

الكان تحت رعايته ، حصناً يحيط به ، وسرعان ما اجتمع إلى الفارسين والناسك عدد من الفرسان والراهبين الذين تحوهم نفس المواطن ، ونذروا أنفسهم للكفاح من أجل الدين والموت في سبيله ، وقامت من هؤلاء جماعة محاربة سميت أولاً بجماعة « سنت جوليان دل بيررو » S. Julian del Pereiro ، وانتخب رئيسها الأول الفارس سويرو الذي تقدم ذكره ، وأمهه أوردونو أسقف شلمنقة بأنظمة جماعة « السترسيان » إحدى فرق « القديس بندكت »^(١) ، ليكون منهاجاً للجماعة مع بعض النظم الحربية ، وبعد ذلك بأكثر من خمسين عاماً ، في أوائل القرن الثالث عشر ، اتخذت هذه الجماعة اسم جماعة فرسان القنطرة .

ولكن صمت المصادر التاريخية الوثيقة المعاصرة عن ذكر هذه الجماعة ، وما ورد عن قيامها في الروايات المتأخرة ، مما يحمل على الشك في صدق هذه القصة . أما الروايات التي انتهت إلينا عن قيام جماعة « فرسان قلعة رباح » فهي أصح وأوثق ؛ وقد قص علينا مؤرخ عاش بعد ذلك بقليل ، هو الأسقف رودريك الطليطلي ، عن قيامها ما يأتي : لما انتهى سانشو الثالث ملك قشتالة من الاتفاق مع أخيه فرديناند في سنة ١١٥٨ م ، وعاد إلى طليطلة ، جاءت الأنباء بأن المسلمين يرحفون على قلعة رباح في جيش ضخم . وكانت القلعة قد سلمت إلى فرسان الداوية للدفاع عنها ، ولكنهم لما أيقنوا بمجزمهم عن الاحتفاظ بها إزاء تفوق الأعداء ، غادروها وردوها إلى ملك قشتالة . وكان يوجد وقتئذ في طليطلة رجل ورع هو ريموند رئيس دير فتيرو ، ومعه راهب من أسرة نبيلة يدعى دياجو نلاسكيز ، وكان فارساً ظهر في ميدان الحرب ، وربى في البلاط . فلما رأى هذان الرجلان جزع الملك لما يتوقعه من سقوط قلعة رباح في يد الأعداء ، خصوصاً وأنه لم يتقدم للدفاع عنها أحد بعد

(١) سبق أن أشرنا إلى جماعة القديس بندكت (الجزء الأول ص ١٢٥) . وأما جماعة السترسيان Cistercians ، فهم إحدى فرق البندكتيين ، وقد أسست في مكان يدعى سنو Citeaux بالقرب من مدينة ديجون سنة ١٠٩٨ م على يد راهب بندكتي يدعى سان روبر . وقد امتازت أنظمة هذه الجماعة بالخشونة وتفضيل العمل الشاق في الحقول وغيرها على الإغراق في الصلاة والعبادة .

أن غادرها فرسان الداوية ، اعترضا أن يتوليا هذه المهمة ، وسألا الملك أن يعهد بها إليهما ؛ فأجاب الملك سؤالهما ، لما يعلمه من ورع الراهب ريموند ورفيع مكانته لدى الشعب ؛ وأيد يوحنا مطران طليطلة مشروع الرجلين ، وألقى عظات دينية ، وعد فيها بالفقران لكل من يتقدم للدفاع عن قلعة رباح ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموند أن يجمع حوله في قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمدّه كثير من أولئك الذين لم يشتركوا في الدفاع بأشخاصهم ، بالخيول والدواب والسلاح والمؤن والمال ، حتى فاضت القلعة بكل ما هو ضروري للدفاع ؛ وألقى المسلمون أنه ليس من الحكمة أن يقدموا على مهاجمة مكان اتخذت للدود عنه مثل تلك الأهبة ، وهكذا أنفذت قلعة رباح . ثم رأى الراهب ريموند تخليداً لثواب الدفاع عن النصرانية في اسبانيا ، أن يؤلف من هؤلاء المقاتلين الذين احتشدوا حوله ، ممن يرغبون في تخصيص حياتهم للدفاع عن النصرانية إزاء الإسلام جمعية من الأخوة ؛ وهكذا قامت جماعة « فرسان قلعة رباح » ، وقوامها الحماسة الدينية والشجاعة ، وتألفت نواة فرسانها الأولى من رهبان دير فتيرو ، الذين بادروا بالرغم من سنهم وضعفهم إلى اللحاق برئيسهم ريموند في قلعة رباح ، وهم يحملون معهم كل ما كان بالدير من متاع ومؤن وافرة ؛ وطبقت على الفرسان النظم الحربية لطائفة السترسيان ، وانتخب الراهب ريموند أول « أستاذ أعظم » للجماعة ، ونمت الجماعة باطراد ، وصادق البابا إسكندر الثالث على قيامها ، وتوالت عليها الهبات الضخمة من الملوك والأفراد ، واعتقد الناس أن تمضيد هذه الجماعة المحاربة هو خير ما يعمل لخدمة الدين والوطن . وهكذا بدت على ممر الأيام ، أهمية ما يقوم به الفرسان من الخدمات والحماية ، وحمل تفرق ملوك اسبانيا النصرانية ، وتفاقم خطر الغزوات الإسلامية ، الشعب على أن يبحث لنفسه عن وسائل الدفاع ، وقامت في جليقية في سنة ١٢٦١ م ، بعد قيام فرسان قلعة رباح بثلاثة أعوام ، جمعية محاربة جديدة هي جماعة القديس ياقب S. Jacob ، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدة فرسان من قطاع الطريق ، كانوا من قبل يخوضون حياة همجية عنيفة ، ويرتكبون كثيراً من الآثام والجرائم ،

فوعظهم رجال الدين ونصحوهم بالاستقامة والتوبة ، فتابوا عما ارتكبوه في شبابهم من إثم ، ووهبوا بقية حياتهم للدفاع عن دين المسيح ضد أعدائه ، وأن يقوموا بحماية الحاج الذين بقصدون زيارة قبر القديس ياقب في كومبوستل ، وعين أول رئيس لهذه الجماعة بموافقة فرديناند ملك ليون ، الفارس بيدرو فرنانديز ، وهو من أهل فونيتا انكلادا من أعمال استرقة ، فنظمها وفقاً لناهج القديس أوغسطين^(١) وأسبغ عليها الطابع الحربي ، وأبيح الزواج لأعضائها خلافاً لفرسان قلعة رباح ، واتخذ شعارها سيف القديس ياقب الدامى في صورة الصليب ؛ وتولت عليها المبات ولا سيما هبات الملوك ، فتمت بسرعة ، واشتد ساعدها ، وكثرت املاكها .

أما في البرتغال ، فقد ظهر فيها فرسان الداوية وفرسان القديس يوحنا منذ قامت الملكة ، وكان الملك ألفونسو هنريكز ، تحمله عاطفة المنافسة لقتالة وليون على أن يحتذى مثلهما في كل شئ . فمول بعد الذى رآه من ضرايا الفرسان الواضحة أن ينشئ جماعة من هذه الجماعات ؛ وعلى ذلك فإنه من الخطأ أن ترجع قيام جماعة الفرسان في البرتغال إلى سنة ١١٤٧ م ، فهي لم تقم في الواقع قبل سنة ١١٥٨ ، وربما كان قيامها سنة ١١٦١ ؛ وترجع وثيقة تأسيس هذه الجماعة التي سميت عند قيامها بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، إلى سنة ١١٦٢ م ؛ وكانت نظمها شبيهة بنظم فرسان قلعة رباح ، ومشتقة مثلها من نظم الآباء اليسوعيين . وتتلخص واجبات الأخوة في أن يجاهدوا من أجل الدين المسيحي ، وأن ينزلوا الميدان دائماً لقتال المسلمين ، وألا يتزوجوا ، وأن يكونوا خاضعين لكبير فرسان قلعة رباح ، بالرغم من أن لهم رئيساً خاصاً ؛ وفي ذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الجماعة المحاربة البرتغالية الجديدة لم تكن في الواقع سوى فرع لجماعة فرسان قلعة رباح ؛ وكان أول أستاذ أعظم لجماعة الفرسان البرتغالية هو بيدرو أخو الملك

(١) عاش القديس أوغسطين في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) وهو من أعظم أركان الكنيسة اللاتينية . وأسست جماعة القديس أوغسطين في القرن الحادى عشر الميلادى ؛ وشعارها الفقر والطاعة والفة ؛ ومنهجها في غاية الاعتدال بالنسبة لناهج الجماعات الأخرى ؛ وهي منتشرة في جميع أنحاء العالم .

غير الشرعي ، ولما استولى القرسان في سنة ١١٦٦ م على قلعة يابرة من يد المسلمين ، وعهد إليهم بحراسة القلعة ، سُمِّحوا « بفرسان يابرة » ؛ ولما وهبهم الملك ألفونسو الثاني بعد ذلك ، في سنة ١٢١١ م ، محلة « آفيس » Avis ، وأقاموا في هذه المحلة قلعة جديدة ، سموا عندئذ « بفرسان آفيس » . وكان ثوبهم عندئذ عبارة عن عباءة طويلة ذات برنس أسود ، ولكنه غير فيما بعد ، إذ كان يضاهيهم أثناء القتال ؛ كذلك سمح لأبناء هذه الجماعة فيما بعد أن يتزوجوا مثل فرسان شنت ياقب ، ولكن على أن لا يتكرر الزواج .

وفي بعض الروايات أن ألفونسو هنريكز ، أنشأ بعد قيام الجماعة المحاربة الجديدة بأعوام قلائل ، في سنة ١١٦٧ م جماعة ثانية سميت « بجماعة القديس مخائيل ذي الجناح » S. Michael del Ala ؛ ويرغمون في سبب هذه التسمية ، أنه روى أثناء موقعة شنترين ذراع يتقلد سيفاً فظنوه ذراع قديس . ولما كان ألفونسو قد أحرز في هذه الموقعة ظفراً باهرراً ، ولم ينج من الهلاك فيها إلا بمعجزة ، فقد قيل إنه أنشأ لهذا السبب جماعة من الفرسان تنضوي تحت اسم الملاك مخائيل ، وقد ورد في وثيقة لا شك في بطلانها ، أن أعضاء هذه الجماعة الذين سمح لهم بالزواج يجب أن يكونوا من الأشراف ، وأن يكونوا في الحرب حرساً للملك وللأعلام ، وأن يخضعوا لرئيس دير الكوبازا ، وأن يحملوا شعارهم جناحاً أحمر ذهبياً يضمونه على صدورهم .

ولما كانت الروايات قد تضاربت في أمر هذه الجماعة ، ولم تذكر عنها شيئاً من بعد وفاة ألفونسو هنريكز ، وكانت هذه الوثيقة تتضمن نزاعاً تناقض التاريخ الحق ، فانه يسوغ لنا أن نشك فيها إذا كانت هذه الجماعة قد أنشئت وقامت فعلاً . هذا ، وبينما كان الفرسان يذودون عن حدود المملكة النصرانية ضد غزوات المسلمين إذ قل اهتمام النصارى بمحاربة أعدائهم المسلمين ، ومرت قوى النصرانية على يد صراع داخلي طويل الأمد حتى بدا خطر الموحدين داهماً على الجميع ، فاضطر الملوك النصارى عندئذ إلى توثيق اتحادهم من جديد .

الفصل الثالث

صراع أسرتى كاسترو ولارا

فى سبيل السيادة فى قشتالة

لما توفى الملك سانشو الثالث ظهرت فى قشتالة أسرتان قويتان على جميع الأسر الأخرى ؛ وكانت كلتاها تضارع الأخرى من حيث الثراء والقوة ووفرة الأنصار ، وكلتاها تحسب فى عداد الأمراء أكثر مما تحسب فى عداد الأتباع ؛ هاتان الأسرتان هما آل لارا ، وآل كاسترو ، وكلتاها عريقة فى الحسب ، وكلتاها ساهمت فى تشييد قوة الملوكة واستوتت على كثير من الأراضى بعهد الجزية وظفرت بأعظم المناصب والألقاب ؛ وكان ملوك قشتالة يمترونهما عضد انرش ودعامته . فلما توفى سانشو الثالث ، وآثر فى وصيته آل كاسترو باختيار زعيمها الشيخ جوتيرو فرنانديز مؤدبه القديم ، للوصاية على ابنه أثناء طفولته ، حنق آل لارا من هذا الإيثار لآل كاسترو ، وعملوا على إثارة حرب كانت وبالا على قشتالة ؛ وقد حاول الشيخ جوتيرو ، حينما شعر بنذر هذه الحرب ، اجتنابها بشئ من البذل والتساهل ولكنه لم يفعل سوى أن يحجل بوقوعها ؛ وكان تصرفه بمفرده فى تغيير الوصية الملكية دليلا على نياته السلمية ، ولكنه لم يكن دليل الحكمة ؛ وكان يزعم آل لارا ثلاثة أخوة ، هم أبناء الكونت بيدرو ، وزوجه الدونا آفا ، وهم الماريس ، والثارو ، ونونيو ، وكانت لهم ضياع واسعة على ضفاف دويرة (نهر دورو) ويتصل بهم بطريق القربى والمصلحة أوثق الصلات ، الكونت جارسيا دى آتيا من أسرة الكونت دى كابرأ .

وقد عهد جوتيرو إلى جارسيا دى أنياس بتربية الملك ، وكأنه أراد بذلك أن يبقى الملك تحت سلطانه ، وذلك بعد أن استحلف آل لارا على حفظ السلم ؛ وكان جوتيرو يؤمل أن يجتنب بذلك كل خلاف حتى يبلغ الملك أشده ، إذ كان جارسيا فيما يبدو ، يستطيع بحوله السلمية ، وصلته بآل لارا أن يخمد الريب والظنون المضطربة ، بيد أنه حدث عكس كل ما كان ينتظره الشيخ الضعيف جوتيرو . ذلك أن الكونت جارسيا كان رجلا قليل الذكاء والكفاية ، تثقل كاهله تربية الملك وما يقترب بها من الشؤون ، وكان يخشى بالأخص أن يتكبد في سبيلها بعض الخسائر ، إذ لم تربط لها مخصصات ثابتة ، ومن ثم فإن الكونت المائزئش كبير أسرة لارا لم يجد صعوبة في إقناعه بأن يسلمه الملك الطفل ؛ وهكذا نقل الملك من يد آل كاسترو إلى يد آل لارا ؛ فلما علم جوتيرو فرنانديز بذلك ، طالب في الحال بأن يعاد الملك إلى إشرافه ، فسخر آل لارا من طلبه . وهنا فقط أدرك جوتيرو سوء تصرفه ؛ وتقافم الشر ، حين شهر الكونت الشيخ الحرب ليسترد بالقوة ما لم يك ثمة ضرورة للتسليم فيه ؛ وأنقذه الموت العاجل من لوم أسرته وصحبه ، ولم يخلف ولداً ، ولكن أبناء أخيه رودريك فرنانديز ، وهم فرديناند ، والقارو ، ويبيدرو ، وجوتيرو ، وصهرهم القارو ردريجيز ، تابعوا الكفاح في سبيل قضية الأسرة ، يترعمهم فرديناند كبير الإخوة ، مستندين إلى نصوص الوصية الملكية التي تخص أسرهم بالوصاية ؛ فلما استمر الحصار في موقفهم ، ولم يسلموا الملك الطفل ، لجأ آل كاسترو إلى فرديناند ملك ليون ، عم الملك لى يحيى ابن أخيه ، فقدم ملك ليون في الحال في جيش ضخم ، واحتل معظم أراضي قشتالة ، وأعلن توليه لزام الحكم والوصاية على ابن أخيه ، واعترف به معظم الشعب ملكا على قشتالة (سنة ١١٥٩ م) ، واشتد في مطاردة آل لارا حتى أرغمهم أخيراً على تسليم الملك الطفل في مدينة «سوريا» (Soria) . ومن الصعب أن ندلل على أن فرديناند كان ينوى انتزاع الحكم من ابن أخيه ، على أنه بسط حكمه على المملكة كلها تقريباً ، على نحو ما كان يحكم والده القيصر ، وتسمى بملك اسبانيا ، واتخذ من

آل كاسترو الذين دعوه إلى المملكة ، أخلص أنصاره ، وأغدق عليهم كل المناصب والألقاب ، واعتبر آل لارا عصاة خارجين ؛ وإذ كان الملك سانشو الثالث قد نص في وصيته على أن يبقى الجميع محتفظين بأراضيهم ومناصبهم وألقابهم حتى يبلغ الملك الطفل الخامسة عشرة من عمره ، فقد طالب آل لارا بأراضيهم وحقوقهم ، وفقا لهذا النص . فلما رفضت مطالبهم ، عمدوا إلى جثة جونيرو فرنانديز فأخرجوها من القبر ، وأقسموا أنهم لن يردوها إلى القبر قبل أن يرد المقتصبون إليهم حقوقهم ؛ فعندئذ دعت محكمة للفصل في النزاع ، فقضت ضد آل لارا ؛ وفسرت نصوص الوصية بصورة أخرى ؛ وهنا ثارت بين الفريقين حرب دموية عنيفة دامت بضعة أعوام ، ولم يتمكن آل كاسترو من إحراز النصر فيها إلا بمعاونة ملك ليون ؛ وخربت أراضي قشتالة وأجذبت ، وافتحمت القلاع ، وأحرقت المدن والقرى ، وعومل المواطنون معاملة الأعداء ، فهبوا ، وأسروا ، وقتلوا . ولما نفدت قوى آل لارا في النهاية ، طلب إليهم الملك فرديناند تسليم الأراضي الباقية تحت أيديهم من مملكة قشتالة ، ومنها العاصمة طليطلة ، وأن تؤدي جميع الضرائب إلى ملك ليون ؛ وقدر آل لارا حرج موقفهم ، فأعلنوا أنهم على استعداد لتقديم الطاعة إلى الملك فرديناند ، إذا سلم إليهم الطفل الملكي قبل ذلك ، وأنهم يريدون أن يقسموا بين الخضوع والإخلاص للملك فرديناند باعتبارهم حماة وحراسا للكمهم المستقبل .

واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس شورى في « سوريا » يشهده آل لارا ، والملك فرديناند مع ابن أخيه الطفل ، وهناك سلم الطفل الملكي إلى الكونت الماريش دي لارا ، وقرن تسليمه بهذه الكلمات : « إننا نسلمه إليك مختارين ، فقم على حراسته مختاراً » ؛ وهنا بدأ الطفل يصبح بين يدي حامله متألماً من ألم أصابه بطريقة خفية ؛ فحمله بعيداً بحجة إعطائه بعض الطعام وتهديته روعه ، على أن يماد إلى عمه في المجلس ، بعد أن يكف عن البكاء . وفي الوقت الذي شغل فيه الملك فرديناند بالتشاور مع الكبراء ، في انتظار بقظة

الطفل من نومه الزعوم ، وثب فارس جرىء من المخلصين لآل لارا ، واسمه بيدرو نونيز ، وحمل الطفل فوق أسرع جواد ، واستطاع أن يصل به في نفس اليوم إلى قلعة استبان دى جورماز ، التي كانت باقية بأيدي آل لارا ؛ وعمد زعماء آل لارا في الوقت نفسه إلى الفرار من المجلس ، قبل أن يقسموا بيمين الطاعة للملك ؛ ولم يقف فرديناند على هذه الخديعة إلا بعد فوات الوقت ، ولما أرسل إلى الكونت الماريتش فارساً بنى عليه نكته وغدره ، وبنيهم بالخيانة العليا ، استقبله آل لارا بالتهديد والوعيد ؛ وأعلن الماريتش أنه لا يريد أن يناقشه أحد فيما إذا كان قد أخلص أو نكث ، وأن كل ما هنالك ، أنه لجأ إلى جميع الوسائل الممكنة لينقذ سيده الشرعى ، الذى ما زال طفلاً ضعيفاً ، من برائن المبودية ، وأن القوانين وأصوات الشعب كفيلا بتبرئته من كل إثم وعيب .

ومن ذلك الحين ، أعنى منذ سنة ١١٦١ م تسترد أسرة لارا قوتها وبأسها ، إذ كان الشعب يرى دائماً أن الحكومة توجد حيث يوجد الملك ؛ كذلك كالخت المدن الواقعة على ضفة دويرة ، والتي كانت تابعة لآل لارا ، كفاحاً شديداً ، ومع ذلك فقد بقى التفوق في جانب فرديناند وحلفائه آل كاسترو ، وكان يؤيدهم أكبر رجال الدين ومنهم مطران طليطلة . وإذا كانت أسرة لارا قد استطاعت بالرغم من هزائهما في ميدان الحرب أن تحتفظ بسلطانها ، فإن في ذلك ما يدل على أنها كانت تعتمد على معاونات هامة ؛ ويرجع ذلك أيضاً إلى أسباب عديدة أخرى . وقد حدث أنه بينما كانت أسرة لارا تكافح ملك ليون وآل كاسترو بكل ما وسعت ، أن قام في وجهها عدو جديد ، هو سانشو السادس ملك ناغارا ، وانتزع ولاية ريوجا من قشتالة وضمها إلى مملكته ، وبلغ من ثقته بثبات هذا الفتح ، أن ترك ريوجا دون حرس ، وأرسل قوة من النافاريين لمداونة حليفه أمير بلنسية^(١) ؛ فانهز آل لارا فرصة هذا التهاون ، واستردوا ريوجادون كبير جهده .

(١) كان أمير بلنسية وشرق الأندلس يومئذ عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش ؛ وكان قد قوى أمره واشتد بأسه وأرسل جيوشه إلى غرناطة وقرطبة لمحاربة الوحدين ، وأوقع =

وبينا كان يبدو آل لارا في صورة الدافعين عن استقلال قشتالة والقومية القشتالية ، وينتمون بذلك عطف فريق كبير من الشعب ، كان آل كاسترو ، الذين كتب على يدهم هزيمة النصارى إزاء المسلمين ، يفقدون سلطانهم شيئاً فشيئاً . بيد أنهم بادروا قبل أن يفقدوا كل سلطانهم إلى التفاوض مع خصومهم ، وعقدوا معهم في « سوريا » في سنة ١١٦٣ م ، اتفاقاً على وقف القتال ، حتى يستطيع النصارى رد غزوات المسلمين بصورة أقوى وأجمع . ومع ذلك فقد اقتصر الفريقان في الاشتراك في محاربة الموحدين على إرسال فرسان قلعة رباح والداوية ومعاونتهم ، للدفاع عن الحدود . وما كاد ينقضى خطر المسلمين الداهم ، حتى نشبت الحرب الأهلية في قشتالة من جديد ، ذلك أن أسرة لارا لم تمقد الهدنة إلا لكي تحذر أعصاب خصومها ، ثم لتضربهم الضربة القاضية ، بمباغطة طليطلة عاصمة قشتالة . ولكن فرديناند رويز عميد آل كاسترو كان على قدم الحذر من غدر آل لارا .

ومن ثم فقد حطم الهجوم على طليطلة ، وقعد الماريتش دي لارا الشجاع حياته في المركة (سنة ١١٦٤ م) ، فأعلن أخوه نويو نفسه وصياً لقشتالة ومضى في متابعة الحرب بمنف وشدة ، وعاد آل لارا لجمعوا قواتهم بسرعة ، واستطاعوا أن يستمروا بذلك كون الملك الطفل في يدهم ، وأن يفتنموا بذلك تأييد كثير من القشتاليين ، الذين دهمهم ظفر الليونيين من قبل إلى مساواة آل كاسترو ؛ وتقدم نويو في غزو أراضى طليطلة بسرعة ، حتى أن الملك فرديناند اضطر أن يحالف أعدى أعداء عرش قشتالة ، أعني سانشو ملك نافارا ، وألفونسو الأول ملك البرتغال ، على محاربة ابن أخيه وحماه آل لارا ؛ ذلك أنه كان يرى أسفاً كيف تنمو هيبة الملك الطفل في نفوس القشتاليين يوماً عن يوم ؛ وكان كثير من القشتاليين الذين يخشون من تسلط الأجانب على حقوق البلاد ، يزداد

== بهم عدة هزائم ، وتحالف مع النصارى ، واستعان بهم في محاربة الموحدين ؛ وكانت وقته في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) (راجع ابن خلدون ج ١ ص ١٦٦ ، وابن الأبار في الحلة البراء ص ٢٢٠ ، والاستقصاء ص ١٥٧)

سخطهم تباعاً على آل كاسترو الذين يسندهم الليونيون ؛ ولم تأت محالفة فرديناند للبرتغال بالنتائج المنشودة ؛ فقد اضطر أن يخوض الحرب في ولاية استرامادوره ، حيث ثارت مدينتا شلمنقة ، وآبلية^(١) ضد سلطانه ، إما بتحريض البرتغال أو أسرة لارا ، ونادياً بشخص اسمه نونيو سيرانيز ملكا عليهما ؛ ولم يستطع إخماد الثورة إلا بعد كبير جهد ، بل لقد كان انتصاره على الثوار محض مصادفة سعيدة ؛ وأسر الزعيم الثائر ، وقتل .

وفي تلك الأثناء كان آل كاسترو قد أساءوا استعمال سلطانهم ، وأسرفوا في التعسف ، وشددوا في اضطهاد كل من كان في قشتالة وطليلة ، يميل في نظرم إلى خصومهم ، حتى ضاق القشتاليون ذرعاً بحكمهم وعسفهم ؛ وعملت أسرة لارا على استثمار هذه الحالة بذكاء ، وعقدت مع سكان طليطلة أوامر التفاهم ، وحققت عندئذ ما لم تستطع تحقيقه من قبل ، فاستولت عنوة على عاصمة قشتالة ، ولم تلبث أن نادت بالملك الطفل ألفونسو ، الذي لم يجاوز عندئذ الحادية عشرة من عمره ، والذي اتخذته عضداً لدعواها ، ملكاً على قشتالة ، وذلك في سنة ١١٦٦ م ، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعي ، ومقاومة الليونيين ، وآل كاسترو الظالمين .

وأبدت قشتالة كلها من ذلك الحين ولاءها للملك ألفونسو ، الذي يلقب بالنبييل ، ويلقبه البعض بالصغير ؛ واستأثر آل لارا بجميع السلطة ، وحتى رجال الدين ، بعد أن لبثوا إلى ذلك الحين يعضدون ملك ليون ، أعلنوا ولاءهم عندئذ لألفونسو ؛ وعمل المطران سربرون أسقف سيجونزا الذي عينه كبيراً للكنيسة الاسبانية بعد وفاة المطران يوحنا مطران طليطلة ، كل ما في وسعه لتدعيم عرش الملك الطفل . وعقدت قشتالة مع ملك نافارا هدنة مدتها عشرة أعوام ؛ ثم عقدت بعد ذلك ببضعة أعوام (في سنة ١١٧٠ م) مع أراجون مهادنة حماية وتحالف ؛

(١) شلمنقة هي (Salamanca) ، وآبلية (Avila) ، (راجع جدول الأعلام الجفرانية في نهاية الجزء الأول) .

وهنا ألقى فرديناند ملك ليون أن الأمور قد ساءت ، ولم يبق في وسعه أن يعاون أصدقاءه آل كاسترو ، فتركهم لصيرهم ، حتى لا يخاطر بالدخول في حرب مع قشتالة ؛ ولم يجد آل كاسترو ، الذين أخرجوا من قشتالة أمام سحق الشعب وتفوق آل لارا عليهم في القوى ، ملجأً بلوذن به سوى أراضي المسلمين ، وهناك أخذوا يدبرون وسائل الانتقام من أعدائهم .

ولم تهدأ الحرب الأهلية في قشتالة ، سوى بضعة أعوام . ذلك أن الفارين من آل كاسترو وعلى رأسهم فرديناند رويز ، عكفوا على تحريض الموحدين على غزو قشتالة . ثم نجحوا أخيراً في إقناع فرديناند ملك ليون أن يؤويهم إلى مملكته وعول فرديناند أن يشغل ابن أخيه ألفونسو ، الذي أسلم قياده إلى آل لارا ، وكان يضطرم نحوه بغضباً ، فمضد الزعماء الفارين ، وأمددهم بجيش غزوا به قشتالة وخرّبوا أراضي أسرة لارا . وهكذا أسفر الخلاف الحزبي عن ضحايا جديدة ؛ ونشبت في «لوركال» على مقربة من استبان دي جورماز معركة دموية (سنة ١١٧٤ م) ، وكان يحارب إلى جانب آل لارا الكونت أزوريوس صهر فرديناند رويز دي كاسترو ، فسقط في الميدان قتيلاً وسقط معه عدة كبيرة من القواميس والفرسان القشتاليين ، وأسر من الفريق الآخر الكونت نونيو والكونت رودريجو ولدا جوتيرو ، ولم يطلق سراحهما إلا بعد أن أقسما بالعودة إلى التسليم ، ووعد رودريجو أن يعود إلى الأسر بعد أن يشهد دفن أخيه القارو الذي سقط في الموقعة ، ولكن جثة الميت بقيت في تابوتها ولم يتم الدفن ، ولم يعد رودريجو . أما الكونت نونيو فقد عاد إلى خصومه في اليوم المحدد ، ولكنه لم يعد وحده ، وإنما عاد في سناة فارس ، ولم يجزئ بذلك إنسان أن يقوده إلى الأسر ؛ وهكذا أصلح آل كاسترو بالنكث والندم ما أفسدته الهزيمة .

وقد وصل آل كاسترو يومئذ إلى ذروة الحظوة لدى فرديناند ملك ليون . يدل على ذلك أنه قدم أخته غير الشرعية الدونا ستفانيا زوجاً لفرديناند رويز ، بعد أن طلق زوجته الأولى ابنة الكونت أزوريوس ؛ وكان الكونت الشهير

بيدرو فرنانديز من عقب هذا الزواج . بيد أنه مما يدعو إلى التأمل أيضاً ، أن الملك فرديناند طلق زوجته الأميرة البرتغالية أوراكا بسبب القראה المباشرة ، وتزوج من الدونا تيريزا ابنة الكونت نونيو دي لارا . وفي ذلك ما يدل على أن أسرة لارا كانت تعتبر في عداد الأمراء ، وقد كان هذا الزواج أكبر عامل في تهدئة النضال بين أسرتي لارا وكاسترو . أما كيف انتهى النزاع بينهما فلم تشر إليه الرواية ، وتوفي فرديناند رويز عميد آل كاسترو في سنة ١١٨٥ م .

الفصل الرابع

تاريخ مملكة البرتغال وليون

منذ وفاة القيصر ألفونسو إلى وفاة ألفونسو هنريكيذ وفرديناند الثاني

تلقى فرديناند ملك ليون ، وجليقية ، واشتوريش عن أبيه القيصر ألفونسو ، إلى جانب هذه الأقاليم الثلاثة ، دعوى السيادة على البرتغال . على أن مملكة البرتغال كانت تعمل لتوطيد استقلالها يوما عن يوم بما تحرز من نصر على المسلمين ، وما يتخذة ملكها من التدابير الحازمة ؛ وكان الشعب البرتغالي بأسره يعارض كل المعارضة في الاعتراف بأي نوع من التبعية لاسبانيا . وكان ملك ليون من جهة أخرى ؛ قد شغلت قواه في البداية بموقف قشتالة الخطر ، ثم بعد وفاة سانشو الثالث بما تلا من ظروفها وحوادثها المزجة ، فلم يستطع أن يزاوِل حق السيادة على البرتغال . ولكنه ما كاد ييسط سلطانه على قشتالة واسترما دوره بمعاونة آل كاسترو ، حتى بدأ يشهر عدوانه على جارته البرتغال ، مع أنه لاح قبل ذلك بقليل أن ليون والبرتغال كانتا على وشك عقد محالفة وثيقة بينهما ضد قشتالة وضد المسلمين ؛ وكان فرديناند قد تزوج بالفعل ابنة ملك البرتغال الأميرة أوزاكا (سنة ١١٦٥ م) ، ولكن أواصر المعاهدة والقربى لم تستطع أن تحم من أطاع الأمير وشهوته في الفتح ؛ ذلك أنه — نزولا على نصيح زعيم برتغالي أننى ملاذاً في بلاط ليون — عمد إلى تحصين مدينة ردرىجو (Ciudad Rodrigo) الواقعة على حدود البرتغال (سنة ١١٦٥) وأخذها قاعدة للقيام بمدة غارات مخربة على الأراضي البرتغالية المجاورة ، وأقام في الوقت نفسه عدة قلاع وحصون على حدود البرتغال

وأخذ يهدد الملكة الناشئة تهديداً قوياً .

وإذ كان الملك ألفونسو هنريكيز^(١) يقوم في ذلك الحين بغزوات هامة في أراضي المسلمين وقد انتزع بالفعل منهم عدة مواقع بينها قلعة يابرة (سنة ١١٦٦ م — ٥٦١ هـ) ، وكان فرديناند من جانبه مشغولاً بمحاربة سكان شلمنقة وآبله ، الذين ثاروا بتحريض البرتنال وأسرة لارا ، فيما يظهر ؛ ومشغولاً في الوقت نفسه بمحاربة المسلمين حيث انتزع منهم القنطرة والبوكرك والفاص^(٢) ، فإن الحرب بين ليون والبرتنال هدأت مدى حين ، وذلك بالرغم من توفر جميع العوامل لإضرارها .

وما كاد ملك البرتنال ، يقف على تطور الحوادث في قشتالة ، وما وقع فيها من نفى آل كاسترو ، وتحطيم سلطان فرديناند على يد آل لارا ، حتى بادر إلى حدود مملكته الجنوبية لخصنها ضد المسلمين ، وعهد بحمايتها إلى فرسان يابره ، وأرسل جيشاً بقيادة ولده وولى عهده سانشو لمحاصرة مدينة ردريجو ؛ ثم سار بنفسه في سنة ١١٦٧ م في جيش قوى إلى ولاية جليقية ، واستولى على مدينة ليميا والأندحاء المجاورة لها بحجة أن هذه الأراضي تتبع مملكة البرتنال ، باعتبار أنها أعطيت لأمه الملكة تيريزا ، من أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها ، بيد أن الجيش الذي سار بقيادة ولده إلى مدينة ردريجو هزم أثناء ذلك على يد الجند الليونيين .

وفي العام التالي (سنة ١١٦٨ م — ٥٦٤ هـ) سار ألفونسو هنريكيز إلى اقتتاح مدينة بطليوس من يد المسلمين ، وبدأ بالفعل محاصرة هذه القلعة الهامة ،

(١) سبق أن أوضحنا أن الرواية العربية تسمى الملك ألفونسو هنريكيز « ابن الريق » صاحب فالرية (راجع الحاشية في ص ٢٥٨ من الجزء الأول) ، ولكنها تسمى أحياناً « ابن الرنك » (وربما كان صوابه ابن الريك) (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، وكتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٧) .

(٢) تشير الرواية العربية إلى هذه الغزوة وإغارة الفرنج على ما وراء حدود البرتنال ، على مقربة من بطليوس ، ولكن بصورة غير واضحة ، ومع أنه يمكن القول بمطابقة الزمن والحوادث ، فإنه يصعب التحقق من مطابقة الأماكن (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١) .

ولكن وصلته الأنباء عندئذ بأن ملك ليون قد سار إلى قتاله في جيش ضخم ، وكان فرديناند قد حذر على البرتغاليين قبل ذلك أن يقوموا بفتح مكان معين من يد المسلمين مدعياً أن هذا المكان يدخل في منطقة أراضيه ، ولا يسوغ افتتاحه إلا لملك ليون فجاء ألفونسو هنريكز في التمجيل بافتتاح بطليوس قبل مقدم فرديناند معتقداً أن الكلمة ستكون لأقوى الفريقين ، واستطاع بالفعل أن يتزع معظم أنحاء المدينة ، ولم يبق في يد المسلمين سوى قلعتها ؛ وهنا قدم ملك ليون في جيشه ، وأتيح عندئذ للمسلمين المهزمين أن يشهدوا منظرًا غريباً ، هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين ، من أجل الاستيلاء على المدينة ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكز ، بمد هزيمة قسم من جيشه على يد الليونيين أنه غدا أضعف من أن يستطيع الاحتفاظ بمدينة لم يستول على قلعتها بمد ، وأنه أصبح مهدداً بالحصار من عدو يفوقه في الكثرة ، رد المدينة إلى المسلمين الذين غدوا عندئذ أصدقاؤه ، واعتزم المبادرة بالفرار مع بقية جيشه ، ولكن حدث عند ما هم المسلمون باغلاق الأبواب بسرعة ، أن علفت ساق الملك الفار برتاج الباب وسقط من فرسه ، فكسرت ساقه ، ووقع أسيراً في يد الليونيين .

وأبدى فرديناند شهامة وكرماً إزاء محنة عدوه ، فأمر أطباءه بأن يعالجوه بمنتهى العناية وعامله بكل ما يماثل به الملوك من صنوف التكريم والرعاية ، وكان يجلسه إلى جانبه ، ومع أن ملك البرتغال كان على أهبة لأن يسترف بالخضوع وأداء الجزية افتداء لحيته ، فإن فرديناند اكتفى بأن يشهد ألفونسو هنريكز برد الأماكن والأراضي التي انتزعتها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها ؛ ولما تم نفاذ هذا العهد عاد ألفونسو هنريكز إلى مملكته دون عائق ودون تضحيات أخرى ، بيد أنه استبقى ساقه العرجاء أثرًا مؤلماً لسقطته وأسره ، يحول دون ركوبه الجواد ، والسير إلى ميدان الحرب ؛ أما فرديناند فقد حاصر بطليوس ، وآثر المسلمون — حين أيقنوا أنهم لا يستطيعون الدفاع عنها طويلاً — أن يهادنوا ذلك الملك الظافر المتدل ، وأن يعطموا له عهد الخضوع ؛ فلما قدموا إليه طاعتهم

وخضوعهم ، أقر حاكم المدينة السلم « ابن حابل » (كذا) على حكمها ، وارتد عائدًا إلى مملكته ، بيد أنه سرعان ما ندم على تساهله مع مسلمي بطليوس ، ذلك أنه لم يمض طويل حتى نارت المدينة ، وعادت إلى الانضواء تحت سيادة الموحدين ، وغدت بقلعتها الثيمة قاعدة لما يقوم به الموحدون من غارات مخزبة في أراضي استرامادورة^(١) .

وقد وقعت أمور كثيرة تدل على مبلغ ما كان يسود الملكين النصرانيين في شبه الجزيرة ويفرق بينهما من عوامل الحسد وسوء الظن ؛ فإذا أتيج لأحدهما مثلاً أن يحرز على السلمين الظفر في إحدى المواقع ، فإن الآخر يخشى أن ينفذ ذلك النصر خطراً على مملكته ؛ وكانت كل غزوة يقوم بها النصارى في الأراضي الإسلامية المجاورة تثير الانزعاج بين ملكي البرتغال وليون ، كأنما هذا الغزو كان يقع في أراضيها ؛ والواقع أنه لم يكن ثمة بين الملكين أى سلام حقيقى ؛ وكان الخوارج البعدون من أتباعهما ، يلقون كل فريق لدى بلاط الآخر حسن الوفادة ، ويعملون بكل ما وسعوا لإذكاء الخصومة وسوء الظن بين الملكين ؛ ولما استطاع الموحدون أن يقفوا تقدم البرتغاليين في أراضيهم ، وأخذوا يحاولون استرداد المدن المفقودة ، وحاصروا مدينة شنترين بجيش ضخم (١١٧١ م — ٥٦٧ هـ)^(٢) ، لاح

(١) يبدو من مراجعة الرواية العربية أنها تتفق مع الرواية النصرانية في كون النصارى قد حاصروا بطليوس في تلك الفترة مرتين ... الأولى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) ، وهذا الحصار هو الذى قام به الفونسو هنريكز حبا تقدم ، والثانية في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) وهو الحصار الذى قام به فرديناند ملك ليون . وفي الرواية العربية ما يدل على أن الموحدين اشتركوا في الحصار الأول مع أهل بطليوس في الدفاع عنها . وفي الحصار الثانى ، بمث الشيخ أبو حفص المنتانى كبير قادة الموحدين بالأندلس ، أخاه أبا سعيد إلى بطليوس لإنجادهما ، وأثر أبو سعيد أن يعقد الصلح مع النصارى . أما ابن حابل ، أو ابن هابل الذى تثير الرواية النصرانية إلى أنه حاكم بطليوس وقت الحصار فهو تحريف ظاهر لاسم مريني لم تتضح لنا حقيقته . ولعل الاسم الحقيقى هو « ابن الحاج » (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠) .

(٢) تثير الرواية العربية هنا إلى خروج النصارى إلى أرض السلمين بقيادة « القومس الأحذب » ، ويلاحظ لنا أنها تقصد هنا القومس هنريكز ملك البرتغال ، لأن كلمة قومس هى تحريف كلمة Comes اللاتينية ومعناها السكونت ، وقد كانت تطلق يومئذ على أمراء إسبانيا =

ملك ليون أن الفرصة قد تسنح ، إذا ما هزم الجيش البرتغالي للقيام بفتوحات جديدة ، فحشد في الحال جيشاً قوياً ، وبادر بالسير إلى مقربة من ميدان الحرب . وأخذ يرقب الظروف والحوادث ؛ ولكن حدث قبل مقدمه ، أن نجح ملك البرتغال في إرغام المسلمين على رفع الحصار عن شنترين ، وهزمهم هزيمة قاذحة ، وأجأهم إلى الفرار . ولما علم الفونسو هنريكيز بمقدم اللوينين على هذا النحو المفاجئ ساوره القلق ، لأنه قياساً على ما سبق ، لم يكن يؤمل خيراً من مقدم جيرانه حينما يحرز النصر على المسلمين . على أنه آانس من نفسه استعداداً ومقدرة للاقاء هؤلاء الأعداء الجدد . ولكن فرديناند لم ير من الحكمة أن يخوض المركة مع البرتغاليين وهم في نشوة ظفرهم على المسلمين ، بل آثر أن يتظاهر بأنه لم يقدم بغية القتال ، وأرسل إلى ملك البرتغال رسولا يهنته بالنصر ، ويمرّب له عن أسفه لوصله متأخراً ، وعدم تمكنه بذلك من معاونته ؛ فشكره ملك البرتغال على جميل عواطفه ، وانتهز فرصة هذا المظهر الودى ليعمل على إلقاء الرعب في قلوب المسلمين ، وليشتد في مطاردتهم .

وعاد فرديناند إلى ليون . وقلبه يفيض أسفاً لفشل خطته التي دبرها باحكام . وكان قد طلق زوجه الأميرة البرتغالية أوراكا بحجة القرابة ، بالرغم من أنه أنجب منها ولداً ، هو ولى العهد (الانفانت) الفونسو ، ولم يكن متأثراً في ذلك بالقرار البابوى فقط ، ولكنه كان متأثراً بالأخص بخصوصيته للبلاط البرتغالى .

وحكم الفونسو هنريكيز مملكته من ذلك الحين آمناً لا يزعمه أحد من جيرانه التنصارى ، منتصراً في محاربة المسلمين كما سنذكر بعد . وأخيراً صدر القرار البابوى التعلق باستقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون ، بعد أن طال عليه الأمد ، وأصدره البابا اسكندر الثالث بمقتضى مرسوم بابوى في سنة ١١٧٩ م ، وفيه يمنح الفونسو هنريكيز لقب الملك ، وتوضع مملكة البرتغال الحرة من كل

= والأحدب وصف لافونسو هنريكيز ، يطلق عليه منذ إصابته في ساقه بعاة مستديمة حبا .
تهدم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠) .

عهود الجزية تحت حماية الكرسي الرسولى ، وفى مقابل ذلك تدفع البرتغال وفقاً لما تعهد به الفونسو الأول من قبل ، إلى الكرسي الرسولى قطعتين من الذهب كل عام جزية رضوية . وقد كان هذا القرار البابوى ضماناً حقيقياً لاستقلال البرتغال عن الدول النصرانية المجاورة ، وذلك نظراً لما كان يشتمع به الكرسي الرسولى يومئذ من الهيبة والنفوذ فى اسبانيا ، وهذا القرار نفسه يعتبر دليلاً على ضعف الملوك الاسبان فى هذا العهد ، وهو ضعف كان يستغله الكرسي الرسولى لتوطيد سلطانه ونفوذه . ولم تكن البابوية تجرأ على اتخاذ مثل هذا القرار من قبل ، وعلى الأقل فى عصر القيصر الفونسو ديمونديز ، وذلك خوفاً من معارضة قشتالة الشديدة ، ولم يكن فى وسع القرارات البابوية أن تمنح دعاوى قشتالة على ولاياتها . ولكن قشتالة وليون كانتا عندئذ تمانيان من خلاف الأشراف وغطرستهم ، ولم يجرؤ يومئذ أحد أن يثير أى اعتراض على القرار البابوى .

وأن الفونسو هنريكز يستحق من جميع الوجوه أن يلقب بمؤسس المملكة البرتغالية ، فقد حقق سلطانه بالسيف ، وكانت تحاول انتزاعه منه أمه سيئة الأخلاق وزوج أمه الحاقد ، وافتتح معظم أراضي مملكته بالسيف من يد المسلمين ، وانتزع بالسيف أيضاً من قيصر قشتالة استقلاله ولقبه الملوكى ، وقد اتبع إلى جانب شجاعته وصفاته الحربية المتأخرة ، سياسة ملؤها الذكاء والفتنة ، ووطد بذلك العمل الذى بدأه بالمنع توطيداً أبدياً ، واستمال إلى جانبه رجال الدين وعلى رأسهم البابا — وهم يومئذ فى ذروة القوة والسلطان — بما بذله من العطايا السخية ، وما منحه من الامتيازات الخاصة ، وعرف كيف يذكى الحماسة الدينية فى نفوس الشعب البرتغالى ، وأن يفهم تأييده باصدار دستور يحقق الحرية والمدالة لكل الطبقات ، ويحيط ورائة العرش بضمانات تحول دون نشوب الحرب الأهلية ، ويوطد دعائم القومية البرتغالية . وشغل أشراف المملكة بأن دفعهم لمحاربة المسلمين على الحدود ، واستطاع بتأسيس جماعة فرسان يابرة الذين خصصوا حياتهم لمكافحة المسلمين ، أن يحول شغف الأشراف بالحرب — وهو شغف كان فى دول شبه

الجزيرة الأخرى بتفجر في حروب داخلية مخربة — إلى وجهة قومية صالحة .
وحكم الفونسو هنريكيز الذي لقب بالفاتح بحق ، على هذا النوال البديع ، مملكة
البرتغال ، ردحا طويلا من الزمن ، مرهوب الجانب من النصارى والمسلمين على
السواء ، وتوفى بمد حكم طال نصف قرن ، في السادس من ديسمبر سنة ١١٨٥م
في السادسة والسبعين من عمره .

وقد أشاد البرتغاليون دائماً ولا سيما رجال الدين بذكرى هذا الملك العظيم ،
وكان رهبان دير الكوبازيه ، الذي يرجع فضل تأسيسه إليه ، يحتفلون حتى العصر
الحديث بعيده برسوم خاصة ، احتفالهم بعيد قديس ، ولكن البابوية لم تصدر مع ذلك
قرارها بتقديسه بالرغم مما بذله الملك يوحنا الثالث في هذا السبيل .

ولم تمض بضعة أعوام على وفاة الفونسو هنريكيز ، حتى توفي خصمه فرديناند
الثاني ملك ليون في ٢٨ يناير سنة ١١٨٨ أثناء حجه إلى قبر القديس ياقب ، وذلك
بمد أن حكم إحدى وثلاثين سنة . وقد اشتهر فرديناند بخلال الفروسية والشجاعة
والجود والتقوى ، أكثر مما اشتهر بالفطنة وبعد النظر . وكانت هباته للكنائس
والأديار لا حد لها ، حتى أنه وهبها جميع أملاكه تقريباً ؛ وكان يعامل جميع الناس
بمنتهى التواضع والرفقة ، ويحببه الشعب أكثر مما يرهبه كلك ؛ ولم يكن حكمه
سوى معترك من المنازعات والمعارضات ، التي لم يوفق حتى الكتاب المعاصرون
إلى استجلاء ظروفها ؛ ذلك أنه حينما يتصرف الأمير وفقاً لماطفة مؤقتة أو هوى
طارى ، ولا تقوم السياسة عنده على مبادئ ثابتة ، فانه يتعذر على المؤرخ أن
يظفر بالبواعث الحقيقية التي أملت هذه التصرفات . أما حروبه ضد البرتغال ، فقد
كان يرجو أن يظفر بالنعم فيها بالاستغلال والحديمة أكثر مما يرجو الظفر في ميدان
الحرب ، وسرعان ما نراه يتقرب إلى خصمه بمرض الصداقة والتحالف ، ثم يعود
فيعمل على تمزيقهما متى زهد فيهما . كذلك لم تكن سياسته نحو قشتالة قائمة على
مبادئ معينة ، فقد بدأ حامياً لآل كاسترو ، ولبت يدين لهم حيناً بسيادته على قشتالة
ثم ترك سير الحوادث بمد ذلك ، حتى أخرج آل كاسترو من قشتالة ، وتركهم

للقدر مدى حين ، حتى أن كبيرهم فرديناند رويز لم يلجأ إلى مملكة ليون ، بل لجأ إلى الموحدين ، ثم إن هذا الزعيم الفار لم يوجه أعداء دينه ضد قشتالة بادي ذي بدء بل وجههم ضد الملك فرديناند حاميه السابق ؛ وأغار في قوة من الموحدين على مدينة ردرنجو التي لم يكمل بناؤها بعد ، وكاد يظفر بافتتاحها ، لو لم يبادر فرديناند حينما علم بالخطر المهدق بها إلى إنجادهاء وإنقاذها فيما يشبه المعجزة . وقد عاد فرديناند بالرغم من خصومة آل كاسترو لمملكة ليون ، إلى استدعائهم إلى بلاطه ، وعهد إليهم بقيادة الجيش مرة أخرى . فلما أحرز على أيديهم في قشتالة ظفراً يذ كر على أسرة لارا ، انقلب غير بعيد إلى مصادقة آل لارا . ثم تزوج إحدى بناتهم ، وهي الدونا تيريزا ابنة فرديناند دي لارا ، وأرملة الكونت نونيودي لارا (سنة ١١٧٦م) ومزق بذلك أواصر حلفه مع آل كاسترو . وفقد فرديناند من ذلك الحين هيئته في قشتالة ، ثم انقلبت قشتالة بعد ذلك إلى محاربتة غير مرة ؛ ولم تعقد الهدنة بين قشتالة وليون إلا في سنة ١١٨٠ م ، بواسطة أراجون ، التي وثق فرديناند أواصر تحالفه بها منذ سنة ١١٦٢ م ، ولكنه لم يلبث أن أهمل هذا التحالف ؛ ومن ذلك الحين ، تبدو مملكة ليون ، إزاء الأعمال العظيمة التي قام بها الملك الفونسو النبيل في قشتالة ، في مؤخرة دول اسبانيا النصرانية . ويقص علينا التاريخ بعد ذلك من سيرة فرديناند ، أنه تزوج للمرة الثالثة ، بعد وفاة زوجته الملكة تيريزا ، بالدونا أورا كا ابنة أمير بكونيه الكونت لوبوس . ثم توفي بعد أن أعقب منها ولدين هما سانشو وجارسيا . وخلفه في الحكم ولده الفونسو الثامن ، أو التاسع إذا احتسبنا الملك الفونسو الأول الأرجوني بين ملوك ليون ، وهو ولده وولى عهده الذي رزق به من زواجه الأول بالأميرة أورا كا البرتغالية ؛ ومع أن هذا الزواج قد ألقى لشدة القرابة بين الزوجين ، فإن حق الفونسو في ولاية العرش لم يستند إلا إلى كونه ولد أبيه البكر ، ولم يحصل الولدان اللذان أعقبا من الزواج الثالث على شيء ، حتى ولا على حكم بعض الولايات ، مع أنه كان من المتبع — في مملكة ليون — أن تقسم المملكة إذا تعدد الأبناء .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

في عهد ألفونسو الثاني ملك أراجون

حينما تولى الملك الفتي ألفونسو الثالث — ولد سانشو الثالث — عرش قشتالة وهو في الحادية عشرة بعمامة آل لارا، عقب انتزاع طليطلة في سنة ١١٦٦ م، لم يكن حكمه في البداية سوى إقرار لتصرفات أتباعه وحكومتهم. بيد أنه لم تمض سوى أعوام قلائل، حتى استطاع الملك الفتي أن يقبض على زمام الحكم بنفسه بقوة وعزم؛ وحدث ذلك حينما أعلن نواب الأمة في المجلس الذي عقد في برغش سنة ١١٦٩، بلوغ الملك سن الرشد، وذلك وفقاً لما نص عليه في وصية أبيه من إعلان رشده حينما يبلغ الخامسة عشرة من عمره. واعتزم ألفونسو، أن يعمل لإصلاح شؤون مملكته المختلة ببعض الشيء وأن يقبض على خطر الفوز الدائم من جانب آل كاسترو وملك ليون والمسلمين، فعقد السلم مع جاره من الشمال الشرقى، سانشو ملك نافارا، ومع ألفونسو ملك أراجون؛ واتفق على أن يكون التهادن مع نافارا بشأن ولاية ريوجا لمدة عشرة أعوام وهو اتفاق لم يحترم؛ وحارب ملك قشتالة في البداية ملك أراجون، وهزمه على مقربة من قلعة رباح (سنة ١١٧٠)، وحمله بذلك على عقد الصلح والتهادن وعاون في عقد هذا التحالف بين الملكين، هنري الثاني ملك إنكلترا، الذي تقرر أن تتزوج ابنته اليونور من ملك قشتالة، وكان دائماً حليفاً مخلصاً لملك أراجون في حروبه في جنوب فرنسا؛ وتم زواج ملك قشتالة

بالأميرة الإنكليزية في نفس العام ؛ واستقبل سربون مطران طليطلة ، والكونت نونيو دي لارا أعظم أتباع الملك ، العروس في ولاية جويان ، وصحبها إلى قشتالة عن طريق أراجون ، ولم يخترقا أراضي نافارا نظراً لعدم التثبت من ولائها وصدقها ؛ وكان ملك قشتالة ينتظر عروسه في ثمر طركونه ومعه حليفه ملك أراجون ، وتم زفاف العروسين في حفلات باذخة نظمها ملك أراجون .

وسرعان ما أثار تقدم الموحدين في جنوبي اسبانيا جل عناية ملك قشتالة ونشاطه . وكانت قشتالة أشد الدول تعرضاً لخطر الموحدين ، وإن لم تكن الدول النصرانية الأخرى — خلافاً — بمنجاة من هذا الخطر ؛ ومع ذلك فإنه تذر على الملوك النصارى أن يضعوا فيما بينهم خطة موحدة لمحاربة المسلمين ، وكان كل منهم بالعكس يرمي نجاح الآخر بين الريب والحسد ؛ ولم ينفروا من مسلكتهم ، حينما طلب إليهم الأمير ابن سعد بن مردنيش (وتسميه الرواية الإسبانية « ابن لوبي » : Abenlope) ، الذي استقل بحكم بلنسية ومرسية عن الموحدين ، وغدا منذ سنة ١١٦٧ م تابعاً لملك قشتالة — عونهم المشترك . ولما لم يظفر هذا الأمير منهم بالمعونة المنظمة القوية ، اضطر أن يخضع أمام تفوق أعدائه (سنة ١١٧٢ م)^(١) وبذا انهار هذا الحاجز الأخير الذي كان يوسع النصارى أن يصمدوا فيه أمام الموحدين من هذه الناحية ، وأصبح العدو القوي ، بعد استيلائه على ولايتي بلنسية ومرسية ، يشن هنا وهناك في أراضي الدول النصرانية ويزعجها بغزواته المخربة ، ويرغمها على القيام باستعدادات حربية عظيمة ؛ وبينما كان ملك ليون يحاول ، في جنوب غربي الجزيرة ، أن يحول دون فتوح ملك البرتغال في أراضي المسلمين ،

(١) كان محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش أعظم الزعماء الثائرين الذين ظهروا بالأندلس عقب انهيار سيادة المرابطين ؛ وقد استولى أولاً على مرسية منذ سنة ٥٤٢ هـ ، ثم اتسع ملكه تباعاً حتى شمل شرقي الأندلس كله ؛ واستعان بالنصارى في محاربة الموحدين مراراً ؛ (راجع الجزء الأول ص ٢٣٣ و ٢٤٠) ؛ واستمر في نضاله ضد الموحدين ، حتى غلبته بعثتهم وجيوشهم المتوالية ، وحاصرت مرسية سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفي أثناء الحصار في العام التالي (سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٣ م) ، (راجع في سيرته وتفاصيل ثورته وحروبه ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ و ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ وابن الأبار في الحلة السراء ص ٢٣٠ — ٢٣٢) .

وقفت الفيرة وسوء الظن في قواتهما ، كانت الدول النصرانية الثلاث في شمال شرق الجزيرة ، أعنى قشتالة وأراجون وناقارا ، تتنازع فيما بينها على حقوق الفتح في أراضي المسلمين ، وتفاقم النزاع ، حتى كادت تغدو هي فريسة للمسلمين . وسرعان ما عقدت أوامر التحالف بين هذه الدول ، كما انفصلت من قبل ؛ وكانت المصالح المشتركة تحمل أراجون وقشتالة ، بالرغم مما كان ينشب بينهما من الخلاف في أحيان كثيرة ، على توثيق حلفهما ، ولو لم تكن مملكة أراجون مفككة مترامية الأطراف على هذا النحو ، لما بلغ ملك في شبه الجزيرة مبلغ ملك أراجون من القوة والسلطان ؛ كذلك لم تكن أراجون أقل معاناة من قشتالة من جراء غطرسة الأمراء التابعين الذين يسيطرون على الجيش . أجل لم يكن الفونسو الثاني ملك أراجون عاطلا من صفات الملك العظيم ، فقد كان يتمتع بقسط وافر من الكفاية والشجاعة وحب العدل ، وقد دلل منذ حداثته على أهليته لتولى العرش ؛ وولى الحكم في سنة ١١٦٢ م ، وهو في الحادية عشرة من عمره ، تحت وصاية أمه بترونيا ، واتخذت في ذلك الحين ، في مجلس مرقسطة النيابي ، قرارات هامة للمحافظة على سلام البلاد ، والحد بقدر المستطاع من عسف الأشراف وعنتهم ، ورؤى لتوطيد دعائم السلم مع الدول المجاورة ، أن يعاقب الذين يعملون لتعمير السلم معاقبة المعتدين على العرش .

ولما بلغ الفونسو الثاني الخامسة عشرة من عمره ، وانتظم في سلك الفروسية وأعلن رشده ، لم يلبث أن اجتذب إلى ميدان الحرب ، واستغرقت المحافظة على أملاك أراجون الواقعة في جنوبي فرنسا ، كل جهوده وقواه ؛ ذلك أن الأمراء التابعين ، وجيرانهم من الزعماء الطامعين ، كانوا يثيرون ضرام الحرب في هذه الأنحاء بلا انقطاع ؛ وفي سنة ١١٦٦ م ، قتل الكونت برنجار أمير بروفانس وعم الفونسو الثاني في حصار « نيزا » ، فبادر الكونت ريموند دى تولوز ، الذى كان ابنه متزوجا بابنة برنجار الوحيدة ، باحتلال الولاية ، وتزوج من الكونتيسة ريشيلدا أرملة الأمير القتيل ، لكي يوطد حقوقه في امتلاكها . ولكن ملك أراجون ،

الذى أعلن أبوه أميراً لبروفانس في نفس الوقت مع الكونت برنجار ، على يد القيصر فردريك براروسا (ذو اللحية الحمراء) ، كان يدعى على الولاية حقوقاً أمتن وأوثق ، ولذا بادر إلى تأييد حقوقه بالسيف ؛ وحارب أشرف الولاية والجنويون في هذه الحركة إلى جانب ملك أراجون ، حتى ظفر بالنصر على خصمه الكونت دى تولوز ، خصوصاً وقد كان الكونت يشغل في الوقت نفسه بمحاربة هنرى الثانى ملك إنكلترا ؛ ولما كان حكم بروفانس أمراً صعباً نظراً لبعدها عن أراجون وكانت أحوالها المضطربة تستدعى أن يقوم على إدارتها حاكم مقيم ، فقد رأى ملك أراجون أن يعقد مع أخيه الأصغر بيدرو اتفاقاً بتبادل الأراضى ، وأعطاه ولاية بروفانس ليحكمها بمهد الجزية من قبل العرش الأراجونى ، نظير استيلائه على ولاية شرطانية ، وقرقشونة وجزء من أربونه (سنة ١١٦٨ م) .. وتوطد سلطان الأمير الجديد فى الولاية ، باتفاق عقد فيها بعد ، فى سنة ١١٧٦ م ، مع الكونت دى تولوز ، والتزمت مدينة نيزا مع ذلك أن تدفع بمويضاً مالياً كبيراً إلى ملك أراجون نظير مقتل الكونت برنجار .

أما فى اسبانيا ، فكان ملك أراجون يسير من حرب إلى حرب ، ولم تكن الملائق بين أراجون وقشتالة طيبة فى البداية . ومع ذلك فقد رأى الفونسو الثانى أن صالحه يقضى بعقد السلم مع قشتالة والتحالف معها ، وذلك لكي يستطيع محاربة المسلمين والناقارين بنجاح وظفر ؛ ثم قام بعدة غزوات مغزبية فى أراضى بلنسية ، وأرغم عدة من صغار الأمراء المسلمين على دفع الجزية ، وحصن مدينة ترويل ، ليتخذ منها فيما بعد قاعدة للفرز فى تلك الأنحاء .

وأثارت هذه الانتصارات غير سانشو السادس ملك نافارا ، فساد ملك أراجون يسير إلى محاربة المسلمين ، حتى انقض سانشو بقواته على أراجون ، واضطر الفونسو الثانى أن يرتد إلى محاربته وأن يترك غزواته فى الجنوب ؛ ورأى الفونسو أن يستعين بقشتالة على محاربة خصمه فوثق أواصر حلفه معها ، وتزوج من أخت الفونسو النبيل ملكها ، الأميرة سانشا فى سنة ١١٧٤ م ، وذلك بالرغم

من أن عروسه الأولى الأميرة يودشيا ابنة قيصر قسطنطينية ، كانت في طريقها يومئذ إلى اسبانيا . وهكذا خاضت قشتالة وأراجون الحرب معاً ضد نافارا مدى أعوام ، ومع ذلك فانهما لم يحققا من ورائها سوى نتائج يسيرة ، إذ كان من الصعب القيام بفتوح ثابتة في أرض تنقص بالجيال والقلاع المنيعة ، ولذا رحبتا بما عرضه هنرى الثانى ملك إنكلترا من التوسط بمقد الصلح بين الفريقين . ومع أنهما لم تغتبطا بنتائج هذا المسمى ، فانه أسفر مع ذلك عن وقف الحرب بين الدول الثلاث .

وتبدو أهمية هذا التحالف بين قشتالة وأراجون بالنسبة لملك قشتالة متى استعرضنا حال مملكته في ذلك الحين . فقد كان ملك قشتالة في حاجة دأمة إلى المال ؛ وحينما طالب الملك الأشراف في مجلس برغش بمبالغ طائلة اعترض بيدرو دى لارا على هذه المطالب القادحة بشدة ، بحجة أنها تناقض حقوق الأشراف وانسحب من الاجتماع مع معظم أشراف قشتالة . ولم تكن السكينة قد سادت بعد أرجاء المملكة ، فقد كان القتال مستمرا بين آل لارا وآل كاسترو ، وكان فرديناند ملك ليون يعمل على إذكاء الاضطراب بكل الوسائل الممكنة ، وكان سانشو ملك نافارا يتحفز دائماً للزحف على برغش لانتزاع ولاية ريوجا ، وكان المسلمون يهددون كل آن بأن يجتاحوا المملكة كلها بجيوش ساحقة ، وكانت استرامادوره ، وهى ولاية قشتالة ، كلها في قبضة ملك ليون ؛ وكان ملك البرتغال خارجاً على سلطان قشتالة ؛ فلم يبق إلى جانب قشتالة إزاء هذه الجبهة من أعدائها وخصومها سوى أراجون ؛ واضطرت قشتالة أن تشتري صداقة حليفها بثمن يدنو إلى التضحية ؛ فقد دفع الفونسو النبيل ثمن معاونته أراجون في حملته ضد الموحدين ، تنازله عن حق الجزية على سرقسطة وغيرها من الأراضى التى منحها إياها القيصر الفونسو ؛ وأسفرت هذه الحملة المشتركة عن افتتاح قوته (أو كونكه) في سنة ١١٧٧ م — ٥٧٢ هـ وهزم الموحدون بعد أن تقدموا حتى ظاهر طليطلة هزيمة قادحة بيد أن ملك قشتالة لم يستطع أن يجتثى ثمرات ظفريه إذ دبت الغيرة إلى ملك أراجون ، وغدا

يخشى أن تصبح قشتالة من القوة بحيث تنتهى بافتتاح أراضي بلنسية ومرسية ،
وهى أراض كان ملك أراجون يرى أنها تدخل فى منطقة الفتح الخاصة بملكته .
ومن جهة أخرى فقد أخذ فرديناند ملك ليون يتحرك من جديد ، ولم يكن يكف بفرز
أراضى قشتالة وانتزاع بعض الأماكن منها ، بل أخذ يستعد لاستئناف الحرب
معهما ؛ وترتب على ذلك أن تحالفت قشتالة وأراجون والبرتغال على محاربة ليون
ونافارا (سنة ١١٧٨ م) ، ولكن ملك أراجون اضطر أن يسير إلى جنوبى فرنسا
لكى يوطد وسائل المحافظة على أملاكه الفرنسية ومنها ولاية روسيون ، ومدينة
بزييه وما إليها من الأراضى التى آلت إليه باليراث ، ولم يجد النصرارى إزاء غارات
الموحدين المستمرة بدا من المضى فى مراقبتهم والتأهب لردم ، وهكذا تطور الموقف
بين الدول النصرانية ، وعملت أراجون ، وربما أيضاً هنرى الثانى ملك إنكلترا ،
على إزالة الجفاء فيما بينها ، وأسفرت الوساطة عن عقد الصلح مرة أخرى بين قشتالة
وليون ، وذلك فى مدينة توردسيلاس فى سنة ١١٨٠ م وسوى النزاع القديم بين
أسرقى لارا وكاسترو ، وكذلك أزيلت أسباب سوء التفاهم بين قشتالة وأراجون
وعقدت بينهما فى كازولا (سنة ١١٧٩ م) معاهدة نص فيها على أن شاطبة وبلنسية
ومرسية وما إليها من الأراضى ، تقع فى منطقة الفتح الخاصة بأراجون ، وأن
الأراضى الواقعة غرب ذلك ومنها غرناطة تقع فى منطقة الفتح الخاصة بقشتالة .

وليس فى تاريخ الممالك النصرانية الاسبانية فى عشرة الأعوام التالية ما يستحق
التفصيل والإفاضة ؛ وقد رأينا ، لكى لا نرهق القارى بسرد حوادث وظروف
متأثرة ، أن نفتصر على وصف حالة اسبانيا بصفة عامة متخذين قشتالة دائماً محور
الحوادث والتطورات ..

أفضت المعارك والمنازعات المستمرة بين ملوك اسبانيا إلى أن اجتاحت اسبانيا
النصرانية مزجة هائلة من القسوة والتوحش ، ووصل حكم العنف وعدوان الأقوياء
فى شبه الجزيرة إلى ذروة الاضطرام ؛ واندفع الأشراف والفرسان جميعاً إلى خوض
الحرب ، يكافح بعضهم بعضاً فى معارك ومبارزات لانهاية لها ، ومنرت الآهواء

الحزبية كل الأسر وروابط القرى ، وساد القتل والمطاردة ، حيث ضعفت السلطة العامة . وهكذا لاح أن نظم الدولة والحكومة قد غدت على وشك الانهيار ، وحتى الكنائس ورجال الدين ، بمد أن كان الدين يسبغ عليهم لونا من القدس ، لم تبق لهم حرمة ، ووطئت بالأقدام كل الوصاية البشرية والسموية ، واضطرت جماعات الفرسان الدينية التي قامت لتكافح من أجل الدين ، أن تبذل في قمع أعمال العنف التي يقوم بها الناهبون من الفرسان النصارى ، مثل الجهد الذى تبذل في محاربة المسلمين ؛ ومع أن الأمير الشجاع الفونسو الثانى ملك أراجون ، استطاع أن يدافع عن مملكته ضد جميع أعدائها الخارجيين ، وأن يضم إليها ولاية بروفانس عقب وفاة أخيه بيدرو الذى قتل فى سنة ١١٨١ ، وذلك بالرغم من معارضة الكونت دى تولوز ، فإنه لم يستطع مع ما اتخذ من الإجراءات الحازمة ضد آثام الأشراف وضد مزاوله حق القوة ، أن يحول دون وقوع أفزع الشناعات فى بلاده ؛ ففى عهده مثلاً وقعت حادثتا قتل فى طركونة قتل فى كل منهما مطران . وتفصيل ذلك أنه فى بداية حكمه حدث نزاع بين المطران هوجودى سرفيلوس ، وبين حاكم طركونة روبر بورديه ، وقام جيوم ولد الحاكم بتخريب جميع الأراضى الواقعة حول طركونة . ولما أراد الملك أن يعاقب العتدين بشدة ، قتل المطران بتحريض روبر ، فأمر الملك باخراج روبر وأسرته من المملكة ؛ ففر إلى ميورقة ولجأ إلى حماية المسلمين ؛ فخشى الملك أن يغدو المجرم الفار على هذا النحو خطراً على قطلونية ، فسمح بعوده وأسرته إلى المملكة بالرغم من جريمته ؛ وكان لهذا التهاون أثره السيئ ، فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى ارتكبت فى طركونة ذاتها نفس الجريمة على يد جيوم ريمونديز دى مونكادا ، الذى اشتهر من قبل بمعارضته للملك ومنازعته له فى حقوق الملك ، فقد اغتال هذا الرجل الذى ينتمى إلى أكبر أسر قطلونية ، بنفسه ، حياة برنجار مطران طركونة ، وذلك فى سنة ١١٩٤ م ، ولم تمن الرواية بأن تقدم إلينا حتى سبب هذه الجريمة .

ولم يقتصر الأمر على أن كانت أسرتا لارا وكاسترو تنهزان فى قشتالة فرص

المنازعات والحروب التي تضطرم بين ملوك اسبانيا النصرانية ، لتفوز كل منهما بسلطة الحكم ، بل كان مثل ذلك يحدث في الممالك النصرانية الأخرى ؛ ففي أراجون كان بطل هذه الحركة بيدرو روي دي أراجرا ، وهو نافاري استقر في الأراضي الأرجونية ، وكان مثل البطل القديم ، السيد الكنييطور ، فارساً شجاعاً وقائداً عظيماً ، يحارب طوراً إلى جانب المسلمين ، وطوراً إلى جانب النصارى ، ويبيع معاونته أحياناً إلى ملك أراجون ، وأحياناً إلى ملك قشتالة ، وآونة إلى ملك نافارا ، ويستغل منازعاتهم ، لتوطيد سلطانه ، واستقلاله عنهم جميعاً ؛ وقد استطاع بحالفة أمير بلنسية أن يستولى على مدينة شَنْتَمَرِيَّة الشرق (شنتمرية ابن رزين)^(١) ، وهي موضع أسبغت عليه الطبيعة والفن حصانة خارقة ، واستطاع بإعادة مركز الأسقفية القديم في سيجور بيجا ، بتعميد البابا إسكندر الثالث ويوحنا مطران طليطلة أن يغم عطف رجال الدين والأتقياء . ولما أدرك ملكا قشتالة وأراجون ما تنطوى عليه محاولته وخديعته ، وشهرا عليه الحرب ، ألقي بيدرو دي أراجرا ، في تحاسد الملكين خير حليف ، إذ كان كلاهما يؤثر أن يرى بيدرو ، وهو زعيم محلي ، على أن يرى زميله ، مالكا لهذه القلعة الهامة الواقعة في شعب الجبال عند الحدود ؛ وهكذا استطاع بيدرو حتى وفاته أن يحتفظ بسيادته على شنتمرية الشرق ، بل لقد توارثها عقبه مدى حين .

وكانه لم يكف اسبانيا النصرانية ما كانت تمناني من عوامل الاضطراب والتفرق ، فكان مما أذكي الفتنة إلى الذروة أن اختلف الملوك الأسبان مع الكرسي الرسولي ، وأدت منازعاتهم معه إلى أن تحرم البلاد حتى من عزاء الدين .

وقد كان الفونسو هنريكيث ملك البرتغال وفردبناند ملك ليون يجلان الكنيسة ورجال الدين أيما إجلال ، ولكن ولديهما وخلفيهما ، الملك سانشو الأول الذي

(١) هي حبا تقدم في حواشي الجزء الأول مدينة Albarracin الحديثة وهو تحريف لاسم بني رزين حكاهما المسلمين أيام الطوائف . وتنزه الرواية الإسلامية بما كانت عليه كنيستها الشهيرة من الفخامة وما كانت تحتويه من نقائس التحف (راجع معجم ياقوت تحت كلمة شنت مريّة)

تولى عرش البرتغال فى سنة ١١٨٥ م ، والملك ألفونسو التاسع الذى تولى عرش ليون فى سنة ١١٨٨ م ، لم يشاطرا الوالدين هذه الماطفة ، وقد لاح فى بداية عهد الملكين ، أن الخصومة القديمة بين ليون والبرتغال من ناحية ، وبينها وبين قشتالة من ناحية أخرى ، قد خمدت جذوتها ، والتقى ملك ليون الفتى فى مدينة كاربون فى سنة ١١٨٨ ، بألفونسو النبيل ملك قشتالة ، وتلقى منه عهد الفروسة ، ولكنه حينما قبل يد ملك قشتالة إعرابا عن المحبة والعرفان ، عد ذلك منه رمزا الخضوع والطاعة . ولم تقع النفرة بين الملكين بسرعة ، ولكنهما بالعكس قاما فى العام التالى بحملة مشتركة لمحاربة المسلمين فى أراضى إشبيلية ، بيد أنه ما كادت هذه الحملة تنتهى حتى دب النزاع بينهما من أجل الأراضى المفتوحة ؛ فلك قشتالة يدعيها لنفسه باعتباره صاحب السيادة ، ويدعيها ملك ليون باعتبارها جزءاً من ولايته استرما دوره . ولما رأى ملك ليون الفتى أنه محصور بين جارين قوين يهددانه بالحرب دائماً بالرغم مما يربطه بهما من أواصر القربى ، اضطر لىكى يستطيع مدافعة ملك قشتالة الذى غزا أرضه بالفعل ، أن يعقد مع الملك الآخر حلفاً وثيقاً ؛ ومع أنه كانت تجمعه بآبنة سانشو ملك البرتغال ، ألدونا نيريزا ، رابطة قرابة مباشرة — (إذ كانت أمه خالة الأميرة) — تعتبرها الكنيسة مانعاً من الزواج ، فإنه اقترن بها (سنة ١١٨٩ م) ، إذ رأى فى هذا الزواج وسيلة لتوطيد عرش ليون .

وما كاد البابا كلنضوس الثالث يقف على هذا الزواج ، حتى أرسل إلى اسبانيا مندوباً نادى بإلغائه ؛ ولكن سانشو ملك البرتغال ، الذى لم يكن يبدى فى مملكته كبير حساب للكنيسة ورجال الدين ، لم يعبأ بأمر البابا ؛ وكذلك لم يعبأ به صهره . ملك ليون ، إذ كانا يريان فى هذا الزواج عاملاً فى توثيق الاتحاد بين مملكتيهما ، ويريان أن ما يملكه البابا من حق انتزيع بالنسبة لطوائف الشعب ، لا يسرى على الرؤوس المتوجة .

وفى تلك الأثناء اعتلى سلسلتان الثالث كرسى البابوية ، وأصر على وجهة نظر سابقة ، وتحدث مندوبه فى المجتمع الكنسى الذى عقد فى شلنقة فى سنة ١١٩٢ م

لبحث الموضوع طالبا إلغاء الزواج في الحال ، ولكن أساقفة ليون واسترقة
وشلمنقة وسمورة عارضوه وصرحوا بأن الزواج صحيح لم تخرق بعقده أية نصوص
سماوية أو كنسية ، وأن ما يعتبر من الموانع بالنسبة للقوانين الشمسية أو نظم الدولة
لا يطبق على الملوك ؛ إذ أنه في وسعهم إلغاء ماشرعوا ، وفي وسع الملوك أن يقرروا
عقد زواج شعبي أو يلقوه ، ولكن ذلك لا يمكن أن يطبق عليهم بواسطة سلطة
أسمى إذ أن ذلك يتعارض مع سيادتهم المستقلة . ولكن المندوب البابوي أصر على
رأيه وقرر « حرمان » الأساقفة المخالفين ، وهدد الملكين « بالحرمان » أيضاً إذا
استمرا على معارضتهما للقرار البابوي . فلما أبى الملكان الخضوع صدر في العام التالي
(١١٩٣ م) قرار بابوي يحرم كل المراسيم والطقوس الدينية في مملكتي البرتغال
وليون . فمئذ بلغ الاضطراب والعنف في الملكتين الذروة ، ولا سيما بعد أن
بث فيهما حكم القوة ومحاربة المسلمين روح النضال والجريئة ، ولم يكن يحول دون
انحلالها النهائي سوى الدين وأعوانه ؛ ولما لم يذعن الملكان ، واشتد هياج الشعب
لحرمانه من الطقوس الدينية ، وأبدى رجال الدين امتناعهم من القرار البابوي ،
عاد البابا وأذن على ضراعة أسقف سمورة الذي زاره في رومة برفع قرار الحرمان
الديني من الملكتين ، على أن يبقى انبطلان ساريا على كل حفل ديني يقام بمحضرة
ملك ليون أو ملكتها ، وأخيراً بعد نضال دام بضعة أعوام نزل الزوجان الملكيان
على إرادة البابا ، وقررا الانفصال بعد أن أعقبا من الزواج ثلاثة أولاد ؛ وهكذا
انتصر الكرسي الرسولي ، وليس بعيداً أن يكون خطر الموحدين الداهم من بواث
هذا الخضوع لإرادة البابا . ذلك أن الشعب كان يرى في انتصار المسلمين على
النصارى عقاباً من الله من جراء زلات ملوكه ، وكان معظم رجال الدين يروجون
هذه الفكرة ، ولم يكن من اليسور ضمان خضوع الشعب إلا بإذعان ملوكه
للكرسي الرسولي .

ولم يكن لملك قشتالة يومئذ عقب من الذكور ، ولكن كانت له عدة بنات
أكبرهن برنجاريا ؛ وكان لابد من اعتبارها وارثة العرش وفقاً لقانون الوراثة

القشتالي حتى يرزق الملك بولي للمهد ؛ وكان الفونسو يعتقد أنه يستطيع بمصاهرة آل هوهنشتاوفن قياصرة ألمانيا أن يسبغ على مملكته قوة جديدة ؛ وكان سيد ألمانيا يومئذ القيصر فريدريك برباروسا (ذو اللحية الحمراء) يميل إلى هذا المشروع ، مؤملا أن يتم بتحقيقه عرش قشتالة لولده الأصغر كوزاد ؛ وعلى ذلك فقد عقد الزواج ، وجاء ولد القيصر إلى اسبانيا في سنة ١١٨٨ وتاقى من ملك قشتالة عهد الفروسية في كاربون ، وأقيم الحفل الديني بقرانه بولية العهد في طليطلة في حفلات باذخة ، ولم يتم الزواج يومئذ نظراً لحدثة ولية العهد . بيد أنه لما رزق ملك قشتالة بعد ذلك بولده وولى عهده فرديناند ، وقضى بذلك على آمال كوزاد في ولاية العرش ألغى الزواج ؛ وتزوجت برنجاريا فيما بعد بالفونسو التاسع ملك ليون .

وفي تلك الأثناء كانت الحرب تهدد بالاضطرام من آن لآخر بين الملوك الثلاثة الذين تلتق أملاهم عند منابع نهر دوبرة ، ولكن النار كانت تطفأ في كل مرة بسرعة قبل أن يمتد لمبيها بصورة مخربة ؛ ولم تك ثمة سياسة مقررة ، ولكن المحالقات كانت تمعد وتفصم وفقا للأهواء والظروف ؛ فقد عمد الفونسو الثاني ملك أراجون مثلاً بالرغم مما اتصف به من الحزم وحسن التقدير لظروف عصره إلى مصادقة أعدائه سانشو السادس ملك نافارا ، وعقد معه في سنة ١١٩٠ م حلفاً ضد ملك قشتالة أخلص حلفائه ، ولم يفد من ذلك سوى صاحب شتمرية الشرق (البراسين) ، ولا توضح الرواية لنا بواعث هذا الحلف المدهش الذي مالبث أن غدا بانضمام ملكي ليون والبرتغال إليه في العام التالي خطراً حقيقياً على قشتالة . بيد أن هذا الحلف بالرغم من خطره الظاهر لم يحدث أثراً يذكر . ذلك أن الخلاف والتحاسد حالا دون نجاحه ، ومالبث أن انتهى بالحل ، وأثار انقسامه بين الحلفاء منازعات جديدة . هذا إلى أن أراجون رأس التحالف لم يكن يوسمها يومئذ أن تشدد الضغط على قشتالة نظراً لأن تحرك الكونت دى تولوز ، وغزوات الموحدن على حدودها الجنوبية كانت تستغرق كل اهتمامها .

فهل نعجب بعد ذلك إذا كان الفونسو ملك قشتالة قد هزم حينما لقي وحده

قوى الموحدين الغالبة في ميدان الحرب في موقعة الأرك^(١) الدموية في سنة ١١٩٥م (٥٩١ هـ) . وقد خاضها دون أن يعاونه أحد من باقي الملوك النصراني ؛ بل كان منهم من يعاون الموحدين جهراً مثل ملك نافارا ، ومن يعاونهم سراً مثل ملك ليون ، وكلاهما كان يتظاهر بصداقته ويعده بالعون .

وأخيراً اضطر ملك قشتالة لكي يستطيع الاحتفاظ بملكه أن يرتعى في أحضان الموحدين ، وأن يتبع سياسة المصلحة الشخصية التي سار عليها باقي ملوك اسبانيا النصرانية . وهنا فقط أدرك البابا سلسطان الثالث ، والفونسو الثاني ملك أراجون فداحة الخطر الذي يهدد النصرانية في شبه الجزيرة ، وحاول ملك أراجون بكل ماوسع من غيرة وعزم أن يعمل على اجتماع القوى النصرانية ، فسافر إلى شنت ياقب وتفاوض مع ملك ليون ، ثم سار إلى قسطنطينية حيث التقى بسانشو ملك البرتغال ، واجتمع مع ملك قشتالة وملك نافارا في مدينة ترازونا الواقعة على حدود مملكتيهما ؛ ولكن جهوده ذهبت عبثاً ولم يوفق إلى تهدئة الخصومات المضطربة ، ولا سيما بين ملكي ليون وقشتالة بالرغم مما كان يجتمعهما من أواصر القرى .

فعاد الفونسو الثاني إلى مملكته وهو يفيض أسفا لفشل مساهم ، واستدعى مجلساً في برينيان يمثل الطبقات في لانجدوك وبروفانس ، وهناك أصابه المرض وتوفي في ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ في الرابعة والخمسين من عمره بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاماً . وقد اشتهر الفونسو بفروسته وحزمه وجهه للعدالة ، واعتمد بالأخص على جهود الداوية (فرسان المبد) ، وفرسان القديس يوحنا في حماية الحدود من غزوات المسلمين ، وعمل باتخاذ الإجراءات الصارمة على تأييد السكينة والنظام ، وقد كان يهددها يومئذ حكم القوة بلا انقطاع ؛ وكان يضع المسافرين الذين يجوبون البلاد تحت رعايته الملكية لحمايتهم من كل اعتداء ، وعمل على تعضيد الزراعة وتحسين مستوى العيش في المملكة باتخاذ الإجراءات الحكيمة وتوفير أسباب العيش للفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى ، وأبدي نحو الكنائس والأديار

(١) هي المعروفة في الرواية النصرانية بمركة « الأركوس » Alarcos .

منتهى الجود ، وكان قوى النفس والخلق يسبغ على العرش بجلاله وهيبته روعة ووقاراً ؛ وقد نمي عليه بمض خصومه نكته وإخلاله بالعهد ، ولكن هذا الاتهام يرجع إلى الحفيظة أكثر مما يرجع إلى الواقع ، ولم يقصد به إلا النيل من سمعته وهو بذلك غير جدير بثقة المؤرخ .

وكان ألفونسو الثانى مثل أبيه ريموند برنجار الرابع نصيراً عظيماً للشعر وأرباب القريض الغنائى (طائفة التروبادور^(١)) ؛ وكانت أملاكه فى جنوبى فرنسا مهداً لازدهار الشعر البروفنسى (نسبة إلى بروفانس) ؛ وكان يتنافس مع صديقه رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا فى خلال الفروسية وفى بذخ الحفلات الملوكية التى لم تسكن تخلو من المنين قط ، وكان يجمع حوله أشهر أقطاب الشعر الغنائى فى هذا العصر مثل بيير ريموند دى تولوز ، وهوجو برونيه ، وبيير فيدال وغيرهم .

وكان معظم أولئك الشعراء (التروبادورين) يتمتعون بمطاف هذا الملك الرفيع الخلال وجوده ، ويكثر من الإشادة بذكوره فى قصائدهم وأناشيدهم ، ولم يهجه منهم سوى برتران دى بورن الذى سماه دانتى « بمنى الحرب » ، والذى لم يسلم من هجانه أحد من الأكابر ؛ فقد غمر هذا الشاعر ملك أراجون فى قصائده بمطاعته ورماء بكل نقيصة ، لأنه تشاجر معه ذات مرة فى بعض حروبهِ فى جنوبى فرنسا ، ولكن هذه المطاعن لم تنل من سمعة الملك الفارس المجيد .

ولم يكن ألفونسو صديقاً ونصيراً فقط للشعراء المنشدين ، ولكنه كان مثل

(١) التروبادور Troubadours ، أو باللغة البروفنسية Trobador هم طائفة من شعراء المصور الوسطى ظهوروا فى ولاية بروفانس فى جنوبى فرنسا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتهروا بنظم الشعر الغنائى وشعر الفروسية ، ثم انتشروا فى باقى إمارات فرنسا الجنوبية مثل أ كوتين ولانجودوك وكذلك ظهوروا فى قطلونية وأراجون وشمال إيطاليا ، وملاوا هذه الأنحاء زهاء قرنين بقصائدهم وأناشيدهم ؛ وكان أشهرهم طائفة من الفرسان برعت فى الشعر والموسيقى ؛ وكانوا ينتقلون من بلاط إلى بلاط ومن قصر إلى قصر ؛ ويتبأون مقاماً ذا شأن فى المجتمع الرفيع فى ذلك العصر ؛ وشهرهم يمتاز بالركة والطرف وحب الملقى ، ومصادر إلهامه الحرب والدين والحب . ويرى بعض النقاد أن طائفة « التروبادور » قد تأثرت فى وحيها وفى طرائق نظمها بالشعر الغنائى الأندلسى وقريض الفروسية الأندلسية .

رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا شاعراً غنائياً (تروبادور) ، وقد ضاعت جميع قصائده الغنائية ولم يصلنا منها سوى قصيدة واحدة ، وهي تمتاز بالأخص بمجال أسلوبها وظرف معانيها .

وأورث ألفونسو ابنه الأكبر حب الشعر ، كما أورثه مملكته ؛ وكان قد اختاره في وصيته خلفاً له على عرش أراجون وأملاكه في جنوبي فرنسا ماعدا ولاية بروقانس وأراضى كافيدون وميلهو ، ودعوى الولاية على مونيبييه ؛ فقد أعطيت إلى ولده الثاني ألفونسو . أما ولده الثالث فرناندو فقد التحق بالرهبانية في إحدى الأديار .

وتوفي قبل ألفونسو بعامين (سنة ١١٩٤) خصيمه الألد وحليفه أحيانا في أواخر عهده الملك سانشو السادس الملقب بالقوى ، بعد أن حكم نافارا أربعة وأربعين عاماً ؛ ومع أنه كان يهدد بالحرب أحيانا من قشتالة وأراجون متحدثين ، وأحيانا من هذه المملكة أو تلك ، فقد استطاع أن يمتنع في مملكته الصغيرة المحاطة ببحيران أقوياء ، وأن يرد كل الهجمات التي وجهت إليه ، وأن يغزو أراضى العدو بنجاح كلما لاح له فرصة حسنة ؛ وأنه لن الشائق بلا ريب أن نعرف الوسائل والطرق التي كان الملك سانشو يلجأ إليها لحماية استقلاله ؛ بيد أننا لم نتلق عن نافارا في ذلك العصر تاريخاً مفصلاً ولو بمض التفصيل ، ولذا فإنه ليس لدينا ما نقوله عن حكمه سوى ما قدمنا من سيرته ؛ واتخذ ولده وخلفه سانشو السابع الملقب « بالحكيم » حكم أبيه قدوة له ؛ بيد أنه كان يمانى مثل ما عانى أبوه من الصعاب والخطوب .

الفصل السادس

تاريخ الموحدين في الأندلس منذ افتتاح غرناطة

حتى وفاة يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك

١ — تنظيم حكم الموحدين في عهد عبد المؤمن

سبق أن فصلنا فيما تقدم كيف أنهارت دولة المرابطين في المغرب والأندلس على يد عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وكيف استطاع عبد المؤمن أن يوطد عرشه بالمغرب بسحق الخارجين عليه ، وأن يفتح الأندلس كلها من يد خصومه المسلمين والنصارى . ولما كان عبد المؤمن ، قد استطاع بظفره على آل حماد في المغرب الأوسط^(١) ، وعلى الفرنج النورمانيين الذين كانوا قد افتتحوا شاطئ إفريقيا الشمالى ، واستولوا على تونس والمهدية ، أن يدفع حدود دولته من الشرق إلى ما وراء القيروان ، فقد غدا بذلك متاخما للفاطميين أصحاب مصر^(٢) ، وغدت دولة الموحدين بذلك أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ؛ وكانت تجمد عندئذ من الجنوب

(١) دولة آل حماد ، هي فرع من دولة آل زيرى بن مناد الصنهاجى ، وتنسب إلى مؤسسها الأمير حماد الصنهاجى ، وقد قامت بالزاب والمغرب الأوسط في أواخر المائة الرابعة ، وخرج صاحبها عن دعوة البيهدين أصحاب مصر ، واستمر الملك في أسرته زهاء قرن ونصف . وفي سنة ٥٤٧ هـ ، أخذ الموحدون القلعة وهي مركز دولتهم بالجزائر ، من يد صاحبها يحيى ابن عبد العزيز الصنهاجى آخر ملوك بني حماد ، وانتهت بذلك دولتهم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ وما بعدها والمراكشى ص ١١٣ و ١١٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٨) .

(٢) كان الفرنج النورمانيون أصحاب صقلية ، قد أغاروا على تونس ونفورها في أوائل القرن السادس الهجرى ، واستولوا على عدة نفور منها مثل صفاقس وتونس وسوسة ، ثم =

بالصحراء الكبرى ، ومن الغرب بالمحيط الاطلانطي ، ومن المشرق بصحراء لوبية التي تفصلها عن مصر ؛ وأما من الشمال فكان يحدها البحر الأبيض المتوسط ، وفيما وراء المضيقي — في شبه الجزيرة الاسبانية التي كانت يومئذ قبلة الفتح — كان الموحدون يملكون جميع الأراضي التي يطلق عليها اسم الأندلس ، وقواعدها الآلهة المنيمة ، إشبيلية ، قرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، والمريّة ، وهكذا كانت منطقة الوادي الكبير كلها في أيديهم ؛ وكانت تفصل بينهم من الشمال الشرق ، وبين مملكة قشتالة ، وأملاك ابن سعد (ابن مردينش) صاحب مرسية وبانسية وحليف النصرى ، سلسلة من الجبال الشاهقة تتخللها قلاع منيمة ، وممرات محرسها حاميات قوية ؛ وأما في الشمال الغربي فكان نهر وادي آنه الذي ملك الموحدون ضفته اليسرى كلها ، وملكوا من ضفته اليمنى عدة مناطق مثل ولاية الغرب وعدة مدن تمتد إلى مقربة من نهر التاجة (تاجو) ، أقل مناعة وأيسر اقتحاماً ، وكان الموحدون أكثر عرضة لهجوم أعدائهم من هذه الناحية .

وقد رأى عبد المؤمن قبل أن يتابع الفتح في الأندلس بكل قواه ، من الحزم والفتنة ، أن يضع للدولة الجديدة نظماً موطدة الدعام ؛ فأبنى معظم النظم الرابطة العسكرية ، وهي التي أدت في النهاية بقسوتها وما اقترن بها من صرامة الزعماء والقادة إلى سحق الشعب ونورته على الرابطين ، وأطلقت حرية الملوم والمعارف ، بعد أن كانت الأمرة الذاهية تشتد في مطاردتها ، وسارت جنباً إلى جنب مع الدين ، ومع الدولة الناشئة ونظمتها العسكرية الجديدة ، وأقيمت في مرا كش عاصمة المملكة — بما تحصل من أموال الرابطين — طائفة من المساجد والمدارس الفخمة ، غدت

== استولوا على المهديّة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ؛ من صاحبها الحسن بن طي الصنهاجي آخر ملوك دولة آل زيري الصنهاجين ؛ فلجأ الحسن إلى الموحدين واستغاث بهم ، واعتزم عبد المؤمن أن يستعيد هذه الثغور الإسلامية من يد النصرى ؛ فصار إلى تونس سنة ٥٥٤ هـ ، وهاجها من البر والبحر بأسطول ضخم ؛ وحاول الفرنج إغاثة إخوانهم فبمئذ الأساطيل إلى مياه تونس ووقعت بين المسلمين والنصرى مباركة بحرية هائلة انتهت بفوز المسلمين واستيلاء عبد المؤمن على المهديّة في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) بعد أن بقيت في يد النصرى اثني عشر عاماً (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ وروض القرطاس ص ١٢٩ والحلل الموشية ص ١١٦ و ١١٧)

مراكز للعلوم والآداب ؛ على أنه لم يسمح لهذه الحركة العلمية بأن تنمو وتوسع إلا بالقدر الذى يفيد الدولة والحكومة ، هذا فضلا عن وضعها تحت إشراف الدولة ، واقتنائها دائما بالخدمة العسكرية والتمارين فى فنون الحرب . ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدى الانقطاع إلى العلم والدرس ، إلى إضعاف الهمم ، وفقدان الحماسة الحربية لدى الموحدين .

وأنشأ عبد المؤمن فى مراكز مدرسة لتخريج رجال السياسة وموظفى الحكومة ، وقادة الجيش ؛ وكانت تضم زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء الأكابر فى وقت واحد ؛ وكانوا يسمون طلبة العلم أو الحفاظ ، نظرا لأنهم فضلا عن حفظ القرآن ، كانوا يدرسون رسائل المهدى ويحفظونها عن ظهر قلب ؛ كذلك كانوا يدرسون عدة كتب فى إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة ؛ وكان عبد المؤمن يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة فى قصره ، ويمتحنهم فيها درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه ، تشجيا لهم على الاجتهاد ، ولكي يحمل منهم رجالا أكفاء قادرين ، يستطيعون بقطعتهم وذكايتهم أن ينفعوا البلاد سواء فى السلم أو الحرب ؛ ثم يعمد فى أيام أخرى إلى معرفة مدى تقدمهم فى فنون الحرب ، فيختبرهم فى الطعن بالحرب والرمى بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، والركض ، وفن القتال ، ثم فى السباحة والمعارك البحرية ، وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره ، وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة من كل ضرب ، ليتدرب الشباب فيها على القتال فى البحر ، والتجديف وقيادة السفن ، والوثب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضيها الخدمة البحرية . وكان يخص أولئك الذين يمتازون بالمهارة والشجاعة بمباراة المديح والثناء ، ويقدم إليهم بنفسه نفيس الهدايا ، ليحفز بذلك همهم ، ويستزبد من غيرتهم واجتهادهم ، وكان تعليمهم جميعا على نفقة الدولة ، وبصرف إليهم سائر ما يحتاجون إليه ، ومن ذلك الخيل والسلاح وغيرها^(١).

(١) يقدم إلينا ابن الخطيب فى الحلال الموشية تفاصيل شائعة عن هذه الحركة الثقافية ==

وكان لعبد المؤمن بين هؤلاء الحفاظ ثلاثة عشر ولداً ، تفقوا على هذا النحو .
وتؤكد الرواية أنهم كانوا يبدون في هذه الامتحانات براعة في الفنون الحربية
والمعارف الرفيعة^(١) . وقد اختار عبد المؤمن من هؤلاء الحفاظ جميع القضاة
والفقهاء والولاة والعلماء ، وكل من أولاهم مناصب النفوذ والثقة ، واستطاع بذلك
أن ينشئ في نحو عشرين عاما نظاما جديداً للدولة ؛ إذ لم يبق من قداماء الموظفين
المعارضين من يعمل على متاوانه ، وبذلك اطمأن عبد المؤمن على توطيد سلطان
الموحدين . على أنه كان يعمل من جهة أخرى على جعل هذا السلطان وراثيا في
أسرته ؛ إذ كان نعمة على قيد الحياة من أصحاب المهدي المشرقة اثنان هما في مرتبة
عبد المؤمن ، وفي وسعهما بعد موته أن ينازعا أسرته الملك ، وعلى ذلك فقد دعا
عبد المؤمن جميع الولاة وأشباه القبائل من جميع أنحاء مملكته الشاسعة إلى
اجتماع عقد في سنة ٥٤٩هـ (١١٥١ م) ، وأعلن فيه محمداً أكبر أولاده وليا لعهده ،
وأضاف اسمه في خطبة يوم الجمعة إلى جانب اسمه ، وبذلك أشركه معه في الحكم في
معنى الممانى .

وفي هذا الاجتماع أيضاً أقر عبد المؤمن رغبة أشباه القبائل في أن يتولى
أولاده — وقد كانوا يسمون بالسادة — حكم الولايات ، وأن تكون ولايتهم
وراثية في عقبهم ، وعين لهم من الوزراء والحجاب والقواد كفاً الأشباه ، وأبرع
الحفاظ ، على أن يؤخذ رأيهم في جميع الشؤون الهامة ؛ واختار السيد أبا حفص لولاية
سبتة وطنجة ، وبعض نفور الأندلس ، والسيد أبا محمد عبد الله لولاية بجاية ،
والسيد أبا الحسن لولاية فاس ، والسيد أبا يعقوب يوسف لولاية الأندلس أو إشبيلية
وما إليها من المناطق^(٢) . ومع أن عبد المؤمن عين إلى جانب أولاده في كل ولاية

= والرياضية التي نظمها عبد المؤمن ؛ وهي تطابق في مجموعها ما ينقله المؤلف عنها (ص ١١٤) .

(١) راجع الحلال الموشية ص ١١٤ .

(٢) هذه الرواية تطابق ما أورده ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٣٦) ؛ ولكن يوجد خلاف

يسير بينها وبين بعض الروايات الأخرى (راجع الحلال الموشية ص ١١٥) وكتاب أخبار المهدي
ابن تومرت (ص ١١٦) .

من الأشياخ الأكفاء حاكما وائنين من خاصة الكتاب ؛ فقد لوحظ أنه لم يفعل مثل ذلك مع ولده السيد أبي يعقوب يوسف ؛ بل اكتفى بأن أقر إلى جانبه أبازيد ابن بكيت والى قرطبة ، واعتبر ذلك دلالة على قصد عبد المؤمن في أن يمنحه من الاستقلال قسطا أوسع مما منح لإخوته .

ومع أن عبد المؤمن كان يستأثر بالسلطة العليا ، ويحاول بالأخص أن يحول دون طغيان الولاة المستبدين وظلمهم وقسوتهم ، فإنه لم يوفق دائما إلى تحقيق هذه الغاية في أنحاء مملكته الشاسعة ، وكثيرا ما كان يقف على أمر المظالم بعد وقوعها . وإذ كانت الثورة كثيرة الوقوع في المغرب وقد حدث ذات مرة أثناء غيبة زعيم الموحدين أن سقطت العاصمة مراکش في أيدي الثوار ، فقد أمر عبد المؤمن باتباع سياسة الشدة في الولايات والمدن النائية على ألا يذهب الولاة مع ذلك في القسوة إلى حد إثارة بغضاء لا تحمد ، وبث صرامة تتحجر لها النفوس . ومن ثم فإنه لما استولى أبو زكريا بن يوسف على مدينة لبلة وقتل من أهلها اثني عشر ألفا دون فارق في السن أو الجنس ، سخط عليه عبد المؤمن لهذه القسوة ، ولم يكتف بتأنيبه وعزله بل أمر باعتقاله ، بالرغم من أنه كان من خيرة القواد وأقدرهم ، وكان أشد ما أثار حنقه عليه أنه عقب المذبحة ، استاق جميع الأسرى من نساء وبنات وأطفال مع متاعهم ومالهم إلى البيع المائي ، وعقد لهم سوقا في معسكر الجند وزمهم أن الأمر بمقدورها صدر عن الخليفة ذاته ^(١) . كذلك سخط عبد المؤمن على الوزير أبي جعفر بن عطية - وهو أندلسي الأصل وشاعر مبرز - وعزله ، وصادر أملاكه لما ارتكبه من المظالم في حق الشعب . وعمد خلفه الوزير عبد السلام الكومي إلى إهلاكه بالسم خشية انتقامه ، وذلك بأن أرسل إليه رقعة مسمومة

(١) كان أبو زكريا بن يوسف (أو يسمون) واليا لأشبيلية من قبل عبد المؤمن . وقد استولى على لبلة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) في مناظر مروعة من السفك ؛ إذ جمع أهلها في صيد واحد وقتل منهم ألفا عديدة ، يمت نساؤهم وأبنائهم وأسلامهم . والمؤلف لا يورد أيضا سوى ما ذكرته الرواية العربية ، راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ وروض القرطاس ص ١٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ .

ضمنها آياتاً من الشعر . ولكن القاتل لقي فيما بعد مثل هذا المصير ، حيناً سخط عليه سيده ونكبه^(١) .

وقد فقد زعماء المرابطين حب الشعب بما ارتكبوا من صنوف القسوة والظالم وأضرموا بذلك نار الثورة على حكومتهم ؛ وهذا ما أدركه عبد المؤمن حق الإدراك وحمله على أن يبذل كل ما في وسعه لكي تبدو الحكومة الجديدة في ألوان مقبولة ، ومن ذلك ما عمد إليه من رفع الحظر عن طائفة من الكتب التي حظر المرابطون قراءتها أو استنساخها وتشجيع نشر الكتب التي تتحدث عن الفروسية وأسيرها ، أو كتب الغامرات والقصص في جميع أنحاء المملكة سواء في الغرب أو الأندلس ؛ بل لقد سمح بقراءة هذه الكتب من فوق منابر المساجد ، وهو نقيض ما كانت تجري عليه حكومة المرابطين ، إذ كانت تعتبر أمثال هذه الكتب كتب كفر ضارة وتأمر بإحراقها أينما وجدت . أما المؤلفات التي تظعن في حكومة الموحدين ، وفي المبادئ التي تقوم عليها ، فكان عبد المؤمن يأمر العلماء والكتاب الذين امتازوا بقوة الحجة بكتابة الردود عليها . مثال ذلك ما أمر بكتابته ضد الكاتب القرطبي أبي الحسن عبد الملك بن إياس .

وكان أشد ما يعنى به عبد المؤمن — وهو من أعظم قواد المصور الوسطى — تنظيم شؤون الحرب والجهاد . وقد بث إليها بمجهوده نهضة إحياء شاملة . وإليك وصفا شائفا تركه لنا مؤرخ عربي عن نظام سير جيش الموحدين وتقسيمه ، لمناسبة

(١) استورد عبد المؤمن الوزير أبا جعفر أحمد بن عطية ، وهو من أسرة أندلسية هاجرت إلى مراکش ؛ وكان أبوه من قبل وزيراً لأمير المسلمين علي بن يوسف اللاتوني ، قتل بأمر عبد المؤمن في حصار فاس ؛ أما ولده أبو جعفر فكان وزيراً لإسحاق بن علي اللاتوني ؛ ولا سقطت مراکش في أيدي الموحدين عفا عنه عبد المؤمن واستوزره فيما بعد ، ولم يلبث أن سما شأنه ؛ ثم بعثه عبد المؤمن مع ولده السيد أبي يعقوب على إشبيلية ليعاونه في حكمها ، وفي أثناء غيبته دبر خصومه وفي مقدمتهم خلفه الوزير عبد السلام التكمومي هلاكه ؛ فلما عاد إلى مراکش قبض عليه ، وأمر عبد المؤمن بقتله فقتل في سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٥ م) . أما رواية مصرعه باسم فلم نجد ما يؤيدها (راجع روض القرطاس ص ١٢٨ والمراكشي ص ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٧ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ و ١٥٣) .

حدثه عن الحرب التي شهرها عبد المؤمن على النورمان الصقليين ، حينما استولى على تونس والمهدية .

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس ؛ وكانت علامة السير ثلاث قرعات من طبل ضخمة دوره خمسة عشر ذراعاً مدهون بلون الموحدين الأخضر ، ومحلى بالذهب ، وقد صنع من خشب رنان ، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب في مكان مرتفع ، في يوم ساكن لا دمج فيه ؛ وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص ، وهو يحمل مطوياً أثناء السير ؛ ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع ، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ؛ ومحمل الحيام والمتاد والمؤن على ظهور الجبال والدواب ، هذا غير ما يقبض الجيش من قطمان عديدة من الثيران والأغنام ، تسير تحت إشراف الرعاة ، وتخصص لغذاء الجند ؛ وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف — فضلاً عن الفرسان — من سبعين ألفاً من المشاة ؛ وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير ، مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء ، أو ضيق في المكان . وإذا كان معظم الجند مثقل السلاح ، فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر ، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير في اليوم التالي بقوى مجدة ؛ وترتب على هذا التمهّل في سير الجيش ، أن اقتضى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهي مسافة كانت تقطعها فرق الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط . وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه ، وإلى قيادة الجند التابعين له ؛ وكان يتقدمه في السير مائة شيخ وقائد ، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثياباً نخمة . وكان يحمل أمامه مسحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركا وتيمناً ، وقد وُضع في تابوت بديع الصنع ، محلى بصفايح الذهب ، مرصع بأروع اللآلئ ، والأخجار

الكرينة ، حتى أنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين ، وبنى عباد ملوك إشبيلية ، وبنى هود ملوك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيه جميعاً ، وتكدست ؛ وهذا الثابت يحمل في هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربع أربعة أعلام ؛ ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وإلى جانبه ولده و كاتب سره السيد أبو حفص وإلى تلسان ، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف ؛ ويتبعه على قيد مسافة قصيرة ، الأمراء ، وأبناءؤه الآخرون الذين يرافقون الجيش . ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعى الطبول على خيول عالية ، والناخفون في الأبواق ، والقرون ، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية ؛ ثم الولاة والقضاة ، والوزراء والكتاب ؛ وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم . فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المسكر ، أُفرد لكل قسم مكانه المعين ، ولا يسمح لأحد أن يترك المسكر دون إذن القائد المختص ؛ ثم توزع الأتوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة ، على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يفر على أحد منهم ^(١) .

ويبدو من تأمل هذه النظم الصارمة ، ومن المثابة على التمارين الحربية ، أن عبد المؤمن كان في جميع مشاريعه العسكرية يعني بعناية خاصة باختيار مولى للقتال ، وتولي القيادة بنفسه ، وأنه لم يكن ثمة في إفريقية أو الأندلس أمير يضارعه في فنون الحرب . وقد استطاع بذلك أن ينشئ نظاماً جديدة في منتهى البساطة ، ولكنها حجة الفوائد ، وأن يوجه فن الحرب ، بما وضعه من ترتيبات صارمة للجيش ، وجهة جديدة ؛ وكان من رأيه دائماً أن قيمة الجيش ليست في عدده ، وإنما في قبل كل شيء في مقدرة وقائده ، كما أنه كان ، خلافاً لأسلافه المرابطين ، ومعظم ملوك المغرب ، يرى أن قوة الجيش الرئيسية ، يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب والتسلح ، وأن قوى المشاة هي العامل الحاسم في مصير

(١) في الحلال الموشية تفصيل حسن لنظام جيش عبد المؤمن ، وخطط سيره ، وذلك بمناسبة كلامه عن توجه عبد المؤمن إلى المهدي لإقناعها من النصارى . ومن الواضح أن ما أورده المؤلف هنا (تقلاً عن كوندى) ، قد نقل في الأصل عن الحلال الموشية مع تغيير يسير (راجع ص ١١٥ — ١١٦) .

المواقع وفي اقتحام المدن . أجل كان لديه جيش أكبر من الفرسان ، ولكنه لم يكن يملق عليه نفس الأهمية التي يملقها على جيش المشاة ؛ ذلك لأن الفرسان المغاربة ، كانوا أثناء المواقع أقل خضوعاً للأوامر والنظم .

ولما عمل عبد المؤمن على تخطيط حدود مملكته ، ومسح جميع أراضيها ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها و ثروتها وغلاتها^(١) ، كان يرى بذلك من جهة إلى تقرير الضرائب الواجب نأديتها على كل ولاية ، ومن جهة أخرى إلى أن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه ، فكان على الثغور في المغرب والأندلس مثلاً أن تقدم البحارة والسفن ؛ وعلى المناطق الصحراوية والغنية بالخيل ، أن تقدم الفرسان ، والخيول ، ودواب الحمل ، والجمال ؛ وعلى الولايات الأخرى ، أن تقدم الجند المشاة والسلاح من كل ضرب ، كل بنسبة سكانها ، ولكن المناطق أو الزعماء الذين حقت عليهم العقوبة بسبب الثورة ، كان يفرض عليهم أن يقدموا من الجند ضعف الصفوف العادية أو أكثر ؛ مثلاً فرض على قبيلة « كومية » وهي من بطون زناته ، كمقاب لها أن تؤدي عشرين ألف مقاتل ، وهو ما لا يتناسب مع سكانها ؛ ولكن أشياخها سموا إلى استرضاء الخليفة بمضاعفة هذا العدد ، فساروا إلى العاصمة في أربعين ألف فارس حسي الثياب والمعدة ، حتى أن عبد المؤمن توجس من مقدمهم في البداية ، وخشى أن يكون المدوان مقصدهم ، في حين أنهم قدموا تعاوناً للخدمة ، واستخدم عبد المؤمن عدداً كبيراً منهم في حرسه الخاص ، إظهاراً لثقته بهم ، وأذن لهم عند وصولهم إلى مراكش ، بمرض فنون الفروسية ، وألعاب الخيل ، فكانت الخيل تحبب الأمير برأسها أو تركع أمامه بمنتهى الرشاقة^(٢) .

أما السلاح ، فكان عبد المؤمن يحتفظ منه دائماً بمقادير وازرة ، تحتفظ

(١) راجع روض الفرجات ص ١٢٩ .

(٢) يلاحظ أن قبيلة « كومية » هذه هي القبيلة التي ينتمى إليها الخليفة عبد المؤمن ؛ راجع في ذلك وفي مقدم فرسان كومية على مراكش (روض الفرجات ص ١٣١ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، والمرآة الكسرى ص ١٠٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

في المخازن المدة لذلك ؛ وقد أنشأ مصانع للسلاح في كثير من قواعد مملكته ، فصنع فيها القسي والنشاب ، والخوذات والدروع والسهام ، وغيرها من الأسلحة اللازمة للهجوم والدفاع . وفي بعض الروايات أنه كان يصنع في مملكة الموحدين في عهد عبد المؤمن كل يوم عشرة قناطير من السهام ، وهذه فيما يبدو مبالغة من بعض المؤرخين المسلمين ، أو هي خطأ في التقدير^(١) ؛ وقد كان عبد المؤمن فيما يظهر أيضاً ، على علم راسخ بفنون الحصار ، وكانت يستولى على أشد المدن حصانة بما يبني وفق رأيه من آلات الرمي وخرق الأسوار (المنجنقات) . أما هل عرف عبد المؤمن استعمال البارود — وقد كان من قبل أشد ذيوماً في المنرب والأندلس منه في أى بلد أوربي — فأمرُ يشك في صحته ؛ بيد أن خلفاءه من الموحدين هم الذين نقلوا استعمال البارود في القرن الثالث عشر ، من إفريقية إلى اسبانيا .

وقد قسم عبد المؤمن مملكته بعد أن مسحها طولاً وعرضاً على يد أمراء المغرب المسلمين ، إلى ولايات ومناطق ومقاطعات ومدن وقرى ، وقرر عليها الضرائب وفقاً لنسبة السكان في البسائط المأهولة وحالة الأرض وخواصها ومقدار غلتها ، وكذلك وفقاً لأحوالها الزراعية وحالة مراعيها وماشيتها .

وفي الوقت الذي كان عبد المؤمن يشغل فيه في الغرب بإخضاع الثورات والفتن ، وافتتاح أطراف مملكته الشرقية ، وانتزاع المهديّة وتونس من يد الفرنج النورمانيين ، كان يمهّد بمتابعة الحرب في الأندلس إلى ولده السيد أبي يعقوب يوسف — وإلى الأندلس — وإلى نفر من القادة البارعين الذين يعملون تحت إمرته . فلما انتهى عبد المؤمن من التغلب على النورمانيين في البر والبحر ، وأجلاهم عن جميع الأراضي التي استولوا عليها في إفريقية سنة ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، أخذ يتأهب لمتابعة الفزو بنفسه في شبه الجزيرة الأسبانية .

فسار من أجل ذلك في جيشه صوب طنجة ليبحر منها إلى الأندلس ، ولما وصل إلى وهران نظم استعراضاً عسكرياً للقوات التي اختارها لمحاربة النصاري

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

الأسبان ؛ وهنا كاد عبد المؤمن يذهب ضحية مؤامرة دبرها جيشه . ذلك أن طائفة من جند الموحدين سئموا طول القتال — ولم يكن قد مضى سوى القليل على عودهم من مقاتلة الفرنج في تونس والمهدية — وناقت أنفسهم إلى رؤية الوطن بعد طول البعاد ، ورأوا أملهم في رؤية أهلهم وذويهم ينهار بسبب الغزوة الجديدة ، واعتقدوا أن خير وسيلة لتحقيق أمنيتهم هو موت عاهلهم الذي لا يني عن السير من فتح إلى فتح ؛ فاعتزموا قتله في الليلة التالية وهو نائم في خيمته ، فوقف على هذه المؤامرة شيخ من أشياخ القبائل ، ومع أنه وقف عليها في وقت متأخر ؛ فإنه استطاع أن يحذر عبد المؤمن في الوقت المناسب ؛ بيد أنه لم يكن ثمة متسع من الوقت لمعاينة الجناة على يد الجند المخلصين ، ولم يجد الشيخ الأمين وسيلة لتلافى الشر سوى أن يعوِّب من أجل سيده ، ونزل عبد المؤمن على نصحه ، ففادر خيمته ، ونام الشيخ مكانه في سريره ، وقتله المتآكرون طمعا بالخناجر ظنا منهم أنه عبد المؤمن ، ولكن عبد المؤمن كان قد التجأ إلى خيمة الشيخ الذي افتداه بنفسه ، ونجا بذلك من الهلاك . وفي الحال اتخذت الإجراءات لمعاينة المتآمرين ؛ بيد أنه لما كان مذبزو المؤامرة من أقرب حاشية الخليفة ، وكان من المتعذر إثبات الجرم على الزعماء المارقين ، وقد أريد من جهة أخرى أن يُجنب الجهر بالعقاب ، فقد أمر عبد المؤمن بإهلاك زعماء المؤامرة بوضع السم لهم في الرسائل أو الشراب . أما الشيخ الأمين الذي لم يعرف حتى اسمه ، فقد رأى أن يخلد تضحيته بإبقاء مزار نغم لرفاته ، وإنشاء مدينة حديثة سميت بالبطحاء (١).

٢ — باقى غزوات الموحدين فى الأندلس بقيادة عبد المؤمن

ولم تكن قد وقعت فى ذلك الحين بالأندلس أية فتوح هامة منذ افتتاح غرناطة فى سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) ، وكل ما حدث أن أغار الموحدون مراراً على أراضي النمصارى ، وأراضى مملكة مرسية التى كان يحكمها ابن سعد (ابن مردنيش) ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٠ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٧ .

ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأية غزوة كبيرة ؛ إذ لم يتلقوا من عبد المؤمن سوى إمدادات قليلة نظراً لانشغاله بالحرب في شرق مملكته ؛ وكان ذلك أيضاً من الأسباب التي مكنت سانشو الثالث ملك قشتالة من أن يحرز النصر على الموحدين ، ومكنت الفونسو هنريكيز ملك البرتغال من أن ينتزع منهم بعض القنائم ؛ إذ استولى في الغرب عنوة على حصن القصر ، أو قصر أبي دنيس ، وقتل جميع حاميته وذلك في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وفي العام التالي (سنة ١١٦١ م) عبر عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس ونزل بجبل طارق ، وأنشأ به حصناً عظيماً في منتهى المناعة ، وسماه بجبل الفتح ، ولما تمت التحصينات وفق رغبته أقام هنالك شهرين ، ووفد عليه في تلك الأثناء ولاية الأندلس وقضاها ، وأطلموه على أحوال الناس ، ووفدت عليه أيضاً جمهرة كبيرة من العلماء والشعراء ، وأشاروا بتحجته ومديحه في خطبهم وقصائدهم^(١) .

وفي أثناء مقام عبد المؤمن بالأندلس ، قام الموحدون بغزوة في أراضي النصارى ، وأمدهم عبد المؤمن عندئذ بقوة من الفرسان تبلغ ثمانية عشر ألفاً ؛ وسار الموحدون على ضفاف وادي آنه في ولاية الغرب (غربي الأندلس) ، وكان النصارى يكثرّون مهاجمة المسلمين من هذه الناحية . وتقول الرواية العربية إن المسلمين افتتحوا في تلك الغزوة حصناً من أحواز بطليوس ، وقتلوا حاميته ؛ ثم اشتبكوا مع الفونسو ملك طليطلة في موقعة دموية ، فقد النصارى فيها ستة آلاف قتيل ، غير الأسرى ؛ وافتتح المسلمون على أثرها بطليوس ، وباجه ، وبابره ، وحصن القصر ؛ وعُين محمد بن علي بن الحاج والياً لهذه الولاية الجديدة ، وعاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى عاصمة مراكش^(٢) .

(١) راجع الحلل الموشية ص ١١٨ والراكني ص ١١٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) هذا ما ترددته الرواية الإسلامية في الواقع ، وتزيد على ذلك أن الحصن الذي افتتحه الموحدون في تلك الغزوة بجوار بطليوس هو حصن « الركنش » وأن الذي قاد الموحدين فيها هو الشيخ أبو حفص المنتاني . وتضع تاريخ هذه الغزوة في سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ؛ وفي العام التالي استولى الموحدون على بطليوس وباجه وبابره وحصن القصر (راجع روض القرطاس ص ١٣٠ و١٣١ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

على أن الروايات النصرانية لا تذكر شيئاً عن غزوة الموحدين هذه . ومن الواضح أن المؤرخين المسلمين يخلطون هنا بين فرديناند ملك ليون والفونسو الثالث ملك قشتالة ، الذي كان وقتئذٍ طفلاً لا شأن له بالحكم ، ولكن الروايات تقص من جهة أخرى أن جيشاً ضخمًا من الموحدين سار في نفس هذه السنة لمحاربة ابن سعد (ابن مردنيش) أمير بلنسية ومرسية ، وأنه لم ينقذ ابن سعد من الهزيمة سوى المعاونة القوية التي تلقاها من حليفه سانشو ملك نافارا ، بقيادة الفارس الشجاع بيدرو رويز دي أزاجرا ؛ وقد أعطى بيدرو رويز عندئذٍ مدينة شنتمرية الشرق^(١) ليستقل بحكمها ، مكافأة له على معاوته .

وفي العام التالي ، أعني في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ، استأنف ابن سعد الحرب ، وسار إلى غرناطة ليحاول استردادها ، وقد كانت في قبضته من قبل ؛ وهنا تتفق الروايات العربية والنصرانية ، ولكن النصرانية أكثر إفاضة وتفصيلاً ؛ واجتمع جميع الأندلسيين الذين يمارضون حكم الموحدين ، ولا سيما جند وادي آش والنكب والجزيرة والبلشرات في ولاية جيان لنصرة ابن سعد أشهر زعماء الأندلس وأشدّهم وطنية ، وهرعت إلى رايته بقايا الرابطين لتساعده في آخر محاولة تبذل لإخراج الموحدين من شبه الجزيرة ؛ واستُقدمت أمداد نصرانية سواء من قشتالة أو أراجون لقاء مبالغ طائلة من المال ، وهكذا اجتمعت لأمير بلنسية قوات عظيمة .

ولما علم الموحدون بما اتخذ ابن سعد من عظيم الأبهة ، ساروا إلى لقاء أعدائهم في جيش ضخم معظمه من الفرسان ، والتقى الجيشان على مقربة من غرناطة ، واشتبكا في معركة هائلة ، وقاتل ابن سعد وجنوده بمتى الشجاعة والجلد ؛ ولكن الموحدين استطاعوا أن يحرزوا نصراً باهراً ، وأن يؤيدوا بذلك شهرتهم كفاتحين لا يغلبون ؛ بيد أنهم لم ينتصروا دون خسارة فادحة . ثم عاد ابن سعد وحلفاؤه بعد أن حشدوا قوات جديدة إلى القتال ، ونشبت بين الفريقين موقعة أخرى في

(١) هي المروفة بالإنجليزية بمدينة Abarracin حسبما تقدم .

فخص قرطبة (سنة ٥٥٧ هـ - ١١٦٣ م) ، فهزم الحلفاء للمرة الثانية ، واضطروا إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا أفدح الخسائر^(١) .

وفي تلك الأثناء كان عبد المؤمن يقوم بأهبات عسكرية ضخمة ، ويدعو الجند إلى الجهاد في اسبانيا من سائر أنحاء مملكته الشاسعة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى اجتمع لديه في سلا من مختلف القبائل المغربية وخصوصاً من زناته ، زهاء ثلاثمائة ألف فارس ، منهم ثمانون ألفاً من ذوى البراعة ، ومائة ألف راجل ، وحشد عبد المؤمن في الوقت نفسه أسطولا ضخماً من أربعمائة سفينة كبيرة أعدت في ثغور المغرب لنقل الجيش ، ولكي تساون بالأخص في الأعمال الحربية ؛ ولاح عندئذ أن اسبانيا النصرانية التي شطرت يومئذ إلى ممالك خمس تمزقها الحروب الداخلية ، قد قضى عليها بالهلاك ، وأنها ستندو فريسة هيئة للقابع الإفريقي لولا أن توفي عبد المؤمن عندئذ فجأة بمرض شديد أودى بحياته في الوقت الذي كانت تنقل فيه الجند إلى الأندلس ، وبذا أنقذت اسبانيا النصرانية من نير المسلمين مرة أخرى .

وتوفي عبد المؤمن في الثالثة والستين من عمره ، بعد أن حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وذلك في العاشر من جمادى الثانية سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣) ؛ وكان قبل وفاته بقليل قد عزل ولده الأكبر السيد محمد عن ولاية عهده ؛ إذ نُسب إليه أنه دبر مؤامرة لقتله لكي يلى الملك بسرعة ، وأمر بحذف اسمه من الخطبة ، وأذاع قرار عزله في جميع الأنحاء^(٢) ؛ واختار عبد المؤمن لخلافته بدلاً من الأمير

(١) نسي الرواية البرية الموقعة الأولى التي تثبت في سنة ٥٥٧ هـ بين الموحدين وابن سعد وحلفائه موقعة « مرج الرقاد » ؛ ونسي الموقعة الثانية التي تثبت بين الفريقين موقعة « السيكة » ، وقد تثبت أيضاً في خص غرناطة لخص قرطبة حسبما يقول المؤلف ؛ وكان وقوعها في يوم الجمعة ٢٨ رجب سنة ٥٥٧ هـ ؛ وكان حليف ابن سعد في الموقعتين صهره إبراهيم بن هشك ، المنقلب على غرناطة قيل استرداها على يد الموحدين (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ ، وابن الأبار في الحلة السراء ص ٢٣٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦) .

(٢) تقدم الرواية الإسلامية لعزل عبد المؤمن لولده السيد محمد من ولاية العهد أسبانيا =

الغزول ، ولده السيد أبا يعقوب يوسف ؛ وكان قائماً بشؤون الأندلس حيث أبدى براعة فائقة في الحرب والإدارة . وأُخفى موت عبد المؤمن حتى قدم يوسف من إشبيلية إلى المغرب .

وكان عبد المؤمن وسيم الطلمة عظيم الهيبة ؛ وكان أبيض اللون مشرباً بحمرة شديد بريق العينين ، كث الشعر ، أفتى الأنف ، نحيل الدفن مستديراً ؛ عظيم القامة دون مبالغة في الطول ، مليء الجسم مع خفة ورشاقة . ولم تكن مواهبه العقلية أقل روعة ؛ فقد كان يهتدى بشاقب فهمه إلى أفضل الوسائل لتحقيق أغراضه بأسرع وقت ؛ وكان يهتم بفصاحته تأييد الذين يبدون نحوه فتوراً أو يخاصمونه ؛ وكان يستطيع بما أوتي من واسع المعرفة في علوم كثيرة ، أن يختار من بين علماء مملكته ورجالها أوكفاهم وأرفعهم شأنًا ، وكان لهم نصيراً وصديقاً . وهكذا ازدهرت في ظله العلوم والفنون في جميع أنحاء مملكته ، ولاسيما في الأندلس بالرغم مما كانت تخوضه من حروب متواصلة ؛ وهذا ما يمكن تعليله بأن مسلمي الأندلس الذين شغفوا بالعلوم قد سارعوا إلى نبذ المراتبين أولى البداوة والخشونة ، وانحازوا إلى جانب الموحدين أهل العلوم والمدنية . أما الصفات التي يجب أن تتوافر في الفاتح مثل الشجاعة والعزم ، وبعد النظر ، وحضور البديهة ، فقد كان عبد المؤمن يفوز منها بأوفر قسط . وقد كان يسمو على معظم جنوده في تحمل المشاق والشدائد ؛ وكانت شعوب المغرب المتعشفة تعجب بتعشفه في مأكله ومشربه ؛ وكانت الحرب فيما يبدو شهوة الوحيدة ، فقد افتتح بالسيف ولاية بعد أخرى ؛ ولما توفى ترك وراءه مملكة تمتد من المحيط الأطلنطي إلى قرب حدود مصر ، ويقتضي اختراقها بالطول مسيرة أربعة أشهر . أما عرضها فيما بين الصحراء الكبرى ، وجبال سيرا موريتا ، (جبل الشارات) الإسبانية ؛ فكان يقتضي اختراقه مسيرة خمسين

== أخرى خلاصتها ما تبينه عبد المؤمن في ولده من أمور لا يصلح معها للخلافة من إدمان الخمر ، واختلال الرأي ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ؛ وقبل أيضاً لأنه كان مريضاً بالجذام (الراكسي) من ١٣١ ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ١٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

يوما ؟ وقد افتتحت جميع هذه الأراضى فى أقل من عشرين عاما منذ استولى
الموحدون على مراکش^(١).

٣ — حكم أبو يعقوب يوسف وحروبه

وقد بدأ أبو يعقوب يوسف حكمه فى ظروف صعبة ؛ ولولا غيرة القاضى
أبى الحجاج يوسف بن عمر وفطنته لتمدّد عليه أن يفوز بحكم مملكة الموحدين كلها .
ذلك لأن ولى العهد السابق السيد محمد ، وأخا آخر ليوسف هو السيد عبد الله والى
قرطبة ، اعتزما ألاّ يخضعا لولى العهد الجديد الذى اختاره عبد المؤمن قبل موته ،
ولاح فى الأفق شبح حرب أهلية مروعة تنذر بتعزيز الملكة ولما تتوطد دعائمها
بعد ؛ ولكن القاضى أبى الحجاج عمل على إخفاء موت عبد المؤمن حتى قدم
أبو يعقوب يوسف من الأندلس إلى مراکش ، وبويع فى الحال بالإمارة . بيد أنه
مضى زهاء عامين قبل أن يوفق إلى إتمام جميع حركات الانتقال على حكومته ؛
ثم دعا بعد ذلك جميع الأشياخ والولاة إلى مراکش ، وبويع بالخلافة وتسمى
بأمير المؤمنين ؛ ولم يخرج على ذلك إلاّ جماع أخوان السيد محمد والسيد عبد الله ،
اللذان خلبهما رفقته وتساعده ، فاعترفا أيضا بخلافته ؛ ومالت الشعوب المغربية إلى
تأييده لما عمد إليه فى بداية حكمه من تخفيف أعباء الحرب ، وتسريح الجيوش
الضخمة التى حشدت فى سلا لغزو إسبانيا ؛ وجذب إليه القادة والجند — ولاسيما
جند الحرس — والولاة بالأعطية الوافرة ؛ وأحبه أهل مراکش لما رفعه عنهم من
الأكوس ، ونظمه لهم من الحفلات الباذخة .

ومع أن يوسف تولى الحكم شابا لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ؛ فقد
أبدى كثيرا من الفطنة والبراعة ، وكان ذهنه يتجه إلى معالجة الأمور الحاضرة

(١) راجع فى سيرة عبد المؤمن وخلافة فى كتاب أخبار المهدي ص ٢١ — ٢٣
و ٥٥ — ٥٧ و ٨٤ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ وما بعدها ، وروض القرطاس
ص ١١٩ — ١٣٤ ، والمراكشى ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون ج ١ ص ٣٩٠ —
٣٩٢ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها .

والبعيدة مآ؟ وكان يقبض بنفسه على أعنة الحكم ، ولا يسمح لوزرائه بالبت في أمر من الأمور ، أو عمل من الأعمال لم يقف عليه من قبل ؛ وترتب على ذلك أن الأمراء والوزراء الذين كانوا يتمتعون أيام عبد المؤمن بكثير من النفوذ في البلاط ، فقدوا كل نفوذهم في عهد يوسف . وحتى أخوه السيد أبو حفص الذي كان أمين سر عبد المؤمن وموضع ثقته رأى مع الألم انهيار نفوذه في البلاط ، وربما كان هذا هو السبب في أنه فيما بعد رفع لواء الثورة ضد أمير المؤمنين .

وكان يختار بحسن فهمه وبمد نظره أكفأ الرجال الذين يوليهم مناصب الثقة ، وكان من سياسته فيما يظهر نقل الأشخاص في مختلف المناصب لكي يبقوا أكثر خضوعاً لإشراف الحكومة ، وكان مما يسهل تنفيذ هذه السياسة أن الذين يتولون المناصب كان يشترط فيهم توافر نوع من الثقافة العامة والإلمام بمعظم العلوم الإسلامية المعروفة ، وهذا مما يوضح لنا كيف أمكن في ظل هذا الأمير أن يتولى بعض الرجال مناصب شديدة التباين ؛ فقد حدث مثلاً أن تولى العلامة الأشهر أبو الوليد بن رشد منصب الفقيه العالم ، ثم القضاء ، ثم تولى الإشراف على الخزينة ، وتولى أيضاً منصب طبيب يوسف الخاص (١) .

ومع أنه عمل على تخفيف أعباء الحرب عن الشعوب المغربية ، وسرح الجيوش الضخمة التي حشدت لغزو إسبانيا ، فإنه لم يترك العناية بأمر الحرب في الأندلس . وكان الموحدون منذ وفاة عبد المؤمن قد تكبدوا في الأندلس خسائر فادحة

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ ، وانتقل منذ فتوته بأبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وقد كان معزواً على شؤون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء . وبرع ابن رشد في الفقه والطب والفلسفة ؛ وتولى قضاء إشبيلية في سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولي قضاء قرطبة واستمر بها خمسة وعشرين عاماً يتقلب في ظل حكومة الموحدين ، سواء في الأندلس أو المغرب في بعض المناصب القضائية والإدارية الكبرى ؛ وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص حيناً لأبي يعقوب يوسف ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ؛ واتهمه بعض خصومه بالزندقة ، فنفى إلى الأندلس بجوار قرطبة ؛ وفرضت عليه رقابة شديدة ؛ ثم استرد مكانته في أواخر حياته ؛ واستدعى ثانية إلى مراکش ؛ حيث عفا عنه المنصور ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٥ م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شرحه لفلسفة أرسطو ؛ وله عدة رسائل كلامية وفلسفية .

في بعض المواطن ، وذلك بالرغم من تفرق الملوك النصاري ، وما كانت تمنانيه مملكتنا قشتالة وليون من انقسام الأشراف ؛ وكان الفونسو هنريكيز ملك البرتغال يدفع حدود مملكته نحو الجنوب باستمرار ، وينزع من أيدي الموحدين حصون الحدود تباعا ؛ وكذلك أيدي فرديناند ملك ليون نشاطا في غزو منطقة وادي يانه (أو وادي آنه) ، واستولى على القنطرة والبيكرك والفاص وبطليوس حسبما تقدم . أما قشتالة وليون فقد كانتا تقتصران يومئذ في محاربة المسلمين على معاونة أمير بلنسية محمد ابن سعد بن مردنيش ، وترسلان له الامداد مقابل المال والحصول على تسط من القنائم .

وما كاد يمضي عامان على وفاة عبد المؤمن ، حتى حشد أمير بلنسية زعماء الأندلس الماعدين للموحدين تحت لوائه مرة أخرى (سنة ١١٦٥ م) . واجتمع إليه فوق ذلك ثلاثة عشر ألفا من القشتاليين والأرجونيين ؛ ثم سار في جميع قواته إلى لقاء جيش الموحدين بقيادة السيد أبي سعيد عبد الرحمن ، أخى أبي يعقوب يوسف ، والتقى الجيشان على مقربة من مرسية ، ونشبت بينهما موقعة شديدة ، واستطاع الموحدون بجلدهم أن يحرزوا فيها نصراً كاملاً أسوة بما حدث من قبل ؛ وأخذ الحلفاء يلقون تبعة هذا الفشل كل على الآخر ، واشتد بينهم الخلاف ، وانتهى الأمر بأن انسحب بعض الزعماء الأندلسيين سرا ثم علانية ، وانضموا إلى جانب الموحدين ؛ وكان من بين هؤلاء الزعيم الباسل أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقتي ، والي جيان ومرسية السابق ، وكان عالماً ، ومقاتلاً شجاعاً ، وشاعراً مبرزاً ، فأنحاز إلى جانب الموحدين ، ثم عبر البحر فيما بعد إلى مراکش ، واشترك هنالك في حفلة عرض لصيد الأسود ، يطارد الليث فيها بأسنة الحراب ، فأبدي فيها براعة خاصة ، ووصفها في بعض قصائده الرقيقة ^(١) .

(١) راجع ترجمة أحمد بن عبد الرحمن الوقتي في الحلة السيرة ص ٢٣٠ وما بعدها . وقد أورد ابن الأبار وصفا لحفلة صيد الأسود ، كما أورد طرفاً من القصيدة التي أنشأها الوقتي في وصف هذا الحفل (ص ٢٣٣) .

ولما أخذ سلطان الموحدين يشتد تباعاً في جنوبي اسبانيا ، وسقطت في يدهم بطليوس ، وعدة أماكن أخرى على الحدود ، وأخذ سلطان ابن سعد أمير بلنسية والممالك النصرانية يمرض شيئاً فشيئاً إلى الانهيار ، من جراء انشقاق الزعماء المسلمين والنصارى ، اعترم ملك قشتالة ألفونسو الثالث وملك أراجون ألفونسو الثاني أن يعملوا على تقوية صلاتهما بابن سعد ؛ وسار ابن سعد نفسه إلى طليغلة ليوثق أواصر تحالفه بالملكين (سنة ١١٦٧ م) ، واستطاع من جهة أخرى أن يسترضى بعض الزعماء المنشقين عايمه ، وأن يحشد لهم ثانية إلى جانبه ؛ وكان من بين هؤلاء الوقشي الشجاع الذي تقدم ذكره ، وذلك بعد أن لبث حيناً في مراکش وتولى هنالك أرفع المناصب ؛ وكان جند من الحلفاء النصارى ، معظمهم من القشتاليين ، يحتلون بلنسية ذاتها ، وهو ما لم يرق لكثير من المسلمين المحافظين ، وقد غادر بلنسية على أثر ذلك كثير من الزعماء الأقوياء ، وانحازوا إلى جانب الموحدين .

وفي تلك الأثناء كان السيد أبو حفص أخو الخليفة قد عبر البحر إلى الأندلس في عشرين ألفاً من فرسان الموحدين ، وقام بغزوات على حدود البرتغال واسترامادوره ، ولكنه لم يحرز نجاحاً يذكر . ذلك أن ملك البرتغال وفرسان بإبرة التابعين له كانوا يحمرون الحدود حماية فمالة ، وكان ملك ليون قد استدعى آل كاسترو بعد فرارهم إلى الموحدين ، وحرّم الموحدين بذلك من عضد قوى ؛ ولكن تفاقمت الحال في بلنسية وازداد سخط الزعماء على الأمير محمد بن سعد ، وجأهوا بالثورة ضده ، واستدعوا الموحدين لمعاونتهم ونصرتهم ؛ وكان سلطان الموحدين ، يترجم بعد أن سحق جميع الثورات في المغرب ، أن يفتخر فرصة هذه الظروف السانحة في الأندلس ، وأن يعمل على إخضاع اسبانيا المسلمة بأسرها لسلطانته .

ففي شهر صفر سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) ، عبر أبو يعقوب يوسف البحر إلى اسبانيا ، وسار توالى أشبيلية عاصمة الأندلس ؛ واستقبل هنالك الولاة والقضاة والفقهاء والعلماء من جميع المدن والأنحاء الخاضعة له ، ووقف منهم على أحوال

البلاد . وكان من الواضح أن استمرار الشقاق بين المسلمين في بالنسية ومرسية ، وضعف الإمدادات التي يرسلها ملوك قشتالة وناقارا وأراجون إلى حليفهم ، ثم الخصومة بين ابن سعد وحليفه القديم ألفونسو ملك أراجون ، مما يتعذر منه على بالنسية أن يحافظ طويلا على استقلالها ؛ وهكذا فإنه بينما سار محمد بن سعد إلى غزو طرطوشة وطركونة من ثغور قطلونية ، وحاصرها من البر والبحر ؛ بمد عدة وقائع دموية نشبت في البر والبحر هزم فيها النصاري ؛ إذ سقطت بالنسية في يد الموحدين بمألة زعيم يدعى أبا بكر بن سفيان والى جزيرة شقر^(١) . فلما وقف محمد بن سعد على سقوط عاصمته ، اضطر أن يرفع الحصار عن ثغور قطلونية وسار في سفنه إلى جزيرة ميورقة ، وانتزعها من يد أصحابها ، وهم أبناء القائد الرابطي ابن غانية ؛ بيد أنه لم يمض طويلا ، وتوفي بعد ذلك بقليل في رجب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م)^(٢) . ولما رأى أبنائه أن النضال بضارم بينهم وبين كثير من الزعماء ، وأن غارات النصاري والموحدين تلاحقهم بلا انقطاع ، وأنهم لا يستطيعون الثبات أمام هذه الجبهة من الأعداء ، عقدوا مع سلطان المرابطين أبي يعقوب يوسف معاهدة ، يتنازلون بمقتضاها عن جميع أراضيهم ، مشتملة على بالنسية ، ومرسية ، ومريطر ، وشاطبة ، ودانية ، ولقنت ، وشقر ، ولورقة وغيرها ؛ وعلى الأراضي الواقعة فيما بين مصب نهر إبيرو ومدينة قرطاجنة ، وعلى مقربة من الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وأن يعرضهم عن ذلك بمناصب يتقلدونها وأراض تقطع لهم في مملكته ؛ وتزوج أبو يعقوب يوسف أخنكا لأنزاء بالنسية (أعنى ابنة لابن مردنيش) توثيقا للصداقة بين الأسرتين ؛ وهكذا استطاع الموحدون أن يوفقوا بحسن طالعهم إلى الحصول على أراض ما كانوا ليؤمنوا

(١) راجع الحلة السيرة ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(٢) تسمى الرواية الرئيسية الموقعة التي هزم فيها ابن مردنيش وانتهت بسقوط دولته بموقعة الجلاب . راجع تفاصيل هذه الحوادث ، وفي سقوط دولة ابن مردنيش ، ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠ ، والمراكشي ص ١٣٩ و ١٤٠ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ، ص ٢٢٠ و ٢٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٤٠ .

الحصول عليها بمجد أنيسف . ولما كانوا قد استولوا بذلك على جنوبي اسبانيا الذى يسكنه المسلمون ، فقد عمدوا من ذلك الحين إلى توجيه غزواتهم إلى الممالك النصرانية المجاورة ، وكانوا يؤملون الظفر عليها بسهولة لما كان يسودها يومئذ من التفرق والخلاف .

ومكث أبو يوسف فى اسبانيا أربعة أعوام وبضعة أشهر ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ، ففي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) خرج من إشبيلية إلى الغرب (غرب الأندلس) جنوبى البرتغال فى جيش ضخم ، وحاصر مدينة شنترين ، ثم سار إلى الفنطرة بطريق بطليوس والبكرك ، واستولى عليها حسبما تقول الرواية العربية ^(١) ؛ ووصل الغزاة إلى مدينة ردرىك ، ولسكنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء عليها . وبعد أن عاث الموحدون فى تلك الأراضى وخربوها ، عاد أبو يعقوب مثقلاً بالغنائم ، وفى ركبته عدة آلاف من الأسرى النصارى ، قد صفدوا أزواجاً .

وفى العامين التاليين أعنى سنتى ٥٦٨ و ٥٦٩ هـ ، (١١٧٣ و ١١٧٤ م) أرسل أبو يوسف بقيادة أكبر القادة عدة حملات إلى ضفاف التاجة ، فعاث فى أراضى قشتالة أشد عيث . وفى الوقت الذى كان فيه آل كاسترو وآل لارا يخوضان معاً معركة على ضفاف دويرة ، ويستنفدان بذلك قوى البلاد فى سبيل خصومتهم ، كانت حدود قشتالة الجنوبية تستهدف للضياع ؛ وكان فرسان قلعة رباح ، الذين سما شأنهم فى ذلك الحين ، يجاهدون لحفظ المملكة من السقوط ، بيد أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون رد الموحدين عن غزواتهم المخربة ، بالرغم من احتفاظهم بالقلاع التى يدافعون عنها . والروايات العربية عن هاتين الغزوتين غامضة ، ولا تتفق مع الروايات النصرانية ؛ فهى تقول فى شأن الغزوة الأولى إن الموحدين أحرزوا نصراً باهراً على الأمير سانشو أبى برذعة ، الذى كان يتمتع صهوة نبل عليه برذعة محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، وإنه لم ينج من جيش

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١ ؛ ونسب الفنطرة هنا « قصرة » وربما كان هذا تحريفاً فى الاسم .

النصارى — البالغ ثلاثين ألف مقاتل — أحد تقريباً ، وكان الأمير سانشو نفسه من القتلى^(١). أما الروايات النصرانية فلا تحدثنا بشيء عن هذه الغزوة ، كما أنها لا تحدثنا عن الغزوة الثانية التى حاصر الموحدون فيها طركونة ؛ هذا فى حين أن ألفونسو ملك أراجون كان عندئذ يغزو ولاية بلنسية ، وقد وضع حامية كبيرة فى حصن ترويل (سنة ١١٧٢ م) ومهد الطريق بذلك للزحف على الأراضى الواقعة جنوبى أراجون . أما فى البرتغال فقد وصل الأمير سانشو فى زحفه إلى لبله ، ونشبت أمام باجة بينه وبين الموحدين الذين كانوا يحاصرونها ، موقعة انتصر فيها عليهم وأرغمهم بذلك على رفع الحصار .

ولم يقتصر أبو يعقوب يوسف أثناء مقامه فى إسبانيا على شهر الحرب وأعمال العنف ، ولكنه أراد أن يخلد ذكرى هذه الزيارة بأقامة منشآت عظيمة يذكرها الخلف ؛ فأنشأ فى إشبيلية التى كان يقضى فيها معظم الوقت ، مسجداً فخماً ، بنى فى أفصر وقت ، وأنفق عليه أموال عظيمة ، وأنشأ على النهر الكبير (الوادى الكبير) قنطرة من السفن ثبتت معاً بالسلاسل ، وأقيمت على ضفتى النهر مخازن كبيرة للبضائع ، ومراسى يصلها الدرج بالنهر ؛ وأمر أيضاً بتجديد قسم من أسوار إشبيلية ، وزودت المدينة بالماء النقى بواسطة مواسير أنشئت لذلك .

ثم غادر أبو يعقوب يوسف إسبانيا وعاد إلى مراکش فى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٠ م) ؛ ولكن الحرب ضد النصارى الأسبان استمرت على شدتها ، وذلك بالرغم من أن قوى الموحدين لم تكن من الكثرة كما كانت وقت مقامه بالأندلس . وفى العام التالى (١١٧٧ م) نشبت بين الموحدين والقشتاليين مجوار قوتقة — فى مكان وعمر بالجبال — موقعة شديدة ، واضطر فيها الموحدون إلى الانسحاب حينما هرع ألفونسو الثانى ملك أراجون ، والأمير بيدرو رويز دى أزاجرا إلى معاونة القشتاليين ؛ وربما كان هذا هو السبب فى أن الروايات العربية لم تذكر شيئاً عن

(١) هذه رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس (ص ١٢٩) ، وقد سمي فيها قائد النصارى فى هذه الموقعة « سانشو المروف بأبى برذعة » ، والظاهر أن المقصود هنا هو أحد أمراء قشتالة ، وليس ملكها ، وقد كان ملك قشتالة يومئذ هو ألفونسو الثالث .

هذه الموقعة ، التي تعتبرها الرواية النصرانية من أهم المواقع ؛ وقد سقطت على أثرها قوتقة في يد النصارى .

واستمرت هذه الحال إلى سنة ١١٨٣ م ؛ وكان الموحدون يقومون في كل عام تقريباً بالغزو في أراضي النصارى ، ويقوم ملوك قشتالة والبرتغال وليون وأراجون من جهة أخرى بنزو اسبانيا الجنوبية (الأندلس) ، ويتراوح النصر سجالات بين الفريقين في هذه المعركة الدموية ، دون أن تسفر عن نتائج حاسمة ، أو حوادث ذات شأن ؛ ثم اتخذت الحرب وجهة أخرى ، وامتدت إلى مناطق لم تكن إلى ذلك الحين ضمن ساحات القتال . ذلك أن الموحدين ، وكذلك البرتغال وقطالونية وهما الدولتان البحريتان ، جهزوا الأساطيل ، ونشبت بين الفريقين عدة معارك بحرية في مياه الجزائر الشرقية ، وعند مصب نهر التاجه ، وأمام شواطئ الغرب ؛ بيد أنها مثل المعارك البرية لم تسفر عن أية نتائج أو فتوح ذات شأن .

ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضالة النتائج التي أحرزتها قواته في حروبه ضد النصارى ، استمد بنفسه للغزو ثانية ، وذلك بعد أن أتم تهدئة المغرب ، واستراحت الأمم المغربية من عصف الوباء الذي نزل بها ، وهلكت فيه جموع كبيرة ، من بينها عدد من إخوة الخليفة وأقاربه : وسار أبو يعقوب يوسف إلى سبتة في أوائل سنة ٥٥٨٠ (١١٨٤م) ، ولبت هنالك حتى اجتمعت لديه جيوش المغرب من زناتة ومصمودة ومغراوة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية ؛ وتبع هذه الجيوش غير النظامية ، جيش الموحدين النظامي ، وهو حسن الدربة والتسليح ، وبعد أن عبرت هذه الجيوش إلى اسبانيا ، عبر أبو يعقوب يوسف في حرسه وحاشيته ووزرائه ، ونزل بجبل طارق (أو جبل الفتاح) في شهر صفر من العام المذكور ، وسار إلى إشبيلية ، ليخرج منها توا إلى شهر الجهاد على النصارى .

وكانت البرتغال من بين الممالك النصرانية أشدها وطأة في غزو أراضي الموحدين ؛ ولذا اعترم أبو يعقوب يوسف ، أن يسحق أخطر أعدائه بتفوق قواته

بادى ذى بدء ، حتى إذا عم الرعب من جراء انتصاره استطاع أن يخضع الممالك الأخرى بسهولة .

وكانت خطة زعيم الوحدين تقضى أولا بمهاجمة مملكة البرتقال من البر والبحر ، حتى ضفاف نهر دويرة ؛ ثم الزحف من على ضفاف التاجه ودويرة إلى قلب مملكتي قشتالة وليون ؛ بينما تشغل قوات النصارى جيوش إسلامية أخرى تزحف من الجنوب . وقد حشد لهذه الغاية قوات عظيمة ، واجتمعت إليه فضلا عن الجيوش المغربية الجراراء ، قوى مسلمى الأندلس ، وحشد أولاده السيد أبو إسحاق وإلى إشبيلية ، والسيد عبد الله أبو يحيى وإلى قرطبة ، والسيد أبو سميد عبد الرحمن وإلى غرناطة ، والسيد أبو عبد الله وإلى بلنسية ومرسية ، مالدتهم من القوى ، بعد أن تركوا حاميات في مدنها ، وضمت إلى جيش أبيهم في إشبيلية . وفى بعض الروايات النصرانية أن هذه الجيوش المجتمعة كانت تفوق في الكثرة أى جيش آخر ، قاده ملوك إفريقية إلى اسبانيا ، وأن أبا يوسف حينما استعرض توارىخ الملوك السابقين ، وجد جيشه يزيد بمقدار ثمانية وسبعين ألف مقاتل ، عن أعظم جيش قاده المسلمون من إفريقية إلى الأندلس منذ عهد طارق بن زياد . وكذلك اجتمع للمسلمين أسطول عظيم من سفن القتال وسفن النقل ، مشحونة بالسلاح وآلات الحصار والمؤن ، عند مصبى نهري الوادى الكبير ووادى يانة ، على أهبة لأن يؤيد من البحر جهود الجيش البرى ضد البرتقال .

وبادر أبو يوسف بمقوب بالخروج من إشبيلية ، لكي لا يترك للنصارى وقتا للتسلح ، وإصلاح القلاع ، وتزويدها بحاميات كبيرة ومقادير احتياطية من المؤن ، والنزول إلى ميدان الحرب بجيش حسن الأهبة ؛ وسار على رأس الجيش الرئيسى متجها إلى بطليوس ، معترضا محاصرة أشبونة . بيد أن كان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح أن يستولى على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجه اليسرى . وعلى ذلك فما كاد يعبر التاجه بجيشه حتى ضرب الحصار حول شنترين ، مؤملا أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذى خصص لمحاصرة

أشبونة من جهة البحر ؛ ولما كان قد اجتمع لديه سبعة وثلاثون من الولاة في قواتهم ، وكان ضرب المدينة بآلات الحصار متواصلا بالنهار والليل ، فإن الحامية التي لم تستكمل عدتها لم تقو على المقاومة إزاء هذا السيل الجارف ؛ فلم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، أو أربعة عشر يوما على حصارها حتى استولى أبو يعقوب عليها خلا قلعها ، التي استمرت حاميتها البرتغالية تدافع عنها بمنتهى البسالة ، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ (يولييه سنة ١١٨٤) . وقد كان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه ، معتبرا القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك مما يثير في نفوس أولئك القادة المحربين صرارة شديدة ؛ وكانوا قد اعترضوا من قبل في مجلس الحرب ، على تحويل المسكر من شرقي شنترين إلى شمالها وغربها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء . ولكن إرادة أبي يعقوب هي التي نفذت دون سواها .

ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده أبا إسحاق والى إشبيلية ، أن يكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس ، والقيام بالمهجوم في اتجاه أشبونة ، وذلك لكي يحمي المهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة من هذه الناحية . فهل وقع سوء فهم أم كانت ثمة فتنة ؟ ذلك أن أبا إسحاق ، سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح ، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فمبر نهر التاجه ، وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية . وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع في جميع المسكر الإسلامي ، وتفاقم الأمر ، حينما زحف سانشو ابن ملك البرتغال ، على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل . وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب يوسف قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوباظة ، وأمر بدمج جميع الأسرى النصاري الذين كانوا في معسكره وعددهم عشرة آلاف ، لكي لا تموقه حراستهم . بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألقي نفسه أمام الجيش البرتغالي وجهاً لوجه .

وكان تغيير مواقع المسكر الذي أمر به أبو يعقوب وحده ، خلافا لنصح

قواده ، ووجود الجيش البرتغالى فى مركز يهدد المسلمين ، ومسير القوات الأندلسية وغيرها إلى ما وراء نهر التاجه ، وهو ما بدا كأنه حركة انشقاق ، وأخيراً ذبوع تباً ما لبث أن تأيّد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه ؛ كل هذه الأمور بثت فى معسكر الموحدين نوعاً من الرعب العام ، ترتب عليه أن غدت أوامر الخليفة لا قيمة لها . وفى صباح اليوم التالى وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل بقيادة أسقف شنت ياقب ، وانضم إلى الجيش البرتغالى الذى يقوده ولى العهد سانشو ؛ وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم فى اضطرابهم واختلال نظامهم ، وعاونت حامية قلعة شنترين مواطنيها بالخروج من القلعة ومهاجمة المسلمين .

ولما كان قسم كبير من قوى الموحدين ، قد عبر نهر التاجه ، فإنه لم يبق لدى أبى يعقوب سوى حرسه وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل المتاد والمتاع ، التى لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف لسرعتها ؛ ورأى زعيم الموحدين ، وهو يضطرم سخطاً ، أنه وقع ضحية الخيانة ، وأسلم إلى الأعداء ؛ ولكنه لم يرد أن يركن إلى الفرار شأن الجبان . وهكذا نشبت الموقعة وهجم النصارى على معسكر الموحدين وهم يصيحون « إلههم ، إلههم ! إليه ، أين هو ؟ »^(١) ، ثم نفذوا إلى خيام الحرس ، وقتلوا رجاله جميعاً ، ووثبوا إلى خيمة الأمير ، وضربوا كل ما حوت من الستور والبسط والفراش ، وقتلوا بعضاً من جواربه أشنع قتل ، أما أبو يعقوب فقد وثب إلى فرسه ، وأسقط منه ثلاث مررات ، وهو يقا تل بسيفه ستة من الفرسان النصارى ، وأخيراً طعنه أحد هم بسيفه طعنة نافذة فسقط إلى الأرض مضرجاً بدمائه .

وفى تلك الأثناء استطاع عدة من الفارين من حرس الموحدين ، أن يتصلوا بالجيش المنسحب تحت إمرة أبى إسحاق ، وأن يبلغوه نبأ الموقعة وما أحاق بالأمير من خطر ؛ فارتد من فورده ليسى إلى إنقاذ الأمير إن كان ثمة وقت ؛ وما كاد يمر

(١) ورد فى روض القرمطاس أن النصارى حينما هاجموا معسكر الموحدين كانوا يصيحون « الرى ، الرى » أى اقصداوا السلطان . (ص ١٤١) والرى هى بالأسبانية Rey أى الملك .

التاجه بمجنوده صرة أخرى حتى نشبت بين المسلمين والنصارى معركة أخرى ،
سالت فيها دماء الفريقين غزيرة ، وقاتل كل منهما بمنتهى البسالة .
ويوجد ما يحمل على الشك فيما تقوله الرواية العربية من أن المسلمين
استولوا خلال هذه المعركة عنوة على شنترين ؛ بيد أنها تضيف إلى ذلك أن المسلمين
أصيبوا بخسائر فادحة (والرواية النصرانية تقدر قتلى المسلمين بثلاثين ألفاً) ، وأنهم
ارتدوا في الحال إلى نهر التاجه ، وعبروه إلى الضفة اليسرى من قنطرة كانوا
يحرسونها ، وانصرفوا إلى إشبيلية ، وتركوا معسكرهم غنيمة للنصارى بكل ما فيه
من الذخائر والنفائس من كل ضرب ، كذلك بادر الأسطول الإسلامى ، الذى
وصل إلى أشبونة مشحوناً بآلات الحصار والتخريب ، إلى الفرار حينما علم بنبأ
الهزيمة التى حلت بأبى يعقوب أمام شنترين^(١) .

أما مصير أبى يعقوب ، فيحقيق به غموض ، يصعب استجلاؤه إزاء مختلف
الروايات المتناقضة ، إذ أن مثل هذا الحادث بطبيعته ، مما يحمل في البداية على
إذاعة الأنباء الكاذبة إخفاء موت الأمير ؛ وعلى ذلك فإنه ليس من المحقق ما إذا
كان قد أسلم الروح في الواقعة ، أو غرق في النهر حين عبور الجيش الغار ، أو أنه
توفى متأثراً بجراحه حين عودته إلى إشبيلية أو وصوله إلى الجزيرة الخضراء ،

(١) تورد الرواية العربية تفصيلاً آخر لموادث هذه الفزوة ، فتقول إن أباً يوسف
يعقوب حاصر مدينة شنترين في البداية وضيق عليها ، ثم أمر بنقل معسكره من موضع نزواه
يجوف شنترين إلى غربيها ، فأنكر المسلمون ذلك ، ولم يملوا له سبباً ، وأنه في مساء أمر
ولده السيد أباً إسحق ، أن يسير من تلك الليلة إلى غزو أشبونة في جبوش الأندلس ، وأن
يكون رحيله نهراً ، فأساء اللههم وظن أنه أسره بالرحيل في جوف الليل إلى إشبيلية . ثم
تقول الرواية العربية : « إن الشيطان صرخ في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على
الرحيل ... » وتحدث الناس بذلك ورحل منهم طائفة بالليل ، ثم تابع الناس في الرحيل ،
وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ؛ وأن النصارى المدافعين عن شنترين لاحظوا عند طلوع النهار
خلو المعسكر الإسلامى ، وتمققوا ذلك من جواسيسهم ، فهاجموه وضربوا في محلة الحرس حتى
وصلوا إلى خباء أمير المؤمنين ، وطمته أحدم ، بعد أن قتل منهم ستة رجال . ثم تضيف الرواية
العربية إلى ذلك أن المسلمين عادوا فقاتلوا النصارى وهزموهم ودخلوا شنترين (راجع روض
الفراس ص ١٤٠ و ١٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، والمراكشى ص ١٤٥ و ١٤٦
وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠) .

أو وصوله إلى سراكش . وكانت وفاته في ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٤ يولييه سنة ١١٨٤) . بيد أن الظاهر أنه لم يعيش بعد الهزيمة^(١) .

وحكم أبو يعقوب يوسف مملكة الموحدين الشاسعة بقوة وكفاية مدى اثنين وعشرين عاما . وكانت أكبر أخطائه ، رغبته في أن يتولى جميع الأمور بنفسه ، وأنه بالرغم من فتوته قلما كان يحفل بنصح الشيوخ الناصحين ، أو يستمع إلى أحد في المدول عن أمر تقرر . وقد ترتب على ذلك ، وعلى ما أوقته من المعوقات الصارمة على الكبراء الذين ظلموا الشعب ، أن أكثر أعداؤه بين شيوخ القبائل ورجال البلاط ، وربما كان ذلك من أسباب مصرعه أمام شنترين ؛ وكان أول ملك من ملوك الموحدين قاد الجيش بنفسه ضد النصاري في اسبانيا ؛ وكان إلى جانب عظيم شجاعته وفروسته ، رقيق المشاعر ، فياض الجود في كل مناسبة ؛ وكان وسيم الطلعة ، رقيق الحيا ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، جميل العينين ، أقنى الأنف ، جمد الشعر ، حسن القد ، وافر الهيبة والجلال^(٢) .

٤ — يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك

وخلف أبا يعقوب يوسف في الحكم ولده عبد الله يعقوب بن يوسف وتلقب بالنصور بفضل الله ؛ ولسنا نعرف إن كان قد ارتقى العرش لأنه كان أكبر إخوته ، أو لأن أباه اختاره لولاية عهده . ذلك لأن وراثته العرش لم تنظم وفقاً لقانون معين . وكان الأمير يختار ولي عهده وفق مشيئته ؛ وكان يعقوب النصور ممن شهدوا موقعة شنترين ، فتولى قيادة الجيش مذ جرح أبوه ، وأخفى موته حتى عاد إلى المغرب ، وتمت ييمته في سراكش في الثاني من جمادى الأولى سنة ٥٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٨٤) ..

(١) يضع صاحب روض القرطاس وفاة ابن يعقوب يوسف في الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ، ويقول إنه توفي من جراحه في الجزيرة الخضراء (ص ١٤١) ، ويقول ابن الأثير إنه توفي من مرض أصابه تحت أسوار شنترين ، وحمل منها ميتاً إلى إشبيلية (ج ١١ ص ١٩٠) ، ويتردد ابن خلدون بين الروايتين فيقول إنه توفي من مرض نزل به ، أو من سهم أصابه في حومة القتال (ج ٦ ص ٢٤١) ، وفي الحلل الوشية أن وفاته كانت بنهر تاجه في قوله من غزاة شنترين على ظهر دابته (ص ١٢٠) .

وعمل يعقوب في بداية حكمه على اكتساب محبة الشعب ، بإخراج مقادير كبيرة من أموال الدولة وتوزيعها على الفقراء ، وبث أوامره إلى الولايات بإطلاق المسجونين الذين اعتقلوا لذنوب ثانوية ، وتمويض الذين ظلموا أيام أبيه ، كما أمر بإسقاط المكوس التي لم يتم أدائها . ورفع مرتبات القضاة والفقهاء في جميع أنحاء المملكة ، وزاد أجور الجند في جيش الموحدين النظامي ، وحصن الحدود في جميع الأماكن التي يخشى عليها ، وشحن القلاع بطوائف مختارة من الجند ، وطاف بجميع أنحاء المغرب ليتحقق بنفسه من تنفيذ أوامره ، وليعرف ماذا يجب إجراؤه من الأعمال الضرورية ؛ ونفذ عدة مشاريع خيرية ، فأنشأ كثيراً من المساجد والمدارس ، وأنشأ البيمارستانات (المستشفيات) للرضى ، ورصد لها أموالاً للنفقة ، وفتحها أيضاً لايواء العجزة والمعمرين يؤمنونها من جميع أنحاء المملكة . وعنى بتسهيل المواصلات والسفر ، فأنشأ في الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجاً ، وأحواضاً لحزن الماء ، وآباراً للاستسقاء ، وفنادق لزول المسافرين . كذلك كان المنصور صديقاً ونصيراً للعلماء ، وقد أنشأ لهم المعاهد ، وقسمهم إلى طبقات ورتب معينة ، وأجربهم الأرزاق كل وفق رتبته ؛ وكان يؤثر بالأخص الأطباء والمشرفين على المستشفيات^(١) .

وما كاد يعقوب المنصور يمتلئ المرش ، حتى قامت عدة ثورات عنيفة ، كما يحدث غالباً عند تغيير الحكم في الأمم الإسلامية . ذلك أن المرابطين الذين ألقوا ملاذهم الأخير في الجزائر الشرقية (البليار) ، واستطاعوا أن يحتفظوا بها هادئين في عهد محمد بن سعد أمير بلنسية ، ومن بعده في عهد أبي يعقوب يوسف ، تمركوا فجأة ، حيناً علموا بهزيمة الموحدين في شنترين ، ووثب علي بن إسحاق سليل القائد المرابطي الشهير بابن غانية ، فاستولى — بمعاونة أنصاره الكثيرين — على الأسطول الأندلسي الراسي في ميورقة ، وشحنه بالمرابطين وأهل الجزائر الشرقية ، وأبحر إلى بجاية من ثغور الجزائر ، فاستولى عليها دون مقاومة ، وأخرج منها

والها القاضى سليمان بن عبد الله حفيد أمير المؤمنين ، وأمر أن يدعى فى الخطبة للخليفة العباسى الناصر لدين الله ، واستطاع أن يضرع نار الثورة ضد الموحدين فى جميع المناطق المجاورة^(١) .

وشجع نجاح هذا المشروع بعض الزعماء الناقمين على الثورة ضد سلطان الموحدين ؛ بل إن أخوين من إخوة المنصور هما السيد أبو يحيى والسيد عمر ، وعمه السيد أبو الربيع ، كانوا فيما يبدو على تفاهم مع الثوار ؛ ولكن المنصور وقف على أمرهم ، قبل أن يستطيعوا تدير الخطط معهم ، وأمر بالقبض عليهم وإعدامهم ؛ واستمر المنصور يجاهد حتى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، حتى استطاع أن يقضى على الثورة بالقوة القاهرة ، وأن يرد جموع الثائرين إلى الطاعة ، والمرابطون من بينهم ؛ وكان هؤلاء قد قويت شوكتهم بما يتلقونه من سلاطين مصر من إمداد الجند ، وكانوا قد أحرزوا النصر مرارا ، واستطاعوا الاستيلاء على فاس عاصمة مراکش الثانية ، وسقطت فى أيديهم طرابلس ، وهى ثغر بحرى هام . ولكن المنصور هزم الثوار فى فاس فى معركة كبيرة ، واسترد المدينة ، وقتل أهلها عقابا لهم على انضمامهم إلى المرابطين ، وأخذ الثورة فى الولايات بمثل هذا الإرهاب والعنف^(٢) .

وما كاد يعقوب المنصور بعيد السكينة إلى المغرب ، حتى فكر فى أمر الجهاد ضد النصارى فى اسبانيا ؛ وكان النصارى قد قاموا فى تلك الأثناء بعدة غزوات فى الأندلس ، أحرزوا فيها النصر تارة ، وأصيبوا بالهزيمة تارة أخرى . وعبر المنصور إلى الأندلس فى ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، وتقول الرواية العربية إنه سار بجيشه توا إلى شتيرين وأشبونة ، لى ينتقم لهزيمة والده ومقتله ، وإنه عاث أثناء سيره فى الروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان أوسباهم ، وذهب فى الميث والتخريب إلى أروع الحدود ، حسبما يقول المؤرخون المسلمون

(١) راجع تفاصيل غزوات ابن غانية لثغور إفريقية فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

أنفسهم^(١). بيد أن النصور ، لم يقم — بالرغم من هذا التخريب — بأية فتوح ، ولكنه خرج من هذه الغزوة بفنائم عظيمة ، وثلاثة عشر ألفاً من السبي بين نساء وأطفال ؛ واضطر أن يعجل بالمود ، إذ وقعت في المغرب اضطرابات جديدة تقتضى سرعة المود ؛ وهكذا عاد إلى فاس في شهر رجب من نفس العام (٥٨٥ هـ) .

وقامت عندئذ في إفريقية الشرقية (تونس) ثورة عمد النصور إلى إخمادها ، ورحل من أجل ذلك في جيشه إلى تونس ؛ فانهز البرتغاليون فرصة غيبته ليقوموا بفتوح في جنوبي البرتغال وفي ولاية الغرب .

وحدث في ذلك الحين بالذات أن قدم أسطول من ستين سفينة تحمل جيشاً من الصليبيين قوامه عشرة آلاف مقاتل ، من ولايات الرين الألمانية ، والاورين وفريزلاند ، إلى شواطئ جليقية ، في طريقهم إلى المشرق ، ورسا على مقربة من شنت ياقب ، ونزل كثيرون ليقوموا بزيارة قبر هذا القديس في كومبستل . ولكن أهل كومبستل توجسوا شراً مما شاع حول هؤلاء الأجانب ، وكونهم قدموا لاغتصاب رأس القديس ياقب ، وربما أيضاً لنهب التآثر التي كدست في قبره ، فتقلدوا أسلحتهم ، وحالوا بالقوة دون دخول الصليبيين إلى المدينة ، ف وقعت بين الفريقين معركة سال فيها الدم من الجانبين ، وعاد الصليبيون على أثر ذلك إلى سفنهم .

وفي نفس هذا الوقت أيضاً قدم أسطول آخر من الصليبيين من إنكلترا والفلاندر ، ورسا قبالة اشبونة ؛ ولما كان الوقت متأخراً وقد دنا الشتاء ، فقد استطاع سانشو ملك البرتغال ، أن يحملهم على الاشتراك معه في القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين في ولاية الغرب . والظاهر أن الصليبيين الذين رسوا عند شاطئ جليقية ، قدموا أيضاً إلى البرتغال وانضموا إلى الجيش البرتغالي ، وأمدم الملك سانشو بثلاثين سفينة أخرى ضمت إلى أسطولهم ، وهكذا أعاد أسطول ضخم ؛ وبينما أرسل سانشو إلى باجه وباجه اللتين فقدتهما في الأعوام الأخيرة ،

(١) هذه رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ١٤٤) .

واللذين لم تكن تحرسهما حاميات قوية ، جيشاً غزاهما واستولى عليهما ، إذ سار الأسطول إلى الجنوب قبالة لسان ولاية الغرب ، وأزل جيشاً إلى البر على غرة من المسلمين ؛ وحاصر النصارى في الحال مدينة شلب ، وقطعوا عنها موارد الماء ، فاضطرت إلى التسليم ، وعقدت مع الملك سانشو دون علم الصليبيين عهداً بالخضوع ، بيد أن ذلك لم ينجحها من مضيقها المروع ؛ ذلك أنه لم ينج من سكانها الستين ألفاً بينهم الحامية ، سوى ثلاثة عشر ألفاً ، وسبي الباقون أو قتلوا . وقسمت الفنائم وفقاً لاتفاق سابق بين الصليبيين ، ولكن المدينة ، كانت من نصيب الملك . واستقر كثير من الإنكليز في شلب ، واختاروا قسا من قبس الأسطول ، من أهل فلاندر ، يدعى نقولاوس ، أسقفاً للمدينة ، على أنه كان من الصعب على هؤلاء النزلاء الأجانب أن يألّفوا الحياة بين السكان المسلمين ، مثل النصارى البرتغاليين والأسبان ؛ وقد ظهر ذلك في كل مناسبة ، مثال ذلك أنهم حين وصولهم إلى مصب نهر التاجه ، حيث يقيم في أشبونة كثير من اليهود والمسلمين ، تحت حماية النصارى ، ارتكبوا كثيراً من أعمال العنف والتمدى ضد اليهود والمسلمين .

ويبدو من المشكوك فيه ما إذا كانت شلب قد لبثت طويلاً في أيدي النصارى ؛ وتلزم معظم الروايات النصرانية الصمت إزاء استردادها السريع بواسطة الموحدين ، بل تزيد على ذلك أن المدينة استطاعت أن ترد جميع هجمات المسلمين بنجاح ، بواسطة شجاعة حاميتها ، والأمداد السريمة التي لقيتها من الملكين التحالفين ، ملكا البرتغال وليون ، وكذلك بواسطة معاونة الأسطول الإنكليزي . أما المؤرخون المسلمون ، ومعهم رددريك الطليطلي ، فيقدمون رواية أخرى مفادها أن الموحدين جمعوا في الحال قوات عظيمة ، وساروا بقيادة محمد والى قرطبة إلى شلب ، وفرضوا عليها الحصار الصارم ، ولبثوا على مهاجمتها بشدة بالليل والنهار حتى استولوا عليها ؛ وكذلك سقطت في أيديهم القصر (قصر أبي دانس) ، وباجه وبابره ، وسبوا ثلاثة عشر ألف رجل ، وخمس عشرة ألف امرأة ، وضموا في الأغلال كل تحمين في سلسلة ، وسبقوا إلى

قرطبة ، وكانت اختتام هذه الغزوة في شهر شوال سنة ٥٨٧ هـ (نوفمبر سنة ١١٩١)^(١) .

وهذأت الحرب في الأندلس بضعة أعوام . ذلك أن سلطان الموحدين كان عليه أن يخمد ثورات جديدة في إفريقية ، وقد أصابه المرض في مراکش ، ولم يستطع أن يتولى أمر الحرب بنفسه . ووقع الخلاف بين الملوك الأسبان في تلك الفترة ، فلم يكن من اليسور أن يفكر أحد في القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين ، وشغلت البرتغال وليون بأمر قرار الحرمان البابوي ، كما شغلت أراجون وناقارا بالخلاف مع جيرانهما في فرنسا ؛ وهكذا وقع عبء الحرب ضد المسلمين كله على عاتق قشتالة . ولكن الملك ألفونسو كان عندئذ أحرص من أن يثير المسلمين فيغيرهم بالسير إلى الغزو . بيد أنه لما عين مارتين دى سیرجا ، مطراناً لطليطلة عقب وفاة المطران جوزالو ، أخذ هذا الجبر المحارب التحمس ، يعمل لإعداد حملة كبيرة ضد الأندلس . وفي العام التالي من ولايته ، سار على رأس جيش ضخم إلى ميدان الحرب مرة أخرى . وشجعه ضعف الحاميات الإسلامية على الحدود ، ونبا مرض يعقوب المنصور ، فاخترق جبال الشارات (سييرا مورينا) ، وسار بجحذاء نهر الروادي الكبير إلى أعماق الأندلس ؛ ودمر النصارى كل شيء بالنار والسيوف ، فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرى ، وسيقت الساشية ، وسبي المسلمون الغزل رجالا ونساء ، وقتل المسلمون منهم ؛ وهكذا كفر مسلمو الأندلس الأبرياء عن فطائع الموحدين ، ولم يسعهم عون ولا نصح بدون به العدو عن هذه الفعالم العنيفة . وزحفت قوى خفيفة من الفرسان النصارى حتى أحواز إشبيلية وإستجة ، وإلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون الليث والتخريب^(٢) .

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ ، والمراكشي ص ١٥٨ .
(٢) روض القرطاس ص ١٤٥ .

ولم يفتن ألفونسو الثالث ملك قشتالة بهذه الغزوة ، التي حمل منها المطران مارتن إلى طليطلة غنائم عظيمة ، فكتب إلى سلطان الموحدین خطاباً يدعوه إلى القتال هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من ملك النصرانية إلى أمير الحنفية ، أما بعد ، فإن كنت عجزت عن الحركة إلينا ، وتناقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لى المراكب والشباطى أجوز فيها جيوشى إليك ، حتى أقاتك فى أعز البلاد عليك ، فإن هزمتنى فهديّة جاءتك إلى يدك ، فتكون ملك الدينين ، وإن كان الظهور لى كنت ملك اللتين ، والسلام » (١) .

فلما قرأ يعقوب المنصور هذا الخطاب أخذته غيرة الإسلام ، واشتد حنقه لفطرسه ملك النصارى ، فبادر بالتأهب للحرب فى الأندلس ؛ وأمر أن يذاع الخطاب فى جنود الموحدین ليثير غيرتهم ؛ وضح الجميع وصاحوا بطلب الانتقام ، وأجمعوا على المطالبة بالإسراع فى شهر الجهاد ؛ وأمر المنصور ولده ، وولى عهده السيد محمد ، بالرد على الخطاب ، فكتب فى الحال على ظهره الآية القرآنية الآتية : « قال الله العظيم ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » . ووقع المنصور هذا الرد وأرسله إلى ملك النصارى ، وأمر باخراج أفران القبة الحمراء ، وسيفه الكبير ، إيداناً بالدعوة العامة إلى الجهاد ؛ وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير توأ إلى سبتة ، وإلى غيرها من أمكنة السور إلى الأندلس . ودوت صيحة الجهاد فى جميع أنحاء المغرب من سلا حتى برقة ، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام . وفى نفس الوقت الذى سارت فيه سائر جند الغرب النصرانى إلى محاربة صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، هرع الرجال والشباب والشيوخ وسكان الهضاب والصحارى والشواطىء

(١) هذا نص كتاب ملك النصارى كما ورد فى روض القرطاس (ص ١٤٥) ويورده المؤلف بنفس المعنى تقريباً مع خلاف يسير فى العبارة . ولكن ابن خلكان ينقل إلينا نصاً آخر أكثر تفصيلاً لكتاب ألفونسو إلى المنصور ، يتفق آخره فقط مع النص الذى ورد فى روض القرطاس ، غير أنه يبدو من دياجعة هذا الكتاب ومحتوياته أنه هو الذى وجهه ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى يوسف بن تاشفين (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠) .

في جميع أنحاء المغرب إلى ألوية القتال لافتتاح اسبانيا ؛ وأخذ الخطر الداهم يندثر الغرب ، في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق . وبعد أن سير بمقوب النصور جميع قواته إلى اسبانيا ، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلا ، ثم بادر بالسير إلى قشتالة ، خشية من نفاذ المؤن ، ولكي يستغل حماسة جنده وطمعهم إلى القتال . وكانت خطة زعيم الموحدين ترى أولا إلى اختراق قلب اسبانيا وافتتاح طليطلة ، ومتى ظفر ببنيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة . ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة ، قد حشد قواه بين قرطبة وقلمة رباح على مقربة من قلعة الأرك Alarcos أنجه بجيشه إلى ذلك المكان ، إذ كان يسعى إلى الاشتباك بهدوه . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين منه ، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (يولييه سنة ١١٩٥ م) ، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ لبحث الخطط التي يجب اتباعها لخوض القتال .

ولما سمع رأى الجميع ، التفت إلى زعماء الأندلس ، وطلب رأى أبي عبد الله ابن سنانيد ، وقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب . وكان بمقوب النصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، وهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم ؛ وكان من رأى ابن سنانيد أنه يجب أن توضع خطة موحدة منظمة لتسيير دفة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام ينقصان الموحدين في حروبهم السابقة ، ولا سيما في موقعة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير المؤمنين قائدا عاما للجيش كله ؛ فوقع اختيار النصور على كبير وزرائه ، الزعيم الأشهر أبي يحيى بن أبي حفص ، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن ، والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع .

كذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم ، وهو ما لم يتبع دائما ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقف ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم . على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا

من الجيش ينضوى تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص . ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبد الله بن سنانيد بأن يتولى هؤلاء ، لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول . وأما بقية الجيش ، وهى المؤلفة من قبائل البربر ، وممظمهم من غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين والأندلسيين ، تقوم بالمعون والإمداد ؛ أما يعقوب النصور فيستطيع بحرسه الأبيض والأسود ، أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب أن يربط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوئين على الأعداء المتمين ، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر الكسوب . كل هذه الآراء أبداهما الزعيم الأندلسي ، وأعجب النصور بهذه الخطة ، فوافق عليها وأمر بتنفيذها^(١) .

وفى تلك الأثناء كان ألفونسو ملك قشتالة يجد فى الأهبة ؛ وقد استطاع أن يقوم بالنسبة إلى مملكته السفيرة بمحشد قوات هائلة ، وقدم إليه فرسان قلعة رباح وفرسان الداوية ، وفروسية قشتالة بأسرها وكذلك الأجناد أعظم المساعدات الممكنة . فاذا صح ما يقال من أنه استطاع أن بمحشد أكثر من مائة ألف مقاتل (والرواية العربية تقدر جيشه بثلاثمائة ألف) ، فإن هذه القوة لم تكن لإزاء قوى أعدائه التى لا نحصى ، لتكفى لإحراز النصر عليهم . وقد رأى إزاء هذا الخطر الذى يهدد جميع الممالك النصرانية ، أن يطلب إلى قريبيه ملكي ليون وناقارا ، تناسى الحصومات التى فرقت بينهم من قبل ، وأن يضما قواهما إلى قوته لياقى الجميع أعداء دينهم مجتممين ، فوعدا بالمعون والسير إليه يدفعهما فيما يبدو تحريض الأجناد والشعب أكثر مما تدفعهما الرغبة الخالصة ؛ وجما الجند ، وتوليا القيادة بنفسيهما ولكبهما تحركا فى كثير من البطء ، حتى أن ملك قشتالة أخذ يشك بحق فى صدق نيتهما ، وكاد يمتقد أنهما يضمران من المدوان ضد قشتالة ، أكثر مما يحفزهما من رغبة فى محاربة المسلمين . ورأى إزاء هذا الريب ، أن أفضل ما يجب

(١) راجع روض القرطاس (ص ١٤٧) حيث يورد هذه الأخبار بالتفصيل .

عمله هو أن يترك أساليب الأسباب القديمة في الحرب ، وهي تقضى بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع بالقلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجراءة على الانسحاب ، إما لنفاد المؤن أو تفشى الأمراض ، أو حلول الشتاء . ولكن ألفونسو رأى ، وهو سيد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، أنه من المار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصاً وقد كان يؤمل أنه يستطيع بمفرده أن يحجز نصراً باهراً على جيوش إفريقية التي لا تحصى .

وفي ١٩ يولييه سنة ١١٩٥ ، الموافق ٩ شعبان سنة ٥٩١ ، كانت موقعة الأرك الشهيرة . وفي صباح هذا اليوم ، أذاع يعقوب ، بين سائر الجند ، لكي يذكر حماسهم للقتال ، خبر حلم رآه في الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى في منامه فارساً نبيل الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء ، وييده راية خضراء قد انتشرت في الآفاق ، يقول له إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليبشركم بالنصر بحول الله^(١) ، وقد نظم جيش الموحدين ، الذي تقدره بعض الروايات بستائة ألف مقاتل ، والذي كان يضم ضمن وحداته قوى ثلاثين من الولاة على النحو الآتي : احتل الموحدون ، أو القوات النظامية القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أعقاب فأنجي المغرب المسلمين ، ومعهم زناتة وبعض القبائل البربرية الأخرى ، تحت ألويهم الخامسة ؛ واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد .

وتولى يعقوب المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي . ودُفعت صفوف التطوعين ، ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ، وهو لون الموحدين إلى المقدمة ، لتفتتح الموقعة ، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بتاج الاستشهاد .

وكذلك نظم ملك قشتالة ، في تلك الأثناء ، جنده المتوتبة إلى القتال ؛ وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب ، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا

يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة . وكان الجيش القشتالى يحتل موقعاً عالياً ، وكانت هذه ميزة له فى بدء القتال .

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة ، إلى سفح التل الذى يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على أثر كلمات قائدتها الלהبة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين الثقيلين بالدروع ، على المسلمين كالسيل الجارف المتدفع من عل ؛ ورد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفدوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم العنيف . فلما عززت صفوف القشتاليين بقوى جديدة ، هجموا للمرة الثالثة ، وضاعفوا جهودهم ، واقتحموا صفوف المدو ، وفرقوعها ، وقتلوا قسماً منها ، وأرغم الباقون على الفرار ، ولقى آلاف من المسلمين مصرعهم فى تلك الصدمة ، ومنهم القائد العام أبو يحيى ابن أبى حفص ، الذى سقط وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، واعتقد النصرانى أن النصر قد لاح لهم ، بعد أن حطموا قاب جيش الموحدين ؛ ولكن الأندلسيين وبعض بطون زنقة ، وهم الذين يكونون الجناح الأيمن ، هجموا عندئذ بقيادة أبى عبد الله بن سنانيد ، على قلب الجيش النصرانى ، وقد أضغفه تقدم الفرسان القشتاليين ، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة نفسه ، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح ؛ فلقى الأعداء ، وهم أضغاف قوته دون وجل ؛ ونشبت بين الفريقين معركة حامية طويلة ؛ واستبدل النصرانى النقص فى المدد بالإقدام والشجاعة ، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين فى حرسه ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين ، واضطرم إلى الفرار فى غير انتظام ، لم يغادر ألفونسو وفرسانه البشارة آلاف مكانهم فى القلب ؛ ذلك لأنهم أقسموا جميعاً فى الصباح عند الصلاة ، بأن يموتوا ولا يتقهقروا . واستمرت المعركة على اضطرابها الروع ، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار ، وأرجاء المكان ندوى بوقع حوافر الخيل ، وقرع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ، وأنبين الجرحى . ومع أن الموحدين كانوا يتقدمون فوق أكداس من جثث

جندهم ، فإنهم أبقنوا بالنصر ، حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة ؛ وهجم أمير المؤمنين في مقدمة جيشه ، لكي يجهز على هذه البقية أو ياجئها إلى الفرار ، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى ، والعلم الأبيض القدس يخفق أمامه منقوشاً عليه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله » . ولم يشأ ألفونسو ، بالرغم من اشتداد ضغط العدو عليه من كل صوب ومواجهته لخطر الهلاك والسحق ، أن ينقذ نفسه بالفرار ، وأن يحتمل مار الهزيمة ؛ وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لهدم ، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو ، وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته .

وهكذا انتهى يوم الأرك الدامي بهزيمة النصارى على هذا النحو الروع . وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية ؛ واستولى المسلمون على معسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والمال ، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك وقاعة رباح النسيمين ؛ ومما زاد في ألم الأسبان أن هذه الهزيمة لم تلحق بهم دون معاونة بعض النصارى الفارين الذين كانوا يرافقون زعيم الموحدين ويمدونه بالنصح ؛ وكان في مقدمة هؤلاء الكونت بيدرو فرنانديز دى كاسترو ، المبدى من قشتالة ، فقد أبدى نشاطاً خاصاً في المعاونة على سحق وطنه^(١) .

وسرعان ما رفع انتصار الأرك شهرة الموحدين الحربية في كل مكان ؛ وأمس يعقوب المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع أنحاء مملكته الشاسعة ؛ وخصص جنس الغنائم بعد أن وزع باقيا على الجند لبناء مسجد نغم في إشبيلية

(١) يتبع المؤلف في منظم التفاصيل التي يوردها عن موقعة الأرك ، رواية صاحب روض القرطاس (س ١٤٥ وما بعدها) . وراجع أيضاً في تفاصيل هذه الموقعة ، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٠ ، والمراكشي ص ١٦٠ ، ويسمى مكان الموقعة بفتح الجديد ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ^(١) وبناء حصن كبير في مراكش لتخليد ذكرى الواقعة .

ومما يذكر هنا بالثناء لرعيم الموحدين ، أنه لم يُشِنْ صفحة نصره بالاتجاه إلى قسوة لا مبرر لها ، في معاملة الأسرى والعزل . فقد أسر المسلمون في موقعة الأرك عشرين ألفاً ، ولم يشأ المنصور جرياً على سنن الحرب التبعة يومئذ أن يقتلهم أو يرسلهم عبيداً إلى إفريقيا بل آثر أن يمنحهم جميعاً الحرية دون افتداء ؛ وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين ، واعتبروه من بعض جوانب فروسته الضعيفة ؛ وتقول الرواية العربية إنه ندم على تصرفه فيها بعد^(٢) .

ولم يبلغ سلطان الموحدين قط ما بلغه عقب موقعة الأرك . وقد اجتمعت عوامل عدة لتحدث هذه النتيجة . ولم يكن ينقص الممالك النصرانية الخمسة الاتحاد فقط ، بل إن قشتالة التي كاد أن يقضى عليها الموحدون ، غدت فريسة حرب شერთها عليها ليون وناقارا . وكانت هاتان الدولتان تقومان في الواقع عندئذ بمفاوضات سرية لمقد تحالف مع الموحدين . وكانت أراجون قد أدركها الوهن عقب وفاة ملكها ألفونسو الثاني ، وفرقتها الحروب الأهلية . أما البرتغال فلم تكن تستطيع دون معاونة خارجية أن تقوم بمشروع ما ، وإن كان مما يجب ذكره أنها كانت مع ذلك أعد الدول النصرانية وطأة في محاربة المسلمين .

ورأى يعقوب المنصور أن ينهز فرصة هذه الظروف السائجة ، فقام في أوائل سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية . واختراق ولاية استرامادوره ، وعبر النهر الكبير (الوادى الكبير) في اتجاه نهر التاجه ، وبعد أن استولى على عدة حصون وقلاع مثل ترجاله ، وعسقلونة ، ولاليا ، واستمتع

(١) حول هذا المسجد الشهير إلى كنيسة جاسنة بعد استيلاء النصارى على إشبيلية (سنة ١٢٤٨ م) وحولت منارته إلى برج للناقوس ، وهي لا تزال قائمة إلى يومنا ، وتعرف ببرج الجيرالدا La Giralda ، وارتفاعها يبلغ نحو مائة متر ، وتعتبر من أبداع قطع الفن المختلط ، المغربي النصراني .

(٢) هذه رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٥٢) .

عليه البعض الآخر مثل طلبيره ومجويده ، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ؛ وكان ألفونسو ملك قشتالة ، قد امتنع مع جيشه الصغير بماسمته ولم يجزؤ أن يحارب المدو في الميدان المكشوف نظراً لانكسار أنفوس جنده وقلة عددهم . بيد أنه كان معتمزماً أن يدافع عن طليطلة عاصمة اسبانيا النصرانية حتى النفس الأخير ، وأن يلقى الموت قبل أن يخضع للمدو . ولما رأى المنصور بمد أن حاصرها عشرة أيام أن جميع محاولاته لاحتحام هذا المقل النيع لم تسفر عن النجاح ، ارتد عن أسوار طليطلة إلى مدينة طلمنكة ، واقتحمها ، وقتل كل جنودها ، وسبي النساء والأطفال ، وقسم كل الغنائم بين جنده ، وأحرق المدينة وهدم حصونها ؛ وفعل مثل ذلك بوادى الحجارة وعدة أماكن أخرى . ولكن بجريط والقلمة امتنعنا عليه ولم يوفق إلى فتحهما .

ولما كان سكان السهول قد لجأوا إلى القلاع ، وانتسفت الزروع عقب موقعة الأرك ، فسرعان ما نقصت المؤن في جيش الموحدين ، ثم دب إليهم المرض ، وكثر الموت بينهم ، فاضطروا عندئذ إلى الانسحاب ، بمد أن وصل بمقوب المنصور إلى مقربة من ضفاف دويره ، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أى جيش إسلامي . وعاث الموحدون عند عودهم في الأراضي النصرانية أليما عيث ، فلم تطلأ أقدامهم مكاناً إلا تركوه أطلالا دارة كأنما كانوا يشعرون أن هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة ، وتجاوز جبال وادى الرملة^(١) ، وإذا صدقنا الرواية المريضة فان بمقوب المنصور عاد بطريق البلاط وترجالة^(٢) ، أعنى خلال استرامادوره إلى إشبيلية ؛ ولكن الرواية النصرانية تقول إنه عاد عن طريق إقليش ، وقونقة ، ومرسية إلى الأندلس . والظاهر أن جيش الموحدين انقسم إلى قسمين ، سلك أحدهما هذا الطريق ، وسلك الآخر ذاك . وقد استطاع بمقوب المنصور أن يعرف من تجارب هذه الحملة ، أنه أيسر عليه أن ينتصر في موقعة ، أو يتوغل في

(١) هي بالأفرنجية Guadarrama

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

أراضى العدو ، من أن ينتزع قلعة أحسن تحصينها ، وأنه أيسر عليه أن يفتح إسبانيا على يد النصارى أنفسهم . وكان ملكا نافارا وليون قد عقدا معه حلفا ؛ واعتقد ملك ليون أنه يستطيع بمعاونة المسلمين أن يقوم بفتوحات في قشتالة ؛ ولكن ألفونسو النبيل (ملك قشتالة) عاهد إلى مقاومة هذا السعى ففقد في سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) الهدنة مع الموحدين ، وذلك لكي يستطيع التغلب على عدوه ؛ ورحب المنصور بهذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية ، كانت تستدعى عودته إلى مراکش . كذلك عني المنصور بأن يضمن لولده السيد محمد أبى عبد الله ولاية عهد ؛ فلما انتهى من إخماد الفتن ورد السكينة إلى نصابها استطاع دون مشقة أن يحمل جميع الولاة والقادة على الاعتراف بولاية عهد الأمير محمد ؛ وأشرك ولده معه في الحكم من ذلك التاريخ ، وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين . ولم يمض على ذلك قليل حتى مرض المنصور ، وتوفي بقصره في مراکش في الأربعين من عمره وذلك في الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٩٩) بعد أن حكم خمسة عشر عاماً^(١) .

وكان يعقوب المنصور من أعظم ملوك الموحدين وأبرعهم وأرفعهم خللا ؛ وقد سما بصولة الموحدين إلى ذروتها ؛ ولم يشد أمير من أمراته مثل ما شاد من المساجد والأبنية الفخمة ؛ وكان رفيع الخلق ، قلما يعرف الثأر وكثيراً ما يؤثر الصفيح ، وهى فضيلة يندر وجودها فى النفوس المغربية الجائشة . وكان كثير الحب للعلماء يثيب عليهم وفضلهم بأكرم ما يهب الملوك . وكان يبدى فى اختيار وزرائه ذكاء وبعد نظر ، وينتخب أكفأ الأشخاص لجميع فروع الإدارة . وكان على صلات وثيقة مع معظم ملوك المسلمين فى عصره ؛ وقد أرسل السلطان الكبير صلاح الدين ، الذى استرد بيت المقدس من الصليبيين ، إليه رسوله ، ليعقد معه

(١) ينقل ابن خلكان رواية غريبة عن مصير يعقوب المنصور خلاصتها أنه تنازل فى أواخر حياته عن الملك ، وترهد وساح فى الأرض ومات بالشرق مستخفاً خائلاً ، وأنه كان فى عصر ابن خلكان بموضع قريب من بلدة المجدل بالشام قبر تعرفه الناس بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب (ج ٢ ص ٢٣١) .

حلفا ضد ملوك أوروبا ، الذين كانوا يهددون المشرق يومئذ بحروبهم . ولكن صلاح الدين لم يلقب سلطان الموحدين في خطابه بأمير المؤمنين ، ولهذا لم تتم المحابقة وإن كان الرسول قد استقبل بأكرام وحفاوة^(١) ووصله سلطان الموحدين من أجل قصيدة صغيرة من أربعين بيتاً نظمها في مديحه بهبة قدرها أربعون ألف دينار ، هي كما قال النصور رمز التقدير لملئه وبراعته في التنظيم .

(١) هذه رواية ابن خلكان ؛ والرسول المشار إليه هنا هو طيقا لهذه الرواية ؛ شمس الدولة أبو الحرث بن عبد الرحمن بن نجم الدولة (راجع ج ٢ ص ٤٣٢) .

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين
وازدیاد تفوق قشتالة وأراجون
في النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول

حال اسبانيا بعد موقعة الأرك

حتى موقعة تولوزا أو موقعة العقاب

على أثر هزيمة « الأرك » تخرج مركز النصارى فى شبه الجزيرة ، واشتد الخطر عليهم بصورة لم يعرفوها منذ بعيد ؛ ولم يكفهم أن أعداء الصليب ضربوا معسكرهم أمام عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولكن الحصومات والحروب الطاحنة كانت تمزق الملوك النصارى ، وتحول دون كل اتحاد لمواجهة الخطر المشترك ، ولم ينقذ اسبانيا النصرانية يومئذ من الهلاك سوى إسراع زعيم الموحدين يعقوب المنصور بالعود إلى الغرب ، ثم موته الفجائى ، الذى قضى على خطط الموحدين الكبرى فى الفتح .

وكان من المحقق يومئذ أن شبه الجزيرة ستندسوى كلها تحت ساطان الموحدين لو أن محمداً خليفة يعقوب ، مضى فى الحرب بمثل ما كان عليه أبوه من الذكاء والقوة والمقدرة على انتهاز الفرص . ذلك أن اسبانيا النصرانية لم تكن يومئذ سوى مزيج مضطرب من العناصر المتخاضعة . ولو أن أميراً فظناً من أمراء الموحدين ، سار على مبادئ السياسة التى اتبعت فيما بعد ، فى استغلال منازعات الملوك النصارى ، والتوسل بحالفة الضعفاء منهم إلى التدخل فى الشؤون الداخلية ، لاستطاع المسلمون أن يخضعوا اسبانيا كلها فى جيل واحد . ومن المرجح أن يعقوب المنصور ، وهو الذى استن هذه السياسة ، كان يوسمه أن

يحقق هذه النابة لو طال أمد حكمه ، وقد اتخذ بالفعل في هذه السبيل خطوات ناجحة ؛ وبالرغم مما بذله ألفونسو الثاني ملك أراجون ، والبابا سلسطان الثاني من مختلف الجهود للتوفيق بين الأمراء الأسبان ، وجمع كلهم ، فإن هذه الجهود لم تسفر عن نتيجة ؛ وكانت الحصومة على أشدها بين المسكين القرييين ، أعنى ملكي قشتالة وليون ؛ وكان ألفونسو النبيل ، المهزوم في موقعة الأرك ، ينسب هزيمته إلى تقاعد الجيش الليوني عن إمداده ، ولم يسمعه في أول لقاء وقع بينه وبين ابن عمه إلا أن ينحى عليه بأشد اللوم ؛ وترتب على ذلك أن قامت بينهما خصومات انتهت بالحرب الصراح ؛ وهكذا ، بينما كان الموحدون يشخفون بمجيئهم في جنوبي قشتالة ، إذ غزا حليفهم ملكا قشتالة وليون شمالي قشتالة ، واستوليا على بعض البقاع والأماكن التي لم تدعم حمايتها . وما كاد ألفونسو النبيل ملك قشتالة يتجوز من خطر المسلمين الداهم ، على أثر الهدنة التي عقدها مع يعقوب النصور ، حتى عقد مع ملك أراجون الجديد ، بيدرو الثاني حلفاً وثيقاً ، وشهر الحرب على ليون ونافارا في وقت واحد ؛ فارتفعت الملكتان لهذا الخطر الفجائي وحاولتا أن تحصلا على عون من الموحدين ؛ ومع أن البابا سلسطان ، أئذ بمقوبة « الحرمان » الديني ، كل أمير اسباني يتحالف مع أعداء النصرانية ، فإن سانشو ملك نافارا ، لم يجد سبيلاً غير هذا التحالف للدفاع عن مملكته ضد جاره القوى . وانقض ألفونسو ملك قشتالة بجميع قواته على ليون ؛ وكان ملكها قد استقدم لمعاونته قوة من المسلمين ، ليتمكن بمؤازرتها من أن يسير إلى قاب قشتالة . ولكن القشتاليين استطاعوا بمعاونة الأراجونيين أن يخترقوا ليون مرتين ، وعاثوا في أراضيها أيعما عيث ، فانتسفوا كل شيء في طريقهم حتى أنشرفوا على عاصمة ليون ؛ وكأنما أرادوا بذلك التخريب ، أن ينتقموا من جيرانهم النصارى ، لما يوقعه المسلمون من التخريب في قشتالة ؛ بيد أن أسوار ليون النيمة وقفت في وجههم سداً ووضعت حداً لتقدمهم ، ولكنهم انتسفوا ضاحيتها والحي السمي « بيرج اليهود » ؛ كذلك لم يستطع القشتاليون افتتاح استرقة ،

ولكنهم خربوا الأراضي المجاورة لها أيمًا تخريب .

ولما تأهبت قشتالة وأراجون معًا للقيام بغزوة جديدة ، تدخل الأخبار والفرسان ، لعقد الصلح بين قشتالة وليون ، حتى لا تبعد قوى اسبانيا جميعها في حروب أهلية . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون ، قد طلق في النهاية زوجته الأميرة البرتغالية تيريزا ، نزولاً على إرادة البابا (سنة ١١٩٥ م) ، بيد أنه لم يحسب كبير حساب لقرار الحرمان البابوي ، واعتزم مرة أخرى أن يتزوج من قريبته الأميرة القشتالية برنجاريا ابنة ألفونسو النبيل ، وذلك لكي يحقق لمملكته سلاماً دائماً ؛ وارتضى ملك قشتالة أن يقدم لابنته جميع الأماكن المتنازع عليها بين ليون وقشتالة ، والتي افتتحت في الحرب الأخيرة مهرراً لها ؛ وهكذا لاح أن يواضع الحصومة قد أزيلت لدى بيد ، وساد الوئام بين الأمرتين المالكيتين المرتبطتين بأواصر القربى ؛ ولم يعن يومئذ أحد بأمر البابا أو الحرمان الكنسي ، ووافق رجال الدين الأسبان على هذا الزواج ، لما فيه من تحقيق خير الملكتين النصرانيتين ، ونم الزواج في بلد الوليد في حفلات باذخة في سنة ١١٩٧ م .

ولما كان هذا الزواج قد تم دون الحصول على إذن البابا ، فقد أعلن سلسنتان الثالث بطلانه ؛ وأرسل إلى اسبانيا الكردينال جيدو دي سانت أنجلو ، مزوداً بأمر إلغائه ، وأن يقوم في حالة عدم الاذعان لأمر البابا ، بإصدار قرار التحريم ضد المالكين وضد أراضيها . ولكن ملك ليون كان يشفق جداً بزوجه وكان يؤيده رجال الدين والفرسان ، ولذا لم يعبأ بوعيد البابا ؛ أما ملك قشتالة الذي عقد الصلح مع ليون وسلم إليها الحصون المفتوحة رغم إرادته ، فقد صرح أنه على استعداد لاسترداد ابنته ، على أن يُرد معها مهرها .

ومع أنه كان من الواضح ، أن إلغاء هذا الزواج لا بد أن يترتب عليه اضطراب عظيم ، فإن إصرار ملك ليون على الاحتفاظ بزوجه الأميرة القشتالية ، لم يلبث أن أسفر عن صدور قرار الحرمان الكنسي ضد ملك ليون ومملكته . وضد أساقفة شلنقة وسمورة ، واسترقة وليون ، وضد مملكة ليون كلها ؛

وذلك حتى يقرر الملك انفصاله عن قرييته .

ولما تولى أنوسان الثالث كرسي البابوية بعد ذلك بقليل ، حاول مرة أخرى بالرسائل والرسول ، أن يحمل الملكين على الخضوع لأوامر الكنيسة ؛ فلما لم تثمر مساعيه ، ولما اضطر أسقف أوفيدو الذي أبدى طاعته للكرسي الرسولي أن يفر اجتناباً لنقمة الملك ، كرر البابا أنوسان قرار الحرمان على يد الراهب رينر ؛ ولم يجد الرسول الذي أرسله الملك إلى رومة — لشرح لأولى الأمر ما يترتب على إلغاء الزواج من المضار — من يصنى إليه .

فهل كان ثمة أدعى يومئذ إلى اضطراب اسبانيا من تلك الحال ؟ في كل آونة كانت جموع عديدة من المسلمين تنفذ إلى أراضي النصارى ، لأن الهدنة المعقودة انقضت أجلها ، وكانت قشتالة وليون اللتان اتحدتا في الظاهر ، تضطرم كل منهما نحو الأخرى بفضاً وحقدآ ، ولم تتفقا إلا على أمر واحد ، هو محاربة البرتغال ، بالرغم من المعاهدات المعقودة ، وإعداد جيوشهما للانقضاض عليها . وكانت ليون تعاني أشنع ضروب الاضطراب ، ذلك لأن الأحزاب حتى الذين يناصرون البابا منهم ، كانوا يشكون من أن قرار الحرمان لا يترتب عليه سوى بث الكفر والردة ، وأنه متى أبطلت الشعار والوعظ ، خبت حماسة الشعب ضد المسلمين ، وأن رجال الدين يفقدون مكانتهم ، إذا لم يزاولوا مهمتهم في خدمة الدين ، واستنزال البركات على الناس . أما في أراجون فقد كان الملك بيدرو الثاني في حرب مستمرة مع الأمراء النابيين له ، وكان هؤلاء يحارب بعضهم بعضاً ؛ وأذكى هذه الفوضى ، ما عمد إليه سانشو السابع ملك نافارا من عقد الحلف الصريح مع الموحدين بالرغم من نهى البابا ووعيده ، ذلك لأنه رأى في هذا التحالف سيئله الوحيدة للتبكين من مقاومة ملكي قشتالة وأراجون المتحدين ضده ؛ بيد أنه ما كاد يذاع أمر هذا التحالف ، حتى رأى الملكان الخصمان من حقهما أن يفزوا نافارا ، وأن يفتسا أراضيها فيما بينهما .

وكان سانشو السابع مذولى العرش في سنة ١١٩٤ م يفكر في التحالف

مع الموحدين ليقاوم تفوق جاره المطرد . وكانت نافارا لا تزال يومئذ تملك ولايات البشكنس ؛ ولكنها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لضخامة قشتالة وأراجون ، وما يملكان من الأراضي المجاورة ؛ ولم يوفق سانشو السادس إلى رد جاريه القويين عن غزو مملكته إلا نظراً لطبيعة أراضيه التي تتخللها جبال وعرة ومفاوز ضيقة ، ونظراً لتعلق الشعب النافاري بأسرته الملكية ؛ فإذا طرحت الاعتبارات الدينية جانباً فقد كانت مبادئ السياسة الحكيمة تولى بأن الحلف بين الموحدين والنافاريين أمر طبيعي .

وكان سانشو ملك نافارا قد بدأ — عقب موقعة الأرك — عدوانه ضد قشتالة ، وتحالف مع ملك ليون على محاربة ألفونسو النبيل ؛ ومن المرجح أن الموحدين هم الذين دفعوا النافاريين يومئذ إلى القيام بهذا العدوان ضد قشتالة ؛ ولقد حاول ملك قشتالة — في لقاء وقع بينه وبين الملك سانشو في طركونة وشهده ملك أراجون — أن يقنعه بوجوب التعاون فيما بينهما على محاربة أعداء النصرانية ، وأن يحمله على الوقوف معه ضد ليون . ولكن لاح يومئذ لملك نافارا أن الظروف سانحة ليعمل على سحق تفوق جاره ، وكانت عروض الموحدين مغرية ، فلم يحجم عن التحالف معهم ، ولم يحفل ببواعث الدين أو الشرف ، أو يعبأ بوعيد البابا أنوسان الثالث .

وبينما كانت قشتالة تتلقى هجمات الموحدين والليونيين في نفس الوقت ، وبينما كانت أراجون في عهد ملكها الفتي بيدرو الثاني الذي خلف ألفونسو الثاني يمزقها الحلاف ، وتطاول الأسراء الأقوياء التابعين للعرش ، كان ملك نافارا يؤمل أن يمدو سيد اسبانيا النصرانية بمعاونة الموحدين . وكان يعقوب النصور الظاهر في موقعة الأرك قد وعده بأن يزوجه ابنته ، وأن يحمل مهرها الأراضي النصرانية ، بل كانت الأندلس فوق ذلك مطمح أنظاره ؛ نعم كان على سانشو أن يتمتر بسيادة سلطان الموحدين ، ولكن كان من حقه أن يزاول سلطته الملوكية دون منازع في الأراضي التي يحكمها . أما كون المنصور

قد اشترط على سانشو في هذه المعاهدة أن يمتنع الإسلام فسالة لا يمكن القطع بصحتها^(١).

وأراد سانشو أن يخفى خططه وألا يفضحها قبل الأوان ، فأرسل أسقف بنبولنه إلى رومة ، ليؤكد للبابا سلسلتان الثالث أنه أبعد ما يكون عن فكرة التحالف مع المسلمين ؛ وهذا في الوقت الذي أعيد فيه كل شيء لعقد هذا التحالف مع الموحدين . وما كاد أسقف بنبولنه يمود من رومة ، وتهدأ الاشاعات المتعلقة بالتحالف مع المسلمين ، حتى عهد سانشو بحكم المملكة إلى بعض الأكارب الأكفاء وعهد بالدفاع عن حصونه المشحونة باليرة إلى أقدر وأخلص القوامس ؛ وسار في قوة كبيرة من الفرسان إلى زيارة سلطان الموحدين لكي يتم المفاوضات معه ، ويمقد قرانه على ابنة يعقوب المنصور .

ولما كانت الروايات الأسبانية النصرانية ، تلزم الصمت إزاء هذا التحول من جانب ملك نافارا إلى أعداء دينه ، وذلك فيما عدا ردرريك الطليطلى الذي يشير إليها في عبارة موجزة ، فليس أمامنا سوى الاعتماد على الروايات العربية ، وزاوية روجر دى هوفدن الانكليزية ، وكلتاها تناقض الأخرى في جميع تفاصيلها . ومن الواضح أن الروايات العربية تخلط بين سفارة يوحنا ملك إنكلترا^(٢) إلى سلطان الموحدين محمد ولد يعقوب المنصور وخلفه ، وبين رحلة سانشو ملك نافارا . إذ تضع تاريخ هذه الرحلة في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) . وذلك حينما قدم أمير المؤمنين من المغرب إلى إشبيلية ليتابع الحرب في اسبانيا . كذلك تشير الرواية

(١) هذا ما تقوله الروايات النصرانية دون غيرها ؛ ولم نجد لهذه الرواية أثراً في المصادر الإسلامية ، وقد يكون المنصور ارتضى أن يعقد حلفاً مع ملك نافارا ، ولكننا نشك كل الشك في كونه ارتضى أن يزوجه ابنته ، خصوصاً لما هو مأثور عن الموحدين من شدة التمسك بالعقيدة ، وعدم التسامح ، وفي حالة واحدة فقط يمكن أن تتصور صحة هذه الرواية ، وهو أن اعتناق ملك نافارا للإسلام كان شرطاً لزوجها من أميرة موحدية .

(٢) يوحنا John ملك إنكلترا المشار إليه هنا هو أصغر أبناء هنري الثاني ، حكم بعد موت أخيه ريتشارد الملقب بقلب الأسد من سنة ١١٩٩ إلى سنة ١٢١٦ م . ولم نجد في سيرته ما يفيد أنه أوفد سفارة إلى ملك الموحدين .

العربية إلى سانشو فقط باسم ملك بيوتة . ولكن من الواضح أن القصة التي يوردها المؤرخون المسلمون ، تدل في مجموعها على أنها تتعلق بسانشو السابع ملك نافارا . وتصف الرواية العربية رحلة سانشو إلى بلاط سلطان الموحدين على النحو الآتي : « ما كاد ملك بيوتة يسمع بمقدم أمير المؤمنين إلى إشبيلية حتى أرسل يستأذنه في زيارته فأذن له . وقد استقبل الأمين مع زوجته ، ووزرائه وحشمه ، وحاشيته العديدة ، أينما حل على طول الطريق من حدود النصراري حتى قرمونة ، بمنتهى الإكرام ؛ وفي قرمونة احتجز منه ألف فارس ، ولم يترك له سوى ألف أخرى كحاشية له . وأمر سلطان الموحدين فاصطف الجند صفان من قرمونة إلى إشبيلية ، وهم في أحسن الثياب ، وقد رفعوا حراهم وسيوفهم ، وصر من بينها ملك نافارا ؛ واستقبله أمير المؤمنين عند باب إشبيلية في خيمة نخمة ؛ ورأى محمد لكي يجمع بين المجاملة وبين الاحتفاظ بعزته ، أن يرتب دخوله إلى الخيمة من جانب ، في نفس الوقت الذي يدخلها فيه ملك النصراري من الجانب الآخر ؛ وقاد المسكين إلى الأريكة مما شيخ من أشياخ الأندلس يعرف الأسبانية ؛ وبعد المحادثة الأولى التي تولى فيها الرعيم الأندلسي الترجمة ، سار محمد إلى إشبيلية على رأس حرسه في موكب نفخ ؛ وقدم الملك النصراني هدية إلى سلطان الموحدين ، هي مصحف قديم يتوارثه آباؤه ، وكان موضوعاً في صندوق من الذهب مضمخ بالمسك ، وغطاؤه من حرير أخضر ، مرصع بالذهب ، والأحجار الكريمة من الزمرد والياقوت وغيرها . وبعد أن استبقى محمد ضيفه مدى حين في إشبيلية معززاً مكرماً ، وغمره بمجزيل التحف ، عاد أخيراً إلى أراضيه » .

والروايات النصرانية عن رحلة سانشو أقل تفصيلاً ، ولكنها أقرب إلى الحقيقة . وقد قام بها سانشو عقب وقوفه على موت المنصور ، في جماعة كبيرة من الفرسان ، وكان ذلك في أواخر سنة ١١٩٨ أو أوائل سنة ١١٩٩ م . وهذا ما تؤيده جميع الوقائع والظروف الأخرى . ولم ير سانشو في موت صديقه المنصور ما يحمله على الإحجام عن القيام بهذه الرحلة البعيدة ؛ وقد تخلف مدى حين في

الأندلس ، في انتظار عودة الرسل الذين أوفدهم إلى محمد خليفة المنصور ؛ فلما عاد أولئك ، وأبلغوه أن محمداً يكن نحوه من عواطف الصداقة مثل ما كان أبوه ، اعترم أن يتابع الرحلة إلى مراکش ، إلى بلاط سلطان الموحدين . فاستقبله محمد بأجل حفاوة ، ووافق على زواج أخته ملك نافارا ، ولكنه لم يشأ بحكما في مسألة التنازل عن أملاكه الإسبانية إليه ؛ فلم ير سانشو أن يجعل بمسألة الزواج ، ولكنه قبل أن يشترك مع فرسانه في معاونة الموحدين على إخماد فتنة قامت يومئذ في جبال غمارة ، وأبدى شجاعة عظيمة^(١) .

وبينما كان سانشو مقيما في بلاط سلطان الموحدين ، مؤملا أن يقدو بمعاونته ملكا على جميع اسبانيا ، إذا به يفقد معظم أملاكه الصغيرة . ذلك أن ألفونسو النبيل ، وحليفه بيدرو ملك أراجون ما كادا يملكان بسفر سانشو إلى بلاط الموحدين ، حتى قررا أنهما في حل من جميع المعاهدات السابقة التي عقدها مع نافارا بحجة أن ملكها قد تحالف مع أعداء اسبانيا التاريخيين ؛ ثم زحفا على نافارا بجيشهما المشترك (سنة ١١٩٩ م) ، ليقسماها فيما بينهما ؛ بيد أنهما أقيا في هذا السبيل صعبا لم يتوقعاها . فقد دافعت الحصون الشحونة بالميرة والسلاح دفاعاً قويا ، وبعد حصار طويل استطاع ألفونسو ، أن يفتتح حصن فكتوريا ، وأن يسترد

(١) لم تفسر الرواية العربية إلى مقدم سانشو ملك نافارا إلى مراکش وإقامته مدى حين في بلاط الموحدين . ولكنها تشير إلى وفوده على أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور ، وهو بالأندلس ؛ وتقول هذه الرواية ، إن الناصر لا عبر بجيوشه إلى الأندلس لافزو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ارتاع ملوك التصارى ، وكتب إليه عدة منهم بألونه المهادنة والسلام ، ووفد عليه منهم ملك بنبلونة (وبنبلونة هي عاصمة مملكة نافارا) مستلما طالبا للصلح ، ويقال إنه قدم إليه كتاب النبي (ص) الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم يستنقع به وقد كان يتوارثه آبائوه ، فاحتفل الناصر لقدمه ، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين ، وأجابه إلى جميع مطالبه (راجع الاستقصاء ج ١ من ١٩٣) . وذكر ابن خلدون أن الذي وفد على الناصر بالأندلس يومئذ هو «الببيوح» صاحب ليون (الفرنسوا التاسع؟) وأنه قدم عليه عام موقعة القباب (سنة ٦٠٧ هـ) فدخله وأظهر له النصيح فبذل له أموالا ثم غدر به (ج ٤ ص ١٨٣) أما الرواية التي أوردتها المؤلف تولا عن المصادر العربية فهي رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس وهو يشير إلى الملك الواند على الناصر بأنه ملك «بيونه» ويصف وفوده عليه في اشبيلية بأقانة (ص ١٥٥)

ولايات ألبه وبسكونيه ، وجويسكوا ، وهي التي كانت من قبل ملكا لقشتالة ؛ وقطع لأهلها عهداً بأن يترك لهم الاحتكام إلى شرائعهم وتقاليدهم ، اكتساباً لمحبتهم . وكان ملك أراجون أقل توفيقاً ، فلم يستطع أن يفتح إلا بضعة أَمَا كن صغيرة على الحدود ؛ ودافعت بنبالونه وغيرها من المدن الكبيرة أعظم دفاع ، ولقيت أعظم توفيق في رد جارها البفيض . وأخيراً عاد الملك سانشو إلى مملكته ، بعد أن أيقن أنه إذا كان يستطيع أن يحصل على أميرة موحدة زوجة له فإنه لا يستطيع الحصول بأى حال على حكم الأندلس والأملاك الإسلامية الأخرى في اسبانيا ، وقد قطع المفاوضة بعد أن تحقق خيبة السى ، وعاد إلى مملكته بعد أن غاب عنها عامين (سنة ١٢٠١ م) . ووصل في الوقت المناسب ليقود جنده المخلصين مرة أخرى للكفاح الشاق ضد الأعداء الأقوياء ، واستطاع بمعاونة الكونت دييجو لويز زعيم بسكونية الثائر ضد قشتالة أن يسترد معظم الأَمَا كن المفقودة ؛ ثم تدخل الأُخبار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة ثلاثة أعوام . ولكن الولايات البشكنسية بقيت في حوزة قشتالة . ولم يمض قليل على ذلك حتى أنشأ سانشو ، جماعة مسلحة لطاردة عصابات اللصوص التي كانت تميث في البلاد (سنة ١٢٠٤م) ، فكانت هذه الجماعة نواة لجمعية الأخوة المقدسة (الهيرمانداد) .

أما في ليون فقد لبث الاضطراب على شدته ، وانقسم الأُخبار إلى فريقين ، أحدهما يؤيد زواج الملك بالأميرة القشتالية برنجاريا ، والآخر وهو أقلهما يمارض في هذا الزواج ؛ وكان الملك يبدى في أعماله كثيراً من القوة والعنت ، فكل من وقف في سبيل حكومته ، سواء من رجال الدين ، أو الدنييين ، أمر بزجه إلى السجن ، إذا لم يبادر بالفرار اتقاء العقاب الدائم . ولعله لم يكن حب زوجه والتعلق بها هو الباعث الوحيد على تشده في هذه القضية ، بل هو بالأخص تفكيره في مصير أبنائه الذين رزق بهم من زوجه ، وكونهم إذا ألتى الزواج ، لا يعتبرون من الأولاد الشرعيين ، وما يتحتم عليه عندئذ من رد مهر برنجاريا ، وهو أمر

خطير بالنسبة لليون ، إذ يوجد بين الأراضى التى يطمين ردها ، عدد من الحصون القوية الواقعة على الحدود .

ولما أدرك البابا أنوسان الثالث ما يترتب على قراره الصارم ، من النتائج السيئة ، نزل على ملتصق ببعض الأبحار الليونيين ، وأمر بتخفيف القرار بحيث يسمح بإقامة الشعائر الدينية والكنسية ، على أنه يجب بالنسبة للملك وزوجه ابنة ملك قشتالة ، وجميع الكهنة الذين شملهم أمر الحرمان ، أن تغلق الكنائس ، وأن يصمت الأبحار . ومع ذلك فقد احتفل بتنصيب أول ولد جاء من هذا الزواج — وهو فرديناند الذى لقب فيما بعد بالمقدس — فى كنيسة ليون الكبرى فى احتفال باذخ ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وبعد أن أعقبه ابن وبنات أخر ، احتفل برلمان ليون (الكورتيس) بإعلان فرديناند الولد البكر وليا للعهد فى سنة ١٢٠٤ م . وبعد ذلك ارتضت برنجاريا الطلاق تحقيقا لسكينة الملكة وسلامها ، وتنازلت عن المطالبة برد المهر ، وعادت إلى أبيها فى قشتالة ؛ وعلى أثر ذلك ، أمر البابا بإلغاء قرار الحرمان بواسطة الأساقفة القشتاليين ، وأن يرفع الحظر عن ملكي ليون ، وأن يُعترف مع ذلك بشرعية الأولاد ، واستحقاقهم للميراث .

وما كاد السلام يتقدم مع البابا حتى اضطرت نيران الحرب على أشدها بين البيتين الملسكين اللذين تصافيا من قبل ، أعنى بين قشتالة وليون ، وذلك من جراء فسخ هذا الزواج ؛ وكان ملك قشتالة بصر على وجوب رد الأماكن التى وهبها لابنته مهراً لزواجها ، وكان البابا يؤيد هذا المطلب . على أن الأقوال وحدها لم تكن تكفى لتسوية هذا النزاع ، وكان الشعب منذ بعيد يتوقع جزأ اضطراب الخصومة بين الملكتين ، وكانت جمهرة المؤمنين ترى طائفة من الظواهر والأحداث المزعومة ، وتتخذها علامة على اقتراب زمن لا بد أن تسيل فيه الدماء ؛ وقد صحت نبوءتهم ؛ فان حرباً طاحنة دامت عدة أعوام خربت قشتالة وليون ؛ ولم تقلع جهود البابا فى تهدئة الخواطر المضطربة ، وردت اقتراحاته فى سبيل الصلح بازدياد ، إذ كان المفروض أنه هو السبب الوحيد فى إثارة هذا النزاع .

ولكنهم أصفوا إلى صوت السلام والوساطة حينما نظم الموحدون أهباتهم
الضخمة للاستفادة من هذا النزاع وإخضاع اسبانيا النصرانية ؛ وكان لابد من
عود التصارى إلى الاتحاد حتى لا تسقط اسبانيا غنيمة في يد المسلمين . وهنا فقط
عقد ملكا ليون وقشتالة الصلح ، وارتضى الفونسو ملك ليون أن يمطى زوجه
الملكة برنجاريا الأماكن المتنازع عليها ما دامت مقيمة لدى أبيها في قشتالة ،
ومكذا أنقذ ملك ليون على الأقل شرفه بهذا التصرف الشهم .

الفصل الثاني

موقعة ناقاس دى تولوزا

أو موقعة العقاب

لما توفى بمقوب المنصور ، ولى المرش ولده الذى اختاره من قبل لولاية عهده :
وكان محمد الملقب بأبى عبد الله الناصر لدين الله ، فى أطيب سنى عمره ، حينما خلف
أباه فى الحكم ؛ وكان حسن القامة ، نحيفاً ، أبيض ، أشمل العينين ، كئيف
الحاجبين ، طويل الأهداب ، كبير الأحية ؛ وكانت نظراته تشع ذكاء وتفكيراً^(١)
بيد أنه بالرغم من كفايته وثقافته لم يكن يحسن اختيار وزرائه وقادته ، فكان
كثيراً ما يهد بهم شؤون الدولة إلى رجال عاجزين ، يوليهم كل ثقته .

وقد اضطر فى بداية حكمه — مثل جميع أسلافه — أن يعمل على إخماد ثورات
عديدة نشبت أولاً فى جبال غمارة ؛ وما كادت تتمد حتى تلتها ثورات قام بها
خصوم ظن الموحدون أنهم سيقوم نهائياً . وكان هؤلاء هم المرابطين . وكانوا
بعد انهيارهم التام فى المغرب والأندلس ، قد لقوا فى الجزائر الشرقية (جزائر
البليار) ملاذاً أخيراً ، وأقاموا بها حكومة منهم ، ثم انضوا بعد ذلك تحت لواء
محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ، وأخيراً اعترفوا مختارين بحكم الموحدين
وذلك منذ سنة ١١٧٢ م (٥٦٧ هـ) بيد أنهم عملوا فى الخفاء على استدعاء أنصارهم
تباعاً إلى ميورقة . ولما شغل محمد الناصر بإخماد ثورة نشبت بالقرب من قاس ،

(١) روض القرطاس ص ١٥٣ والمراكشى ص ١٧٥ .

رأى الرابطون الفرصة سانحة ليجربوا طالهم في الحرب مرة أخرى ، وحاولوا أن يجذبوا البربر إلى جانبهم ، وسرعان ما يسأم البربر كل حكم . ونهض الرابطون بزعامه يحيى بن إسحاق الميورقي ، وهو من عقب يوسف بن تاشفين ، وساروا في السفن من ميورقة إلى إفريقية واستولوا على عدة مدن في أحواز قرطاجنة القديمة (تونس) ، وهرعت إلى جانبهم جموع كبيرة من البربر ، واضطر محمد الناصر أن يحدد جميع قواته ليحول دون تقدم الثوار ؛ ذلك أن زعيم الثوار كان قائداً عظيماً وافر الخبرة بفنون الحرب . يبيد أن المرابطين لم يوقفوا مع ذلك إلى استرداد سلطانهم ، وكان نجمهم قد أفل نهائياً ؛ وكانت ثورتهم آخر مجهود لحزب نهض للمرة الأخيرة ، ثم انهار بعد هزائمه المتوالية لكي لا ينهض بعد ؛ وألقى المرابطون ملاذاً أخيراً في أسوار المهديّة ، الواقعة على الشاطئ تجاه صقلية ، ولكن المدينة اضطرت — بالرغم من مناعتها وبسالة يحيى بن إسحاق في الدفاع عنها — أن تدعن أمام هجمات الموحدين العتيقة ، وقد سلطوا عليها من آلات الحصار والنجنيقات ما لم ير من قبل ضخامة وإحكامها ، وأخذوا يرمونها كل يوم بمئات من الأحجار الكبيرة والكرات الحديدية ، ويدكون بذلك أسوارها دكا . وعفا محمد الناصر عن أهل المدينة وعن يحيى الميورقي عفو الكرام ، بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع وسلموا إليه المدينة ، وذلك في سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٥ م) (١) ..

ولكن تسامح سلطان الموحدين لم يكن له من أثر إلا أن يشجع المرابطين على الثورة من جديد ، فلم تمض ثلاثة أعوام حتى تزعم يحيى بن إسحاق جموع الثوار مرة أخرى ، وقد قويت بانضمام عدد كبير من الناقين من قبيلة زناتة إليها . ولكن المرابطين هزموا للمرة الثانية في موقعة دموية ، وكاد أن يسحق جيشهم عن آخره ، وفر يحيى ناجياً بنفسه . ورأى الناصر أن يعمل على استئصال شأفة هذا الحزب نهائياً ، فأمر بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، حيث كان عبد الله أخو يحيى بن إسحاق يتولى الحكم . ونزلت قوات الموحدين في الجزيرة

بالرغم من مقاومة الرابطين العنيفة ، وحاصرت عاصمة الجزيرة واستولت عليها
عنوة ، وأمر عبد الله واحتز رأسه ، وأرسل محنطا إلى مراكش ، وعلقت جثته
على بعض جدران المدينة . ولم تبد الجزيرتان الصغيرتان منورقة وبابسة أية معارضة ،
بل خضعتا للفاطميين (سنة ٦٠٤ هـ - ١٢٠٨ م) . وهكذا انهارت الانقراض
الآخيرة لسيادة الرابطين .

وعندئذ فقط استطاع سلطان الموحدين أن يوجه عنايته إلى شبه الجزيرة
الأسبانية لكي يرفع فيها راية الإسلام على النصرانية ؛ وبعد أن أقام في مختلف
المدن المغربية أبنية عظيمة نغمة يخلد بها ذكره ، اعترم أن يبرز مجد أسلافه بأعمال
الحرب الضخمة في شبه الجزيرة .

ولم يكن القشتاليون الظمأى إلى الحرب يستطيعون البقاء دون حرب ؛ فبعد
أن قاموا بمعاونة الفرنسيين على محاربة الإنجليز في « جويان » ، في حرب قليلة
الأهمية (سنة ١٢٠٤م) ، وبعد أن عقدوا الصلح مع جيرانهم النصارى ، ولا سيما
بتدخل البابا ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو النبيل يتأهب لمحاربة المسلمين بكل ماله
من قوى ، وكانوا قد ركنوا إلى السكينة منذ وفاة يعقوب النصور .

وبعد أن حصن ألفونسو قلعة « مورا » الواقعة على الحدود تحصيلنا قويا
(سنة ١٢٠٩م) سار في جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى الأندلس ،
فانتسف الحقول ، ونهب القرى ، وقتل السكان ، وسبي منهم جموعا كبيرة . ثم
عاد إلى قشتالة ، ولقي ملكي نافارا وأراجون ، ووثق معهما عهد الصلح ، وحصل
منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة العدو المشترك ، واعترم
بعد ذلك أن يعمل لمحو وصمة هزيمة الأرك بإحراز نصر باهر على الموحدين . وفي
العام التالي سار مرة أخرى إلى الأندلس ، وخرب أراضي جيال وبياسة
واندوجار ، ووصل إلى أحواز مرسية ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالفنائم .

ولما وقف محمد الناصر على اعتداء النصارى المتكرر على الأندلس ، أعلن
الجهاد ، مؤملا أن يستطيع بواسطة القوات الضخمة التي يرسلها من المغرب إلى

اسبانيا أن يسحق الممالك النصرانية بلا مرء ؛ وحشدت في جنوبي الجزيرة خمسة جيوش ضخمة ، يتكون أولها من القبائل البربرية ، والثاني من الجنود المغربية ، والثالث من الجنود الأندلسية ، والرابع من الجنود الموحدية أو الجنود النظامية التي تمسند وفقاً لنظام عسكري معين ؛ ويتكون الخامس من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة وبضم وحده مائة وستين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة . وإذا لم يكن في وسعنا أن نأخذ بالتقديرات المفرقة التي تقدمها الرواية العربية — إذ هي تقدم إلينا أرقاماً تخرج عن طور المعقول — فإنه من الممكن أن يقدر الجيش الذي حشده محمد الناصر لمحاربة اسبانيا النصرانية بنحو نصف مليون مقاتل^(١) . وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧ (أوائل مايو سنة ١٢١١) جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ونزل في جزيرة طريف ، ثم غادرها بعد أيام قلائل إلى إشبيلية .

ولكن محمد ارتكب خطأ فادحاً إذ أرسل خيرة جنده إلى حصن سربطره^(٢) الجبلي المنيع ، وأنهك بذلك قوامه ؛ ولبت الجيش أمن هذا الحصن ثمانية أشهر ، وهو ممتنع عليه . وأصر محمد نزولاً على نصيح حاجبه أبي سعيد بن جامع — وكان الموحدون يتكفون في صدق نيأته ، ولكن محمدأ يضع فيه كل ثقته — على ألا يتقدم قبل الاستيلاء على الحصن . وهكذا استمر الحصار طول الصيف حتى دخل الشتاء ؛ وعانى المغاربة في هذه الجبال الوعرة من قسوة الطقس ما لا يحصى ، وأودى المرض بحياة آلاف منهم ، وأخذت وسائل تموين هذا الجيش الضخم تصعب يوماً فيوماً . وأرسل ألفونسو ملك قشتالة ولده فرديناند على رأس جيش نفذ إلى ولاية استرامادوره محاولاً أن يرغم الموحدين على رفع الحصار ، ولكن هذه المحاولة لم تغلج ، ونجح الملك بفقد ولده الذي أودت بصحته وحيأته مشاق الحرب ؛ وقيل في بعض الروايات إنه توفي مسموماً بيد يهود مجربط . وسقطت قلعة سربطره أخيراً بفعل الجوع في يد الموحدين ، ولكن مقاومتها

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

(٢) سربطره أو سربطره كما في ابن خلدون ج ٦ (ص ٢٤٩) وبالأفرنجية Salvatierra .

الطويلة الباسلة كانت سبباً في إنقاذ اسبانيا النصرانية^(١) .

وكان ملك قشتالة قد أرسل جرهارد أسقف سقوية إلى البابا أنوسان الثالث ليرجوه أن يرسل الصيحة إلى أمم أوروبا النصرانية ، لكي تنظم حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس ؛ وأرسل ردرريك مطران طليطلة (ردريك الطليطلي) — وهو المؤرخ الشهير الذي دون تاريخ وطنه — وعدة آخر من الأخبار ، إلى فرنسا وإلى الأمم الواقعة في شرقها ، ليثيروا بذلائقهم حماسة الشعوب النصرانية من البرنيه إلى البحر الأسود ، لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس .

وفي الوقت الذي كان فيه البابا ومطران طليطلة يميلان للحصول على معاونة أوروبا النصرانية ضد المسلمين ، كان ألفونسو النبيل يعمل لجمع كلك الملوك الأسبان ضد الموحدين ؛ ودعا في سبيل هذه الغاية إلى مؤتمر عقد في قوتقه ، ولم يشهده — إلى جانب ألفونسو — سوى بيدرو الثاني ملك أراجون ، ولكن شهده مندوبون من قبل باقي الملوك النصارى ، ووعدوا بتقديم العون من جند ومال . وهكذا انقضى عام ١٢١١ م في القيام بأهبات عظيمة لمتابعة الحرب ؛ وقبل انتهاء الشتاء اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتالة التي اتخذت مكاناً لاجتماع الجند قوات عظيمة ؛ وفي أوائل العام عاد المطران ردرريك ومعه جمع غفير من الفرنسيين ؛ وتلا ذلك أن اجتمعت وفود مدن اسبانية كثيرة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وأساقفة فرسان قلعة رباح ، وشفنت ياقب ، والاستبتارية والداوية ، ورؤساءهم وإخوانهم المحاربون ؛ واجتمع القوامس والفرسان القشتاليون إلى الملك ألفونسو النبيل في أكمل هيئة وسلاح ، لإظهار ألكانتهم وإرهاها لمدوم ؛ وكان القوامس من أسرة لارا يمتازون بالشجاعة والفروسية والغنى ؛ ويمتاز الكونت ديجو لوبيز ، ولوبي دياز دى هارو بالفطنة والبراعة في القتال ؛ وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميز راميريز ، وفرسان شفنت ياقب بيدرو آرياس ؛ ويرأس الاستبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد ؛ وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن

(١) راجع في حوادث هذا الحصار روض القرطاس من ١٥٦ و ١٥٧ .

المختلفة ، وقد تولوا الاتفاق على حشدهم ؛ وأرسلت المجالس البلدية رجالها الصالحين للقتال مجهزين بالخيول والسلاح ، وأحمال المؤن ، ليستطيعوا إمداد المحتاجين من فاضل طعامهم .

ومع أنه وفدت على اسبانيا جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصليبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين عدا ؛ وقدم جيوم أسقف بوردو ، وأسقف نانت وغيرهما من الأعيان الفرنسيين في جماعة بأسلة من الفرسان ، وجيش كبير من المشاة من ولايات جويان ولیموج وسانتونيخ وبري وبواتو وأنجو وبريتانيا ؛ وقاد أرنولد مطران أربونة خصم الألبين العنيد^(١) جيشاً من لانبجوك وبروقانس وبرجونية ، يضطرم شغفاً للقاء المسلمين . ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعتة ملك نافارا — بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة — أولاً على أن يؤيد قضية اسبانيا بالمال والجند ، ثم بالأخص على التمهيد بأن يسير في فرسانه ، وأن يشترك بنفسه في القتال .

وفي شهر مايو ، اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمساعدة اسبانيا ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان وحلة الحراب ، وخسين ألفاً من المشاة ، أو بمباراة أخرى اجتمع من هؤلاء جيش يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل . وكانت في الطريق قوات أخرى لم تصل إلا فيما بعد . وفي أول يونيه ، في يوم عيد الثلاث ، قدم بيدرو الثاني ملك أراجون في جيشه الضخم ، واستقبله ملك قشتالة بمنتهى الحفاوة ؛ وكان يصحبه في هذه الحملة معظم الأمراء التابعين ومشايخ الفرسان ، وطائفة كبيرة من فرسان الداوية ، وقد كانت لهم في أراجون أملاك شاسعة . وأخيراً قدمت الأمداد من ليون وجليقية والبرتغال ؛ وكانت القوات البرتغالية تتألف من

(١) الألبين Albigences هم فرقة من الملاحدة ظهرت في جنوبي فرنسا في أوائل القرن الحادي عشر ، واتخذوا مدينة « الي » مركزهم ومنها اشتقوا اسمهم ، وشبهوا على الكثرة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة . واستمروا يبنون عقائد الإلهادية حتى نظم سيمون دي مونتفور في أوائل القرن الثاني عشر عليهم حرباً صليبية ، أنهت بتزيق شملهم .

عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين يقودهم أمير يرتفالى هو بيدرو ثالث أبناء الملك سانشو الأول ؛ وكانت القوات الليونية بقيادة سانشو فرنانديز أخى ملك ليون ؛ ولم يحضر ملك ليون بنفسه إذ قامت بينه وبين ملك قشتالة خصومة جديدة من أجل بعض أماكُن على الحدود . أما ملك نافارا فلم يكن استكمل أحبته بعد ، وكان قدومه منتظراً .

وكانت طليطلة وأحوازها تقدم يومئذ منظرأ يفيض حركة وحياة ، وكانت جموع المحاربين من الكثرة بحيث تمذر أن تضمهم المدينة جميعاً ، واضطرت ألوف كثيرة منهم أن تقيم فى الخيام خارج المدينة ، فى الحدائق الملكية والحقول ، وكانوا مزيجاً من الأزياء والسلاح ، والعبادات واللغات . وكان من الصعب أن يسود النظام والسلام بين هاته الشعوب المتباينة . وكان ملك قشتالة قد أعد كيأت عظيمة من المؤن ، بحيث أمكن بالرغم من كثرة الجموع أن تمون كلها دون نقص ، وقدم الملك ألفونسو إلى جموع الوافدين الخيام والأطعمة ، والخيل ، وكل ما يحتاج إليه ؛ ومع ذلك فإنها لم تحجم عن قطف ثمار أشجار الفاكهة فى أحواز المدينة وإنلافها ، وقطع أخشاب السكروم والأشجار لحرقتها واستعمالها فى إنضاج الطعام . واقتربت بهذه القوضى التى سادت جميع الوافدين أموراً خطر ؛ من ذلك أنها بدأت فى مطاردة يهود طليطلة ، وبذل ألفونسو مجهوداً عنيفاً لكي يحول دون قتلهم جملة ، ومع ذلك فقد قتل كثيرون منهم فى بداية هذا الانفجار .

وليس أدل على الأهمية التى كان يملقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، من اشتراك الجموع فيها بصورة فعلية ، وكون آلاف منهم كانوا يتقلدون الصليب ؛ كذلك لا ريب فى أن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن أرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا . وكان ذلك مما مكن الملك ألفونسو النبيل من أن يعد جيش الوافدين الذى بلغ فى أوائل يونيه سنة ١٢١٢ م أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من المشاة ، فضلاً عن المؤن ، برواتب مالية ، قدرها عشرون شلناً للفراس ، وخمسة شلنات لكل محارب من المشاة ،

هَذَا عِدا مَا كَانَ يُقَدِّمُهُ مِنَ الْهَدَايَا النَّفِيسَةِ إِلَى الْقَادَةِ وَالرَّعْمَاءِ .

وَفِي رُومَةٍ أَمَرَ الْبَابَا أَنْوَسَانُ الثَّالِثَ بِالصُّومِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَالْأَكْتِفَاءِ بِالْخُبْزِ وَالْمَاءِ
الْتِمَاسًا لِاتِّصَارِ الْجِيُوشِ النَّصْرَانِيَّةِ ؛ وَأُقِيمَتِ الصَّلَوَاتُ الْعَامَّةُ ، وَعَمِدَ رِجَالُ الدِّينِ
وَالرَّهْبَانُ وَالرَّاهِبَاتُ إِلَى ارْتِدَاءِ السَّوَادِ وَالسَّيْرِ حَقَاةً ، وَسَارَتِ الْمَوَاكِبُ فِي
الطَّرَاقَاتِ خَاشِعَةً مَتَمَهِّلَةً مِنْ كَنِيسَةٍ إِلَى أُخْرَى . وَأَتَى الْبَابَا نَفْسَهُ مَوْعِظَةً صَلِيبِيَّةً ،
طَلَبَ فِيهَا إِلَى النَّصَارَى أَنْ يَضْرَعُوا إِلَى اللَّهِ التَّمَسُّا لِنَصْرِ الْإِسْبَانِيِّينَ .

وَلَمَّا غَصَّتْ طَلِيلُطَةُ وَأَحْوَازُهَا بِمَجْمُوعِ الْحَارِبِينَ ، وَاسْتَرَا حَوْامِنْ وَعَثَاءُ السَّفَرِ ،
تَأَهَّبَ الْجَيْشُ النَّصْرَانِيُّ لِلْسَّيْرِ إِلَى لِقَاءِ الْمَدُونِ فِي ٢٠ يُونِيَّةِ سَنَةِ ١٢١٢ م وَنَظَّمَتِ
الْقَوَاتُ فِي ثَلَاثَةِ جِيُوشٍ ، حَتَّى لَا يَصَابَ الْجُنْدُ أَثْنَاءَ السَّيْرِ بِنَقْصٍ فِي الْمَوْنِ ؛ وَسَارَ
فِي الطَّلِيمَةِ جَيْشُ الْوَاقِدِينَ ، وَقَدْ قُدِّرَتْهُ بِمَضَى الرِّوَايَاتِ بِسِتِينَ أَلْفَ مُحَارِبٍ عَلَى
الْأَقْلَ ، وَقُدِّرَهُ الْبِمَضَى الْآخِرُ بِمِائَةِ أَلْفٍ ؛ وَكَانَ تَحْتَ إِمْرَةِ الْقَائِدِ الْقَشْتَالِيِّ دِيْمُجُو
لُوبِزْدِي هَارُو ، وَيَقُودُ وَحْدَاتَهُ الْمُخْتَلِفَةَ مَطْرَانُ أَرْبُونَةِ وَمَطْرَانُ بُورْدُو ، وَأَسْقَفُ
نَانْتِ ، وَعَدُوٌّ مِنَ الْقَوَاسِمِ مِنْ غَرْبِ فَرَنْسَا وَجَنُوبِهَا . وَكَانَ يَقُودُ الْجَيْشَ الثَّانِيَّ
الْمَلِكُ بِيْدُورُ الثَّانِي ، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ فَقَطْ مِنَ الْأَرْجُونِيِّينَ وَالْقَطْلُونِيِّينَ ، وَفَرَسَانُ
الدَّوَايَةِ . أَمَّا الْجَيْشُ الثَّلَاثُ وَهُوَ أَضْخَمُ الْجِيُوشِ الثَّلَاثَةِ ، وَيَتَأَلَّفُ مِنْ جُنُودِ
قَشْتَالَةِ وَلِيُونِ وَالْبَرْتَغَالِ ، وَفَرَسَانِ قَلْعَةِ رِبَاحِ وَشَنْتِ يَاقِبِ وَالْإِسْبَانِيَّةِ ، فَكَانَ
يَقُودُهُ مَلِكُ قَشْتَالَةِ ، وَيَقُودُ وَحْدَاتَهُ كَبِيرُ أَسَانْدَةِ جَمْعِيَّاتِ الْفَرَسَانِ ، وَالْأَمِيرُ اللَّيُونِيُّ
سَانْشُو فَرَنْدِيزْ ، وَالْأَمِيرُ الْبَرْتَغَالِيُّ بِيْدُرُو ، وَرَدْرِيكُ مَطْرَانُ طَلِيلُطَةِ ، وَخَمْسَةُ
أَسَاقِفَةٍ أُخَرَ . وَتَقْدَّرُ الرِّوَايَةُ عِدَدَ الْفَرَسَانِ فِي هَذَا الْجَيْشِ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ، وَلَكِنَّمَا
لَمْ نَحْدِثْنَا عَنْ عِدَدِ الشَّاةِ .

وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ بَدْءِ السَّيْرِ مِنْ طَلِيلُطَةِ ، فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ يُونِيَّةِ
هَاجَمَ الْحَارِبُونَ الْوَاقِدُونَ حَصْنَ مَجْلُونٍ وَقَتَلُوا جَمِيعَ مَنْ فِيهِ ؛ وَلَكِنِ الْمَوْنُ أَخَذَتْ
فِي النِّقْصِ . وَأَخَذَتْ حَرَارَةُ الْجَوِّ تَرْهَقُهُمْ ، فَبَدَأَ كَأَنَّ حَاسَتَهُمْ خَبَتْ عَلَى أَثَرِ هَذَا
الْمَجْهُودِ الْأَوَّلِ . وَفَكَرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي الْمَوَدِّ إِلَى الْوَطَنِ ، وَكَانَ مَلِكُ قَشْتَالَةِ أَوَّلَ مَنْ

تقدم إلى مجلون في اليوم التالي ، فهذا روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع أن يقنهم بالسير معه إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ؛ ولحق النصارى في عبور نهر وادى يانه الذى تقع عليه المدينة صعباً فادحة ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جناحيه الصنائير والخوازيق الحديدية ؛ وهاجت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جوانبها الثلاثة النيمة ، حتى سقطت المدينة في أيديهم ، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج المالية والأسوار النيمة ، وكان يخشى أن تقتضى حصاراً طويلاً . وأبدى ملك أراجون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر .

وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة ، فقد مجس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها ، وأن يبدأ بالسير نواحي مهاجمة العدو (المسلمين) ، وكان يربط على مسيرة بضعة أيام ، في نهاية مقاطعة « منشا » ، بين جيان وقرطبة . ولكن غلب الرأي بوجوب مهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوى أموالاً طائلة ، وكميات عظيمة من المؤن ، التي بدأ النصارى يشمرون بنقصها . وما كاد المسلمون يقفون على نية عدوهم ، حتى بعث قائد الموحدين ^(١) ، سرا وتحت جنح الليل ، رسولا إلى ملك قشتالة ، يمدد بتعحف عظيمة وتسليم القلعة إذا سمح للحامية أن تنسحب بسلاحها ؛ وكان ملك قشتالة يعيل إلى إجابة هذا الطلب لكي يستولى على القلعة بسرعة ؛ ولكن الأرجونيين والمحاربين الوافدين أبوا الإصغاء إلى أية تسوية تحقق بها دماء الحامية . بيد أنه لما أبدى المسلمون عزيمتهم على المقاومة بأقصى ما يستطيع ، وافق النصارى أخيراً على أن تنسحب الحامية دون سلاحها . وهنا أبدى الأمراء الأسبان تفوقهم في فهم الحق ومبادئ الفروسة على إخوانهم في الدين من أبناء أمم الغرب الأخرى . ذلك أنه بالرغم مما حصل عليه المسلمون في قلعة رباح من حق الانسحاب آمنين على أنفسهم ، أراد المحاربون الوافدون أن يفتكروا بالمسلمين

(١) كان هذا القائد هو أبو الحجاج يوسف بن قادس ، وكان من مشايير الجند ؛ وقد فصل صاحب روض القرطاس موقفه وسعيه لإقناع المسلمين (ص ١٥٧) .

عند انسحابهم . ولكن ألفونسو وييدرو والفرسان الأسبان أعلنوا بقوة وحماة أنهم لا يسمحون بمثل هذا النكث ، وتولوا حماية المسلمين من كل أذى حتى ابتمدوا آمنين . ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن قسمها بالنصف بين المحاربين الوافدين ، وبين الأرجونيين ، ولم يحتفظ منها — فيما قال — لنفسه أو لجنده بشيء ؛ ولكن المحاربين الوافدين اعتقدوا فيما يبدو أن ملك قشتالة قد استأثر لنفسه بجميع التحف والنفائس . وسلت قلعة رباح نفسها إلى جمعية الفرسان التي تسمت باسمها ، والتي ملكتها من قبل . وأتت الاستيلاء على قلعة رباح بذور الشقاق في الجيش النصراني . ذلك أن المحاربين الوافدين ، أسخطهم أن تنجو الحامية من بطشهم ، وحقدوا على ألفونسو لأنه فيما اعتقدوا حرهم من الغنائم المنشودة ، وأبوا — بحجة عدم احتمالهم لجو اسبانيا الحار — أن يتابعوا الحرب من أجل الملكة الأسبانية قاتلين لإنهم وفوا بعهدهم في مقاتلة المسلمين بما خاضوا من معارك أمام أسوار مجلون وقلعة رباح ؛ وأيدهم مطران بورديو أعظم أعيانهم ، في غضبتهم وفي قرارهم ، وتمسكوا برأيهم بالرغم من كل رجاء وإقناع ووعود ؛ وفي الحال بدأوا السير تائدين إلى أوطانهم ، ولم ير الأسبان باعثا لهذا الرحيل الفجائي لأولئك المحاربين التحمسين من أجل الصليب سوى الحنين القاهر إلى الوطن ، أو وسوسة الشيطان . وقد وقع افتراقهم عن الجيش الأسباني على مقربة من جيش الأعداء (المسلمين) ، الذي كانت تمت العدة لمهاجمته ، وأغضوا عن قضية دينهم وعن شرفهم ، لإرضاء لشهوتهم في الانتقام من ملك قشتالة ، الذي بالغ في الإساءة إليهم فيما زعموا ؛ ولم يبق من أولئك المحاربين سوى أرنولد أسقف أربونة والكونت تيوبالد بلاسكون ، وهو أسباني المولد ، وكانا قد أتيا إلى اسبانيا بنحو مائة وخمسين فارسا من لانبجودوك وبواتو ، وغادر الباقون وهم زهاء خمسين ألف مقاتل الجيش الأسباني صوب جبال البرنيه ، غاضبين حاقدين ، وخشى الأسبان عواقب اعتدائهم ونهبهم ، فأغلقوا في وجههم جميع المدن . ومع أن رحيل هذا العدد الجم في تلك الآونة كان شديد الوقع على النصراني

الأسبان ، فإنهم لم يفقدوا مع ذلك شجاعته ، بل ساروا إلى لقاء العدو بعزم أقوى ، وأذكى شجاعته استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذى لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمة الشنعاء ، وما حدث عندئذ من مقدم سانشو ملك نافارا ، وقد سد الفراغ الذى أحدثه الراحلون بفرسانه ، وهم بالرغم من قلة عددهم ، أشد براعة وإقداماً .

وعلى أثر ذلك سار الملوك الثلاثة المتحالفون إلى مدينة سربرطة ، وهى القلعة التى افتتحها سلطان المرابطين فى العام السابق بعد حصار طويل . وعرض الملوك هنا جيشاً لم تخرج أسبانيا النصرانية مثله من قبل ؛ بيد أنهم لم يقفوا بسربرطة لأنها واثقاء لخصار لا طائل منه ، واخترقوا فى الثانى عشر من يونيو مر مورادال فى جبال سيارا مورينا (جبل الشارات) لى يلقوا العدو فى ناحيتها الأخرى .

وكان محمد الناصر قد عمل إلى ذلك الحين على اجتناب المعركة بالرغم من كثرة جوعه خشية بأس المحاربين الصليبيين فى الجيش الأسباني . ذلك لأن شهرة الفرسان الفرنج كانت قد سارت من المشرق إلى المغرب ، ولكنه لما وقف على رحيل أولئك المحاربين ، أخذ يسمي إلى لقاء العدو ، مؤملاً أن يزل بالنصارى الأسبان هزيمة كالتى أنزلها بهم أبوه فى موقعة الأرك . وكان يحز فى نفسه فقد قلعة رباح ؛ وبالرغم من أن حاكمها ابن قادس بذل كل ما استطاع للدفاع عنها ، فإن الناصر اعتقد فيها بظهور ، أنه قصر فى هذا الواجب ؛ ولذا ما كاد ابن قادس يصل مع الناجين من جنود الحامية إلى المعسكر ، حتى أمر الناصر بقتله جهاراً نزولاً على نصيح وزيره أبى سعيد بن جامع ، وكان رجلاً كثير اللدس يغيث كل الزعماء الموحدين والأندلسيين ؛ وكان لقتله أثر سيئ فى الجيش كله ، ولا سيما بين جنود الأندلس ، ذلك لأنهم كانوا يملكون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الدميم .

وعلى أثر سقوط قلعة رباح ، غادر محمد الناصر مع جيشه الرئيسى مدينة جيان ، وسار إلى ضفة نهر الوادى الكبير اليمنى نحو بياسة ، واحتلت سرديات من

خبرة جنده ممرات جبل الشارات (سيارامورينا) المؤدية إلى أبدة وبياسة . ومع ذلك فقد استطاع النصارى بعد أن نفذوا إلى عمر مورادال أن ينتزعوا بعد معركة عنيفة قلعة فيرال الواقعة في قمة الجبل ، وكان الموحدون قد قصرُوا في شحنها بالمدد الكافي من الجند . ولكن النصارى لم يغموا بأخذها كثيراً ؛ ذلك لأنه لم يكن في استطاعتهم نظراً لانعدام المياه في تلك المفاوز الشاقة ، أن يطيلوا المكث بها دون التعرض لأعظم الأخطار ؛ هذا إلى أنهم لم يروا سبيلاً للاستيلاء على الممرات الجبلية التي شحنت بالرجال ورتب الدفاع عنها أعظم ترتيب . وكان المسلمون هند ما رأوا تعذر الدفاع عن الآكام المرتفعة ، قد احتلوا بخبرة جندهم الممر الذي يفضى من أعلى الجبل إلى سهل تولوزا . وقد أكد ألفونسو ملك قشتالة في رسائله إلى البابا أنوسان الثالث ، أنه يستحيل على قوى العالم كلها أن تخترق هذا الممر إذا تولى الدفاع عنه ألف مقاتل فقط . ففي ذلك المأزق الخطر ، كان يتمذر القيام بأية خطوة أخرى ، وكان يبدو أن خير ما يمكن عمله ، أو بالحرى أن المخرج الوحيد الممكن لاتقاء الهلاك من الجوع والمطش في ذلك الجبل الوعر هو الارتداد ومحاولة دخول الأندلس من طريق آخر . وبينما كان ملك قشتالة يصصر على رفض أية حركة ارتداد — لأنه كان يأبى أن ينسب النصر إلى الأعداء في حين أنه لم يشتبك معهم بعد — إذ تقدم راح من رعاة هذا المكان ، مووعداً بإرشاد الجيش إلى طريق يقع في مرتفع آخر ويمكن سلوكه دون أن يفتن العدو ، وينحدر الجيش منه إلى سهل أبدة دون أن يتمكن العدو من إعاقته . ولما تحقق الملوك — بإرسال القائد المحارب ديجو لويز دى هارو لمعاينة الطريق — من صحة هذه الرواية ، أمرُوا في نفس اليوم (يوم السبت ١٤ يولييه) برحيل الجيش ؛ وسار النصارى بإرشاد الراعى ، الذي اعتبر عندئذ منقذاً أرسل من عند الله ، فاحتلوا المرتفع المذكور ، وكان به بسيط شاسع يصلح لنزول الجيش ، وحصنوا المكان ، وبقي الملوك في مكانهم مع القوات الاحتياطية إخفاء لحركة الجيش عن المسلمين ؛ ثم غادروا في النهاية قلعة فيرال فاحتلها المسلمون على الأثر ، معتقدين أن النصارى قد ركنوا إلى الفرار .

ولكن سرعان ما وقف المسلمون على مكان عدوهم الجديد ؛ وبالرغم من المزايا التي حصل عليها النصارى باحتلال هذا المكان ، فإن سلطان الموحدين ، واثقا من تفوق قواته ، دعاهم إلى القتال في نفس اليوم ؛ ولكن الملوك الأسبان لم يقبلوا هذه الدعوة ، إذ كان جيشهم منهوك القوى من أثر السير إلى مكانه الجديد ، ولم يكن قد تم تحصين المعسكر .

وفي اليوم التالي نظم محمد الناصر جيشه لخوض المعركة ، ولكن الملوك النصارى آثروا الاعتصام بموقعهم المنيع ، ولم يسمحوا إلا لبعض الفرسان البواسل بالالتحام مع العدو في مبارزات ثنائية . ولم يرد النصارى أن يكبدوا صفو الأحد بأعمال الحرب الدموية ، بل أرجأوها إلى اليوم التالي . ولم يكن من الميسر أن تؤجل المعركة بعد ؛ إذ بدأت المؤن في النقص واضطروا إلى مراعاة أشد الاقتصاد في الماء . ووقف الناصر على أحوال المعسكر النصراني من بعض الخوة ، وأخذ يفاخر بأنه لن تمضي ثلاثة أيام أخرى حتى يقع الملوك الثلاثة المحصورون في الرابي وجيوشهم أسرى في يديه .

وبعد أن عكف الجند النصارى على الصلاة والدعاء وتلقوا البركة لخوض المعركة ، والغفران البابوي المأم على يد الأساقفة ، رتب الملوك الأسبان في الصباح الباكر ، من يوم ١٦ يولييه جندهم لخوض المعركة على النحو الآتي ، وقد رابط البعض على سفح الجبل ، والبعض فوق الرابي : تزعم ألفونسو ملك قشتالة قاب الجيش ، مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربعة فرق ، تتألف الأولى من سكان الجبال القشتالية ويقودها ديجو لوبيز ؛ وتتألف الثانية من فرسان قلعة رباح وشفن ياقب والاسبترارية والداوية وبعض جند الحدود القشتالية ، ويقودها الكونت جونزالو نونيز دى لارا ؛ والثالثة تتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشتوريش وبسكوبنه ويقودها الكونت ردرريك دياز كاميروس ؛ وتتألف الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة وبعض قوات ليون ، ويقودها الملك نفسه ؛ وكان يرافق القوات الاحتياطية ، فضلا عن المعاران

ردريك الطليطلي مؤرخ هذه الموقعة ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم . وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا الباسل ، مؤلفاً من فرسانه ومن جند سُريا وآبله وسقوية ومدينة سالم ، وكذلك من الفرسان الفرنسيين الذين أتى بهم أرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي . أما الجناح الأيسر فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق ؛ ويتألف كله من قوات أراجون ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين ، ويقوده الملك بيدرو ومن حوله الأحرار والمظالم والأرجونيون .

وقسم محمد الناصر الذي يربط بقواته نجاة النصارى في سهل تولوزا ، جيشه وفق الأوضاع الموحدة إلى خمس فرق . وكانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم للجهاد أو الموت في سبيل الإسلام ، وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل . واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة والقبائل البربرية في اليسرة . وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوف الجيش من الجند المغاربة والنظاميين ، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين . وضرب محمد الناصر قبته الفخمة الحمراء ، في وسط الصفوف وارتبط أمامها جواده السرج ؛ وقعد في داخلها على درقته ، إذباناً باقتراب المركة ؛ واحتاط بالقبعة حرس الأمير مشاة وفرساناً ، من الموحدين والعبيد ؛ وشهر الجند في اتجاه العدو حراهم فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ؛ ومدت في الوقت نفسه حول القبة نصف دائرة من السلاسل الحديدية القوية ، حتى أصبح سلطان المسلمين وكأنه يجلس في حصن منيع . وكان يوسع النصارى أن يروا من الربى العالية جموع المسلمين التي لا تحصى ، وقبة سلطان الموحدين الحمراء ، وأن يميزوا ما حولها من الجموع . .

ولما تمت أهبات المركة خرج سلطان الموحدين من قبته ، وهو يرندى عباءة حرب سوداء . من مخلفات جده عبد المؤمن ، وقد رفع المصحف باحدى يديه ، وشهر سيفه بالأخرى ، وأعطى إشارة القتال والهجوم ، بينما كان قرع

الطبول الضخمة يدوى بشدة في جميع الأنحاء .

وما كادت جموع التطوعة من جانب المسلمين تلتق بجنود الجبال القشتاليين وجموع الفرسان من جانب النصارى ، ويشتبك الفريقان في معركة حامية ، ويتحرك الجناحان في كل من الجيشين تجاه بعضهما حتى غدت المعركة عامة . وكان هجوم التطوعة المسلمين شديداً في البداية ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف الفرسان القشتاليين ؛ ذلك أن هؤلاء كانت تؤيدهم جماعات الفرسان الدينية ، فاستطاعوا أن يردوا جموع العدو وأن يمزقوها ، واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل دينهم . ولكن القشتاليين حيناً عمدوا إلى مطاردة التطوعة المسلمين ، وتقدموا بذلك ظافرين ، من قلب الجيش الإسلامى حيث حشدت صفوة الجند ؛ لقوا أشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا إلى مفادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا قارين وتابعهم الفرسان القشتاليون في فرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيئ ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والبلطيليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية ، وأن يفتح الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ؛ وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي « إن الساعة قد حانت لنلقى الموت المجيد » تدل على أنه لم يكن يؤمل النصر بعد . ولكن اعتراضات المطران والقوامس ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار . وأرسلت في الوقت نفسه قوات من أشجع الجنود لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة ، وهم يرمون أعلاماً عليها صورة المسيح والمذراء ، ويشيرون بذلك أعظم الحماسة في نفوس الجند .

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجباليون فرصة تقدم الأمداد الجديدة ، ليلبوا شعثهم وينظموا جموعهم ، ثم هادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامى حيث كان محمد الناصر وحرسه . وفي الوقت الذي صوبوا فيه هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التي

احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين الحراب ، كان جناح الجيش الاسلامى قد حطما ؛ ذلك أنه سرعان ما بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الاسلامى ، ولم يصمد في القتال ، سوى جند الموحدين النظاميين والحرس من السود والناارية ، فقد لبثوا من وراء السلاسل يقاومون النصارى ، ويحاولون انتزاع التصر منهم ؛ ولبثوا من وراء هذا المعقل الصناعى يردون الهجمات التى بصوبها النصارى إليهم من كل صوب بشجاعة وجلد لا مثيل لها ؛ ولكن الفرسان النصارى ضاعفوا جهودهم لتحطيم الدائرة الحديدية ، ووثب الكونت القارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين وفى يده العلم الملكى ، فافتحم الدائرة غير مبال بالحراب المصوبة أمامها ؛ وافتحمها فى الوقت نفسه الملكان سانشو وبيدرو من الجانبين المتقابلين ، ونفذا إلى قلب الجيش الاسلامى ، بعد أن مزقا الجموع التى تصدت لها .

ولما حطمت الدائرة الدفاعية غدا نصر النصارى تاما حاسما . وكانت هزيمة المسلمين فادحة . ولبت محمد الناصر يذكى حماسة حرسه حتى آخر لحظة ؛ ولما رأى الهزيمة حلت ببجيشه ، ووقف على موت ولده الأكبر الذى قتل فى المركة وهو يقاتل قتال الأبطال ، لم يرد فيما يبدو أن يعيش بعد ، فقمعد فى خيمته على درقته ، والعدو الظافر يدنو منه . فأقبل إليه أعرا بى ، ونبأه بفرار جنده ، وناشده ألا يقعد بعد ، فقال محمد « صدق الرحمن وكذب الشيطان » ؛ ثم امتطى صهوة جواده أخيراً ، وغادر ميدان الحرب مسرعا مع نفر من أصدقائه المخلصين ، واتجه صوب بياسة ، ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها توا إلى إشبيلية .

وتعرف هذه الموقعة التى أحرز فيها النصارى هذا النصر الباهر ، وكانت ضربة قاضية لسيادة الأفريقيين فى اسبانيا ، فى الرواية الاسبانية بموقعة نافاس دى تولوزا Navas di Toloza أو موقعة أبده ؛ ولكنها تعرف فى الرواية الاسلامية بموقعة العقاب^(١) ، ويضع المؤرخون المسلمون تاريخها فى يوم ١٥ صفر

(١) يتتبع المؤلف فى سياق حديثه عن الموقعة رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس =

سنة ٦٠٩ هـ ، الموافق ١٦ يولييه سنة ١٢١٢ م ، ويعتبرونه من أسود أيام تاريخهم ؛ وينسبون الهزيمة من بعض الوجوه إلى غطاسة ملكهم ، إذ وضع كل ثقته في مئات ألوف الجند ، وفي دربتهم ، وفي مقدرة قواده ، وقد بذلك عون البارى جل وعلا ؛ ويرمون من جهة أخرى الأندلسيين بالجبن والخيانة إذ ركنوا إلى الفرار بعد معارك قصيرة . أما النصارى فينسبون نصرهم على عدو يفوقهم ضعفين في العدد إلى عون الله ، الذى هي لهم بما عمدوا إليه قبل الموقعة من الصلاة والابتهال ؛ ولذا فإنهم لم ينسوا أن يقدموا شكرهم إلى الله فى حقلة قداس نظمها الأخبار والأسماء فى ميدان الحرب ، ورتلت فيها أناشيد الشكر والعرفان .

وإذا قارنا الروايات العربية والنصرانية ، وجدناهما تتفق جميعاً ، فى أن عدد القتلى من المسلمين كان عظيماً جداً ؛ بل نجد المؤرخين المسلمين خلافاً لمعادتهم يصورون هزيمتهم بأعظم مما يقدر الأسباب خسائر أعدائهم . ولما كان الملوك الأسبان قد أُنذروا بالموت كل اسباني يأسر مسلماً ، فقد هلك من المسلمين أثناء الفرار أكثر مما هلك فى الموقعة ذاتها . ذلك أن الأسبان لبثوا مدى أربع ساعات يطاردون أعداءهم الفارين ويقتلون كل من ظفروا به . وتقول الروايات العربية إنه لم ينج من الجيش الإسلامى وقوامه سبعمائة ألف مقاتل سوى مائة ألف ، وهو قول يحمل طابع المبالغة^(١) . ويقدم إلينا ثلاثة شهود عيان هم الملك ألفونسو ، ومطراننا طليطلة وأربونة عن خسائر المسلمين أرقاماً أقل ؛ فيقدرها رديك الطليطلى بمائتى ألف ؛ والملك ألفونسو بمائة وخمسة وعشرين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة (وذلك وفقاً لأقوال بعض حشم السلطان محمد الدين أسروا فيما بعد) ، قتل منهم

== (ص ١٥٧ وما بعدها) وتعرف الموقعة فى معظم الروايات الإسلامية ، بموقعة العقاب ، وتسمى فى روض القرباس أيضاً بمحصن العقاب (ص ١٥٨) ، ويضع ابن خلدون تاريخها فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (ج ٦ ص ٢٤٩) راجع أيضاً للمراكشى ص ١٨٣ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٩٣ ،

(١) راجع روض القرباس ص ١٥٩ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والمراكشى

أثناء الموقعة نحو مائة ألف فقط ، وهلك القعيم الأعظم أثناء الفرار . ويقدر المطران أرنولد خسائر المسلمين خلال الموقعة بستين ألفاً فقط ، ويقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من ذلك أثناء الفرار . وقدرت الأميرة القشتالية برنجاريا في خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتل المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً منهم خمسة عشر ألف امرأة قتلن بعد الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية الوثيقة تجمع على أن خسائر النصارى كانت طفيفة جداً ، وتقدم إلينا أرقاماً لا يمكن تصورها . ذلك أن الملك ألفونسو والمطران رديرىك يؤكدان أنه لم يقتل من جانب النصارى سوى خمسة وعشرين ، ويقدر مطران أربونة خسائر النصارى بخمسين ، وتقدرهم برنجاريا بمائتين . وتقول الملكة بلانكا في رسالتها إلى أميرة شيمانيا أن قتل النصارى بلغوا أربعين في الهجمة الأولى . ولكن من الواضح أنه حين المارك الأولى في بدء الموقعة حينما ارتد القشتاليون والفرسان أمام الموحدين بخسائر كبيرة ، لا بد أن يكون عدد القتلى من النصارى كبيراً ، ويقدم إلينا الراهب البريكوس الذى عاش قريباً من الموقعة ووعى أخبارها أحسن تفسير لهذا الرقم الضئيل لقتلى النصارى ، فيقول إنه هلك في الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك من النصارى في نفس الوقت عدد كبير ، وإنه حينما انتهت الموقعة بالنصر ، لم يهلك من النصارى في مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين مقاتلاً .

وظفر الأسبان في معسكر المسلمين بغنائم لا تقدر ، من الذهب والفضة ، وخبث الثياب ، والأقمشة الحريرية ، والبسط ، والآنية الثمينة ، والنقود . ولم يعمد إلى النهب سوى المشاة وقسم من الفرسان الأرجونيين ، بينما شغل باقي الفرسان بالقضاء على فلول الجيش المهزم . ودهش الظافرون لما لقوا من دواب الحمل والمؤن ، ووجدوا من السهام وحراب الرمي والرمح في ميدان القتال وفي المعسكر كيات عظيمة جعلوا وقودهم منها أياماً ولم يأتوا مع ذلك على نصفها ، وذكر أحد المعاصرين أن ثقلها كان يقتضى آلافاً من دواب الحمل .

وقد أشارت النسخة المطبوعة من الرواية الأسبانية العامة التي تحمل اسم ألفونسو الحكيم ، والتي تفيض بالقصص الخرافية ، إلى الموقعة بإيجاز ، ولكنها تزعم أنه حدث قبيل الموقعة بقليل أن ظهر في السماء صليب كبير شديد اللمعان بشيراً بالنصر المحقق . بيد أن هذه المعجزة لم يرد ذكرها في رواية المطرانين اللذين شهدا الموقعة ولا في رواية الملك ألفونسو ؛ بل لم يرد ذكرها في النسخ الخطية الوثيقة للرواية الأسبانية العامة ، فمن الدهش إذاً أن نرى كثيراً من المؤرخين الأسبان يرددون ذكر هذه المعجزة ، ويمتقدون في صحتها ؛ وهذا بما لا يشفع فيه أنها كانت تذكر في العصر القديم ، في القداس الذي يعقد في ١٦ يولييه من كل عام في طليطلة ، باسم « ظفر الصليب » .

وكان من آثار هذا النصر العظيم أن استطاع النصارى بسهولة أن يفتتحوا عقب الموقعة بأيام قلائل عدة حصون مثل فرال ، وبلقس وبانيوس وتولوزا وبياسة . ولم يكن في بياضة سوى الرضى والصفاء ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش . وكان هؤلاء التعماء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ، ينتظرون مصيرهم جزعين ؛ فشابت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى . بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوة الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك حينما هاجموا مدينة أبده التي اعتصم بأسوارها القوية بمض فلول الجيش المهزم وسكانها العزل ؛ وكان المسلمون يأملون نظراً لناعمة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء ، ونظم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً عاماً خسروا فيه كثيراً من القتلى ، ولم يسفر عن أى نجاح ؛ لولا أن استطاع الأرجونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها ، وأن يحتلوها . ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان ؛ وعندئذ رأى الملوك والقوامس أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرجونيين قد خشوا العاقبة ،

وأرسلوا إلى الملوك النصارى يمرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب (دينار) على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم ؛ وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صعب في افتتاحها . ولكن الأبحار الظمئين إلى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد ولا شرط ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحلين لذلك عذراً ، هو أن المسلمين بعد أن فتحو أبواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الفدية المفروضة عليهم في الحال ؛ وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المتكودين ؛ فقتل من المسلمين في أبده زهاء ستين ألفاً ، وسي مثل هذا القدر ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأبحار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته .

وانساق النصارى بعد أخذ أبده إلى اللهو والإغراق ، وهما قرينا حسن الطالع والسمة ، حتى استنفدت المؤن بسرعة ، وشعروا بنقص شديد في الحاجات الضرورية ؛ ثم دبت إليهم الأمراض وأهلكتهم ألوفاً ، فاضطر الجيش أن يعود أدراجه إلى قلعة رباح ، دون أن يتابع نصره بعد ؛ وهناك التقوا بالدوق ليوبولد النمساوي ، الذي قدم للعون في كتيبة من الجند ، فشكروه على حسن اهتمامه ؛ ولما علم أن الحرب قد انتهت عاد مع قريبه الملك بيدرو إلى أراجون . ودخل السكان الآخرون طليطلة في حفل نغم ، وسارا في موكب لا نهاية له من الأمراء والأبحار والجند وأفراد الشعب ، إلى كنيسة المذراء حيث أقيمت صلوات الشكر على ما أوتوا من النصر ، وتقرر تخليداً لهذه الموقعة المظفرة أن يحتفل في السادس عشر من يولييه كل عام في طليطلة ، ثم في قشتالة كلها فيما بعد ، باقامة حفل عظيم للشكر يسمى « بظفر الصليب » ، وأرسلت إلى البابا طائفة من الهدايا النفيسة منها خيمة حريرية ، وطبق كبير من الذهب ، وعلم محلي بالذهب ، وعرضت هذه الهدايا في كنيسة القديس بطرس تذكاراً للنصر .

الفصل الثالث

بيدرو الثانى ملك أراجون

تحدثنا فيما تقدم عن القسط الذى قام به بيدرو فى محاربة المسلمين فى شبه الجزيرة ، ولا سيما عما قام به فى موقعة العقاب ، وكذلك عن تحالفه مع قشتالة ضد ليون وناقارا ، ونقتصر هنا على التحدث عنه فيما يتعلق بتاريخ أراجون وحدها . خلف بيدرو الثانى ، وهو فى الثالثة والعشرين ، فى الحكم أباه ألفونسو ، فى ١٦ مايو سنة ١١٩٦ ؛ والظاهر أن أمه الملكة سانشا حاولت أن تنتهز فرصة حداثة فتنازع الحكم ولقب الملك . ذلك أنه لم يضع يده على الملكة ، ولم يتلقب باللقاب الملك الا بعد ذلك ، فى المجلس الذى عقد فى دروكة فى ١٣ سبتمبر سنة ١١٩٦ بموافقة الطبقات الثلاث والملكة الأرملة ؛ وفيه جددت أيضاً جميع القوانين والحريات التى صدرت عن ألفونسو الأول ، وراميرو الثانى ، وريموند برنجار الرابع ، وصودق عليها .

وما كاد بيدرو يلى الحكم حتى عمد إلى العمل على تأييد سلطة العرش ضد أتباعه الأقوياء من البارونات ، وهم عقب الفاتحين الأوائل ، فاسترد الوظائف العليا والإقطاعات التى كانت تتوارثها الأسر الكبيرة وفقاً للتقاليد ، معتمداً فى ذلك على حقوق العرش ، وذلك لكي يوزعها من جديد وفق رأيه وتقديره . يبدو أنه رأى اتقاء لما يثيره ذلك من سخط الأشراف أن يترك لهم الأراضى المقطوعة وما يتعلق بها من حقوق القضاء الأدنى لتبقى لهم بطريق التوارث ؛ وذلك بشروط خاصة تتعلق بالإخلاص للعرش ومساونة الجيش وغيرها . أما السلطة القضائية

فتمود إلى الملك . وقد قام الملك يومئذ بتوزيع خمسمائة وسبعين ضيعة إقطاعية من سبعمائة توزيعاً جديداً ، ولكن المرجح أن أصحابها لم يذعنوا جميعاً لهذا التغيير . أما القضاة فكان يمينهم الملك ، إما لأجل ممين أو لمدى الحياة ؛ وكان يختارهم من أكابر الأشراف (البارونات) Ricos أو يختارهم من بين صغار الناس ، أعنى من بين الفرسان Cavalleros بيد أنه كان يختارهم في الغالب من بين هؤلاء ؛ وكان يعين دائماً فارساً في منصب قاضي القضاة لكي يحمد من نفوذ البارونات القوى جداً شديداً . وقد كان هذا فيما يبدو منشأ القضاء الأرجوني ، الذي علا سلطانه فيما بعد على سلطان الملك ذاته . وكان القاضي الأكبر ، أو قاضي القضاة ، في عصر بيدرو الثاني الذي يعتبر مؤسس هذه السلطة القضائية ، يعتبر أعظم سلطة في الدولة ، لا بالنسبة للرعية فيما بينهم فقط ، ولكن أيضاً فيما يتعلق بمنازعات الرعية ضد العرش . وكان عليه أن يحمي حقوق الحكومة ، وأن يمثل — باعتباره كبير القضاة — شخص الملك . كما أن عليه أن يحمي حقوق الأشراف والرعية من أطماع الملك ؛ وكان يتوقف على براعة الإدارة الحكومية ما إذا كانت هذه السلطة القضائية العليا يمكن أن تعمل لتوطيد السلطة الملوكية وتقويتها أم لا ، وقد كانت في الحالة الأخيرة تنتزع من السلطة الملوكية أهم امتيازاتها .

وقد فقدت الاثنتا عشرة أسرة من البارونات — وهي التي كانت حتى عصر بيدرو الثاني تقبض في أراجون على معظم الأراضي والغلات ، وتسيطر على الجيش والفرسان ، عدا السلطة القضائية ، في ظل بيدرو الثاني — امتيازها في الانفراد بتكوين طبقة الأشراف . ووقع بيدرو بمض موظفي البلاط ، والفرسان الذين يصطفبهم ، إلى طبقة الأشراف العليا ، وأقطعهم جزءاً من الأراضي والغلات ؛ فاستطاعوا بذلك أن يقتدوا بالبارونات في استئجار الفرسان ، وأطلق عليهم أيضاً لقب البارونات Ricos ، بيد أنه كان يطلق عليهم بارونات البلاط أو البارونات الملكيون de Mesnada تمييزاً لهم من البارونات بالولد . وكان هذا تقليداً للنظام القوطي في تقسيم الأشراف إلى قسمين يطلق عليهما Gardingi و Palatini ؛

والأولون هم الذين يستطيعون وفقاً لمولدهم وحقوقهم أن يملكوا الأرض ،
والآخرون هم الذين يتولون الوظائف ويملكون الأرض بمنحة من الملك .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت الأمة في أراجون وفي معظم الممالك النصرانية
الأسبانية تقسم من حيث التمتع بالحرية إلى سبع طبقات ، أو بالحرى إلى سبعة
دروع على مثل ما كانت عليه في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ؛ والدروع الأول يحمله
الملك ، لأنه ليس مسئولاً أمام أحد ، والثاني يحمله أكبر الأحرار ، والثالث
البارونات بالمولد ، لأنهم لا يستلون إلا أمام الملك فقط ؛ والرابع البارونات
المسكون ، إذ هم عرضة للمسئولية أمام البارونات بالمولد ، وإن كانوا مثلهم في
حق التمتع بامتلاك الأرض . ومن هذه الطبقات الأربع تتألف طبقة الأشراف
المليا . والطبقة الخامسة هم حملة الأعلام الأحرار الذين لا يؤدون جزية ما ،
والسادسة تتألف من الفرسان ، وهم الذين يقطعهم البارونات من الصنفين ؛
والطبقة السابعة والأخيرة تتألف من باقى الأحرار ، وعامة سكان المدن الأحرار
الذين ولدوا في ظل الزواج .

وكانت مملكة أراجون قد نقصت مساحتها على أثر وفاة ألفونسو الثاني ،
وذلك نظراً لاقطاع ولاية بروفانس منها وإعطائها لأخى بيدرو الأصغر ألفونسو ،
ولكن حدودها أسلحت بذلك ، وتخلصت من تلك المقاطعة النائية التى كانت
ترغم دائماً على حمايتها بالسيف من عدوان جيرانها الطامعين . بيد أن علائق
الأخوين بقيت وثيقة ؛ ولما هاجم ألفونسو أمير (كونت) بروفانس ، الكونت
دى فور كالكييه وحلفاؤه ، خف بيدرو إلى إيجاد أخيه في جيش ضخم ، وارتاع
الأعداء ، فأذعنوا إلى طلب الصلح ، وعقد الصلح بين الفريقين في سنة ١٢٠٢ م .
وعلى أثر ذلك عقد بيدرو قرانه بمارى ابنة الكونت جيوم الثامن صاحب
مونبلييه ، ووارثته بعد وفاته في ١٢٠٢ م ؛ وكانت هذه الأميرة قد اقترنت من
قبل بالكونت برناردى كومنيج ، وطلقت منه بحجة القرابة ؛ وفي يونيو سنة
١٢٠٤ ، احتفل ملك أراجون بزواجه بمارى ، ونمهد بالألا يتصرف فى شئ من

أراضيها الموروثة ، كاتمهـد لسكان مـونـبـليـه الذين وافقوا على هذا الزواج بمـجـابـتـهم
و تركهم أحراراً في التمتع بمـادـاتـهم وتقاليدهم .

وبعد أن انتهى بيدرو من تنظيم شؤون مملكته الداخلية ، بمقد المجالس
النـيـابـية ، وأخذ المنازعات الداخلية ، وعمل على الحد من غطرسة الأشراف ، وعقد
الصـلـح مع أمه سانشا ، وكانت ذات صلة وثيقة بكثير من الأمراء التابعين ،
وكانت تؤلف حزباً لناوأة العرش ، فكر في أن التاج الأرجوني قد يكسب
كثيراً من القدس والاعتبار إذا تسلبه من يد رجل من رجال الدين ؛ وكان بيدرو
يشنف بمظاهر البذخ والبهاء ؛ بيد أن ذلك لم يكن وحده هو الباعث على ما اعترمه
من أن يتوج في رومه ؛ ولكنه كان يمول بالأخص على أن مثل هذا التتويج
يدحض دعوى الأشراف الأرجونيين في أنهم أصحاب الحق في منح التاج ، ويقضى
نهائياً على دعاوى ملوك قشتالة ، الذين كانت لهم السلطة العليا على أراجون حتى
سنة ١١٧٧ م . وعلى ذلك فقد سافر بيدرو في حاشية كبيرة من الأشراف
القطالونيين والبروفنسيين ورجال الدين ، إلى مرسيليا ثم إلى جنوه ؛ ثم غادر
وحاشيته جنوه في خمس سفن بحجة السفر إلى يزا ليمقد معها حلفاء لغزو الجزائر
الشرقية (البليار) ، ولكنه لم يقف في يزا بل رسا عند مصب نهر التيير في
٨ نوفمبر سنة ١٢٠٤ ؛ وكان البابا أنوسان الثالث قد رتب كل شيء للاحتفال
بإستقباله في رومه .

وفي اليوم الثالث من مقدم بيدرو ، في يوم القديس مارتن ، خرج البابا
والكرادلة في جمع حافل من رجال الدين والأشراف والشعب إلى دير «بنكراتيوس»
وهناك بارك أسقف أوستيا ملك أراجون أمام الجمع الجاشد ؛ ثم وضع البابا
التاج على رأسه ، وقدم إليه شارات الملك . وعلى أثر ذلك ألقى الملك القسم الآتي :
« أنا بطرس (بيدرو) ملك أراجون أقسم وأتمهد ، بأن أكون دائماً مخلصاً
ومطيعاً لسيدي البابا أنوسان وخلفائه ، وأن تكون مملكتي على مثل هذا
الإخلاص والطاعة ، وأن أحافظ على دين الكثرة وأقم كل ضروب الإصلاح ،

وأن أحمى حريات الكنيسة وحقوقها ، وأن أعمل على تحقيق العدالة والسلام في جميع أراضي المملكة ؛ كان الله والإبجيل في عونى .

وبعدئذ سار بيدرو في ثيابه الملوكية بجانب البابا إلى كنيسة القديس بطرس ؛ ووضع على هيكلها التاج والصولجان ، وضأ إلى أنه يقدم مملكته إلى القديس بطرس ، وهنا قدم إليه البابا السيف ، دلالة على أنه يرد إليه المملكة مع خضوعه لأداء الجزية ؛ ووضع بيدرو على الهيكل وثيقة ، يقدم فيها مملكته إلى كرسى القديس بطرس ، ويتمهد هو وخلفاؤه بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها ستون قطعة من الذهب ، ويتطلب نظير ذلك حماية البابا وتمعيده .

وصدر قرار بابوى يحدد رسوم التتويج للوك أراجون وملكانها ؛ وملخصه أنه يجب أن يجرى التتويج في سرقسطة على يد مطران طر كونه باسم البابا ، وذلك بعد أن يطلب الملك الإذن بذلك إلى صاحب السيادة عليه في رومة .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته ، أبدى البارونات والفرسان تذمرهم من خضوعه لأداء الجزية للكرسى البابوى ، وحاول الملك أن يهدى خواطرم بتأكيده أنه تنازل عن حقوقه هو ولم يفرط في شيء من حقوقهم ، بيد أنهم رأوا في هذا التصرف افتتاكاً على حقوقهم خصوصاً عند اختيار الملك في حالة انعدام الوارث المباشر ، ورأوا أنه يحمل المملكة فروضاً جديدة لا تعود عليها بأية فائدة . وكذلك رأوا أن هذه الخطوة من جانب بيدرو في تحرير السلطة الملوكية من نفوذهم تقضى على كثير من ضروب تدخلهم في حقوق العرش . ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يخضع بيدرو الطموح مختاراً لأداء الجزية دون أن يحقق من وراء ذلك منافع خاصة ؛ وقد كان أهون عليه أن يرضى الخضوع الأسمى للبابا البعيد ، من أن يرفع على الخضوع لمصلحة الأشراف الأقربين .

على أن بيدرو لم يحمل لسخط الأمراء التابعين ، يدل على ذلك ما عمد إليه في العام التالى من اتخاذ إجراءات كان من المحقق أن تزيد في هذا السخط ؛ ذلك أنه لما كان مثل كثير من أسلافه ، قد بدد ثروات العرش وموارد الدولة بالاغداق

على الكنائس والأديار ، والمباني في البنخ والإسراف ، فقد رأى نفسه مضطرا للقيام بأعبائه الكبيرة ، إلى فرض ضريبة جديدة . وكانت موارد العرش قد أنفق معظمها في هبات إلى رجال الدين وجماعات الفرسان ؛ ولم يبق من اليسور أن تسد الضريبة المادية كثيراً من الطالب نظراً لأن جميع الأعيان والأشراف والقادة كانوا ينفون من أدائها ، وكانت تعفى منها كذلك مدن بأسرها مثل سرقسطة . ففي نوفمبر سنة ١٢٠٥ ، أصدر بيدرو مرسوما ملكيا بفرض ضريبة جديدة عرفت باسم Monedaje ، وبمقتضاها يجب على جميع الأشراف الأكابر منهم والأصاغر ، وكذلك الرعايا الأحرار في المدن ، أن يؤدوا عن جميع الثروات المقايضة والمنقولة ، اثنتي عشرة فلساً عن كل ما قيمته جنيه . ولم يستثن رؤساء الجند — الذين كانوا ينفون دائماً من الضرائب — من أدائها ، إلا إذا التحقوا بهيئة الفرسان . وقد كان هؤلاء يخدمون في الجيش باستمرار ، وعليهم أثناء الحرب — فضلاً عن الإنفاق على أنفسهم — أن يتحملوا نفقات إنشاء الطرق وأسوار الحصون والأبواب والقناطر وغيرها ، ولهذا كان من الإجحاف أن يعامل هؤلاء مثل غيرهم في شأن الضرائب .

وما كاد بيدرو يصدر قراره بتلك الضريبة الجائرة ، حتى قامت ضده جميع طبقات الشعب ؛ واتحد البارونات والفرسان ، أعني أكابر الأشراف وأصاغرهم — وقد كانت مصالحهم تتعارض دائماً — على مقاومة الضريبة الجديدة ، بقوام المشتركة ؛ وحذت حذوهم مدينة سرقسطة التي اتحدت مع المدن الأخرى في تنفيذ هذه الخطة ؛ واضطر الملك إزاء ذلك إلى تخفيض الضريبة الجديدة ، ولكنه لم يسحب قراره بشأنها ، وهكذا كانت هذه الضريبة ، أحياناً معتدلة وأحياناً جائرة وفقاً للظروف والأحوال .

وليس أدل على ما كان يشعر به بيدرو من حاجة إلى المال أحياناً ، من أنه أثناء محاربته لسانشو السابع ملك ناغارا (سنة ١٢٠٩م) اضطر بالرغم من سير الحرب في صالحه أن يعقد معه الصلح ، نظير حصوله على عشرين ألف قطعة من

الذهب ، وأنه في الحرب التي شهرها على المسلمين ، والتي انتهت بهزيمتهم في أبدة لم يكن ليستطيع القيام بها ، لو لم يأذن له البابا في الحصول على قسط من إيراد كنائس المملكة للاتفاق عليها . وقد سنت في ذلك الحين في قطلونية ضريبة أخرى ، فرض أداؤها على كل من يملك ثورين ، وما لبثت أن فرضت في أرجاء المملكة كلها .

ولما انتهى بيدرو من الحرب في أبدة (سنة ١٢١٢م) ، استطاع لأول مرة أن يوجه كل عنايته إلى أملاكه فيما وراء البرنيه . وكانت حروب الألبين قد أثارت في هذه المنطقة اضطرابات عظيمة . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن قيام فرقة « القلدين » الملبدة^(١) وانتشارها في تلك الأنحاء ، ويكفي أن نقول إن المجلس الكنسي الذي عقد في « لومبر » في سنة ١١٦٥م ، قد قضى باللعنة على سكان لانجدوك الثأرين ، الذين عرفوا فيما بعد ذلك بالاجتهاد والسكينة . ولكن لم يوجد في ذلك الحين من يضطلع بتنفيذ هذا الحكم ، ولم يرغب ملكا إنكلترا وفرنسا في إجراء هذه المطاردة العنيفة ضد الملاحدة بالضيف . بيد أنه لا أصدرت اللجنة البابوية في سنة ١١٧٨م ، حكما ضد إقليم « ألبي » كله ، عمده الكونت روجيه الثاني صاحب بزييه وقرقشونة وألبي ورازيه ، وهو من أتباع الكونت دى تولوز وملك أراجون إلى الدفاع عن رعاياه ؛ فاضطر البابا عندئذ إلى أن يصدر ضد الكونت فرار الحرمان الكنسي ، وأن يرسل إليه حملة صليبية ولكنه لم ينجح من وراء ذلك شيئا ؛ والظاهر أن ألفونسو الثاني ملك أراجون لم يكن يرى في هذه القلاقل اللاحدية ، سوى وسيلة لتوطيد هيئته في لانجدوك ضد الكونت دى تولوز ، ولهذا كان يجتنب كل ما يمكن أن يثير ضده سكان هذه الأنحاء ، ولم يكن مع ذلك يحابي الملاحدة ، ولكنه كان من جهة أخرى يقاوم كل إجراء عنيف يحاول وكلاء الكرسي البابوي القيام به ويجعله عبثا ، وذلك

(١) م فرقة من الملاحدة مثل الألبين ، ألقاها بطرس فالديس Peter Waldes وهو كاهن من ليون ، في سنة ١١٧٦م ، وقد انتشرت في بروفانس ولومبارديا وشمال اسبانيا .

بالتخلي عن حمايتهم ؛ على أن ابنه وخلفه بيدرو الثانى كان فى ذلك أشد وطأة ؛ ذلك أنه ما كاد يرقى العرش ، حتى أصدر عدة قرارات ضد الملاحدة الذين حرمتهم الكنيسة ، وأمرهم بمغادرة أراضيه ، وإلا كان نصيب المخالفين نزع أملاكهم وإعدامهم حرقاً . ولما زار بيدرو لانبجودوك فى سنة ١٢٠٣م ، معترفاً بالسفر إلى رومة ليتوج هناك ، أبدى ميلاً إلى التدخل بحزم فى شأن هذه القلاقل الالحادية ، وحرصه بالأخص بمض الأساقفة الأسبان والقديس دومنيك على أن يستأصل شأفة الالحاد فى الحال بانثار السيف ؛ ولما زار قرقشونة ، حيث اعتنق جميع السكان تقريباً مبادئ « القلدين » ، استدعى بمض القلدين أمام مندوب البابا ليشرحوا مذهبهم ، وليحكم بنفسه على ما إذا كانت مبادئهم تخالف الدين . وقد اقتنع الملك بأن مبادئهم تخالف تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وأن التهم التى يرمون بها كانت صحيحة عادلة ؛ وفى حفلة تتويجية فى رومة ، تعهد بيدرو ألا يدخر وسعاً فى مطاردتهم وسحقهم . على أنه لم يتمكن من تحقيق خطته ، نظراً لما نشب بينه وبين سكان مونبلييه من منازعات ، ولما اضطر إليه من تخصيص جميع عنايته لمقاومة الأشراف الثائرين فى أراجون ؛ هذا إلى ما كان يراه من أن محاربة المسلمين كانت أهم وأجدى .

أما عداوته للقلدين ، فتبدو واضحة فى أنه حينما أرسل البابا أنوسان حملة صليبية ضد الكونت ريمون روجيه صاحب بزيه ، والتمس الكونت إلى بيدرو معاونته بوصفه تابعا له ، أبى بيدرو ، وخربت بزيه وقتل أهلها سواء كانوا ملاحدة أو مؤمنين ؛ وأقنعت أربونة نفسها بالبادرة إلى الخضوع ؛ وأما قرقشونة التى تولى الكونت بنفسه الدفاع عنها ، فقد أرغمت — بعد أن رفض بيدرو الشفاعة المنشودة فى شأنها — على التسليم من أثر الجوع ؛ وأسر الكونت ، ولبث طويلا فى الأسر ، ثم قتل بطريقة لا نعرفها ؛ ومنع المندوب البابوى أملاك الكونت الأسير إلى الكونت سيمون دى مونفور دون أن يستأذن فى ذلك صاحب الجزية . وغضب ملك أراجون من ذلك أيما غضب ، وأبى إقرار هذا التصرف ،

وشجع فرسان الولاية على الثورة ضد سيمون بأن وعدمه بالتأييد والمون . بيد أنه كان من صفات بيدرو أن لا يثبت في تصرفاته على حال ، ولا يبق بمهوده ووعوده . ذلك أنه ما لبث أن نزل على رغبات البابا ، لكي يحصل بذلك على طلاق زوجه النبيلة ماري دي مونبلييه ، وصادق على تعيين سيمون دي مونفور أميراً (كونتاً) لقرقشونة ، أملاً في تحقيق هذا الطلاق . وفي سنة ١٢١١ م ، تلقى ملك أراجون عهد الطاعة من الكونت ، ووعد فوق ذلك بتزويج ابنه «جام» أو بمقبوب من بنت الكونت ، وأرسل ابنه الطفل مع الكونت ليتربى في بلاط قرقشونة ، عربوناً للوفاء بهذا الوعد .

بيد أنه ما كاد يرضى البابا ، ومطارد الألبين (ريد الكونت دي مونفور) بهذا التساهل ، حتى عاد فأغضبهما ، بتحالفه الوثيق مع الكونت ريمون دي تولوز الذي كان المندوب البابوي وسيمون دي مونفور يعملان لاغتصاب ولايته ، ورأى الكونت ريمون أن يعمل على اجتثاث ذلك ، فتنازل عن الولاية لابنه الذي زوجه ملك أراجون بأخته سانشا . ولما عمد سيمون دي مونفور إلى حصار تولوز ، رد عنها بمخسرة . ولكن سيمون الذي سما ببراعته الحرية ما لبث أن استرد طاعته ، وعاد — ضد إرادة البابا — يتابع بنفسه فتوحاته في أراضي الكونت دي تولوز ؛ وعندئذ حاول صهره بيدرو أن يسمى لدى البابا بكل ما وسع لعقد الصلح بين الفريقين ؛ فمول البابا على عقد مؤتمر اجتمع في مدينة آرل في سنة ١٢١١ م ، تحت رئاسة المندوب البابوي ؛ وشهد ملك أراجون والكونت دي تولوز . ولكن طلبت إليهما شروط مهينة ففادرا المدينة آسفين ؛ وأصدر المؤتمر قراره ضد الأضعف أي الكونت دي تولوز ، بالحرمان الكنسي ، ووافق البابا على هذا القرار ؛ وتولى الكونت سيمون دي مونفور تنفيذ هذا القرار بنجاح خصوصاً وأن ملك أراجون كان مشغولاً في ذلك الوقت بمحاربة المسلمين في موقعة العقاب .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته وعلم بما أصاب الكونت دي تولوز

الكونت دى قوا والكونت دى كومينج من الشدة على يد الحملة الصليبية ، هول على التدخل لدى البابا من أجل أسدقائه مرة أخرى . ولكن كل ما استطاع الوصول إليه هو أن المسألة كلها بحثت في مؤتمر جديد عقد في « لافور » ، وحال فيه عنت النندوين البابويين وتمصبهم دون الوصول إلى أية تسوية ، ورفضت فيه أعدل المطالب بإباء مثير ، بل لم يبلغ فيه التماس الكونتات إلى البابا .

فعمدئذ استشاط بيدرو لذلك غضباً ، واعتزم أن يساعد الكونتات الطاردين وأن يحميهم بكل ما وسع ، وأن ينزل ميدان الحرب ضد خصومهم جهاراً ، ووجه نغمته بادی دى بدءه إلى تابعه الكونت سيمون دى مونفور أداة العنف البابوى ، ودعاه إلى النزال ، وأعلن بطلان حق الجزية الذى منحه إياه ؛ فحاول الكونت في البداية أن يهدى غضب الملك ، ولكنه لما رأى خيبة مسماة نهض لمقاومته مع جميع السادة التابمين له وأعلن الحرب ضده جهاراً في خدمة الكنيسة . ولم تشر دعووات البابا عمدئذ إلى السلم ، ولم يحدث وعيده لبيدرو بالحرمان إذا لم يكف عن حماية الملاحدة أترأ ؛ ذلك أن التمصب والخبث كانا يرميان بالاحاد عمدئذ كل مجاهد ضد العنف والظلم والجشع .

ونزل بيدرو ميدان الحرب في ربيع سنة ١٢١٣ م إلى جانب الكونت دى تولوز والكونت دى قوا والكونت دى كومينج ، معترفاً أن يرد عليهم أملاكهم . ولما وصل إلى قلعة موريه التى تقع على قيد بضع ساعات من تولوز وحاصرها خف سيمون دى مونفور في جيشه الصليبي إلى لقائه . ولما كان الحلفاء قد أعملوا احتلال المضائق الجبلية التى كانت تحول دون تقدم الجيش الصليبي ، فقد استطاع هذا الجيش أن يمر نهر الجارون وأن ينفذ إلى قلعة موريه المحاصرة ، وأن يدعو بيدرو إلى خوض المعركة في اليوم التالى ، وهو الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ ، وكان ملك أراجون في نصرته فارساً شجاعاً أكثر منه قائداً حريصاً . ذلك أنه رفض نصيح الكونت دى تولوز الحكيم بأن يترك الهجوم للمدو ، حيث يصبح نصرهم في تلك الحالة أمراً محققاً ، وحملته شجاعته وشهوته للحرب أن يستبدل سلاحه

الملكى بسلاح فارس ، وأن يتقدم إلى لقاء العدو في أول صف ؛ على أنه عرف ، بالرغم من تنكره ، ووجه الأعداء المجهوم إليه ؛ ولكن الملك البطل لم يرعه ذلك ولبت يرد الفرسان الذين ينتفضون عليه من كل صوب ، حتى سقط صريحا ؛ وكان موته ضربة شديدة للجيش التحالف الذى كان مؤلفا بالأخص من الجند المشاة ؛ ومع أنه لم يشتبك في الموقعة بعد — إذ الواقع أن بيدرو كان يقاتل في نفر من الفرسان ، فرسان الصليبيين بقيادة الكونت سيمون — فإنه لم يلبث أن ركن إلى الفرار بلا انتظام وقد سرى إليه الروح ، وحلت به الهزيمة الساحقة ؛ وزعم خصومه بذلك أن نصرهم كان معجزة ، إذ قالوا إنهم استطاعوا بألف وخمسة مائة مقاتل — هم الفرسان الذين اشتبكوا مع فرسان بيدرو — أن يهزموا جيشا من مائة ألف .

وقد اشتهر بيدرو حتى بين خصومه بالفروسة والشجاعة ؛ وكان يدعمهما ما يتمتع به من قوام ضخيم ، وقوة جسمية نادرة . وكانت خلاله مثل معاصره الملك ريتشارد الإنكليزى ضاربا محجيا من العواطف النبيلة والكريمة واللوكية ، مع الصلابة والقسوة والإصراف والتهتك . وكان شاعرا فنانيا (تروبادرو) — وقد انتهت إلينا قصيدة من شعره — ومغنيا للحب ، وحاميا كريما للنساء ، ولكنه كان في تصرفه نحو الأم والزوج قاسيا متجنيا . وكان كثير التقلب في أهوائه ؛ وقد أراد أن يفصل عن زوجه النبيلة ماري دى مونبليه التي اشتهرت بالفضيلة والتقى ؛ والظاهر أن البابا أنوسان الثالث كان يميل في البداية إلى إجابة مطلبه ، ولعل ذلك من باب السياسة حتى يستميل إليه بيدرو ؛ فلما أعلن بيدرو نفسه حاميا ومدافعا عن الأسراء المطاردين في لانجدوك ، أبى البابا نزولا على نصيح الكرادلة أن يمنحه الطلاق المرغوب .

الفصل الرابع

تاريخ مملكة ليون وقشتالة

منذ موقعة العقاب حتى اتحادها

ما لبثت المنازعات أن تارت بين ليون وقشتالة عقب موقعة العقاب والنصر على الموحدين ، وأضرت بسير الفتوح ؛ ثم اقتضى التزام المدينة والقمود عن الحرب فخطّ مسرع ، عصف بشبه الجزيرة كلها ، ولا سيما قشتالة ، وقضى الجوع على حياة ألوف عديدة ، واضطر المرسرون أنفسهم إلى تناول أغذية كانوا يأنفون منها من قبل ، ومن ثم كان من التعمذر التفكير في تنظيم حملة كبيرة لمقاتلة المسلمين ، وأخفقت الحملات الصغيرة التي نظمت لأن الجيوش كان ينقصها الطعام .

ولم يمض سوى قليل على مقدم ألفونسو النبيل إلى طليطلة عاصمة مملكته ، حتى وصلته الأنباء باعتداء ملك ليون على أراضيه . وكان ملك ليون قد احتل القلاع الواقعة على ضفاف دويرة على حدود الملكتين عقب إخلائها من الجند ، وادعى أن قشتالة انتزعتها ظلماً من ليون ، وشجعه هذا النجاح على إعلان الحرب على ملك البرتغال أيضاً ، وكان قد استولى عنوة على أملاك أختيه ؛ وسار ألفونسو ملك ليون من مدينة ردرىك وجليقية بجيشين لمحاربة البرتغاليين ، وهزمهم هزيمة ساحقة في « بورتلادى بالديفر » .

ولم يكن ألفونسو النبيل ملك قشتالة إزاء اضطرام الخصومة بين الأمراء النصارى على هذا النحو ليتوقع نجاحاً في محاربة المسلمين ؛ وكان ألفونسو أقل

هؤلاء الملوك أطاعا ، وكان يرجو مخلصاً أن يسود السلام بين النصارى ، ولهذا لم يكن يتردد في بذل أية تضحية تقتضيها مصلحة اسبانيا . وقد سعى إلى عقد الصلح بين ليون والبرتغال ، ليستطيع حملهما على التعاون في حملة مشتركة ضد المسلمين ، وزاد على ذلك أن نبذ كل فكرة في استرداد الأماكن التي انتزعها الليونيون قسراً على حدود مملكته ، ورأى أن يهدم بمض القلاع المجاورة لتطمينا لملك ليون وإزالة لشكوكه ، وفي نظير ذلك وعده ألفونسو ملك ليون بالماونة في الحملة القادمة ضد الموحدين . ولكن ألفونسو ملك قشتالة نزل وحده إلى ميدان الحرب في أوائل العام التالي في سنة ١٢١٣ م ، ومع أنه افتتح القصر (أو قصر أبي دانس) وتقدم بجيشه من طلبيرة إلى بسائط أشبيلية ، فإن الحملة كلها أخفقت لأن الأمداد الليونية والبرتغالية لم تصل به واستطاع المسلمون في أشبيلية أن يردوا فرق النصارى الخفيفة ، وأن يقيموا بامرة قائدهم على أراضي قشتالة ، بيد أنهم عادوا فارتدوا بسرعة أمام أهل طليطلة .

وفي أواخر هذا العام وفي ألفونسو ملك ليون بعده ، وسار إلى محاربة المسلمين ؛ ورحف إلى القنطرة تعاونه فرقة من الفرسان القشتاليين وافتحمها ، بينما سار ملك قشتالة إلى الأندلس معولاً أن يلتقي هناك بجيش ليون ؛ ولكنه علم أن ملك ليون بعد أن حاصر «كاسيرس» عبثاً ، ارتد إلى أراضيه ؛ فوجه عندئذ جيشه إلى أشبيلية ، وسار إلى بياسه وحاصرها ثلاثة أشهر دون جدوى . ولكنه اضطر من جراء نقص المؤن وتفشى المرض وبشدة الإعياء في جيشه أن يعود أدراجه دون أن يحقق شيئاً يذكر .

والظاهر أن القحط العظيم الذي عصف باسبانيا يومئذ ، قد أرغم قادة الحرب على أن يلتزموا السكينة حيناً ، فلا يتحدثوا بشيء من أخبار الحرب في أوائل سنة ١٢١٤م ؛ وفي ذلك الحين سار ألفونسو ملك قشتالة إلى برغش ودعا ألفونسو ملك البرتغال إلى لقائه في «بلازنسيا» على حدود المملكة ، وربما دعى ألفونسو ملك ليون إلى هذا الاجتماع أيضاً . ومن الواضح أن هذا الاجتماع المدبر كان يرى أولاً

إلى توثيق أواصر السلام بين القصور النصرانية المتجاورة المرتبطة بروابط القرى،
وثانياً إلى تنظيم حملة مشتركة ضد أعداء النصرانية ؛ ولكن حدث أثناء هذه
التدابير أن مرض ملك قشتالة وهو في طريقه إلى بلازسيا ، في قرية على مقربة
من اريشالو . وفي السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ توفى ألفونسو النبيل ، ومن
حوله زوجه الملكة الينورا وابنته برنجاريا والمطران رديك الطليطلى ؛ وتوفى في
الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حمل لقب ملك قشتالة أكثر من خمسين عاماً ،
ودفن في دير لاس ولجاس في برغش ؛ ولبثت صورته التي ربما رسمها مصور
معاصر ، محفوظاً - عصرآ - في إحدى كنائس برغش ؛ وهو يبدو في هذه الصورة
متوسط القد بوجه وسيم يفيض حياة ، ووجهة مستديرة ، وشعر أسود ، وعينين
زرقاوين ، وأنف أقي . وتجمع الروايات كلها على مديحه ؛ وكان يتقد خمسة لفنشر
الدين المسيحي ، ومن ثم كانت غزواته المتوالية ضد المسلمين ، وقد ضحى في هذا
السبيل بما لم يرضه أى ملك أسباني آخر في هذا العصر ؛ وكان بذله للكنائس
والأديار ، وعطفه على الفقراء ، وعذله الشامل ، وشهامته نحو الأعداء ، وشجاعته
في الحروب ، تكسبه احترام الأحرار والفرسان والشعب ، وكذلك احترام
المسلمين . وقد عمل بالأخص على رفع شأن الطبقة الوسطى لتكون عضداً جديداً
للمعرش ضد مطامع أمراء المملكة الأقوياء ؛ وكان نصيراً للفنون والعلوم ، وقد
خلد ذكره بإنشاء أول جامعة نصرانية في اسبانيا ؛ وأنشئت في بالانسيا في سنة
١٢٠٩م ، بناء على اقتراح المطران رديك الطليطلى - وكان عالماً كبيراً قام
بدراسات كثيرة في باريس وإيطاليا - كراسى لدراسة العلوم الدينية والمدنية ،
واستدعى لها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا ، وأجريت عليهم الأرواق السنوية ،
وعينت أيضاً برعاية الفنون على يد أقطاب الفن . وتقلت هذه الجامعة النصرانية
الأولى في اسبانيا فيما بعد إلى بلد الوليد ، وليس إلى شلنقه كما يزعم خطأ بعض
الكتاب المحدثين . وكل ما يأخذه المؤرخون الأسبان على هذا الملك العظيم أنه
كان يشغف بيهودية حسناء شغفاً مبرحاً ، وأنها لبثت سبعة أعوام تسيطر عليه ،

وفي وسعنا أن ندرك لماذا أُلزم الحبران الماصران ، ردريك الطليل ولوقا التطيلي ، الصمت إزاء هذا الغرام المشين في هذا العصر .

ولم يعيش من أبناء ألفونسو الأربعة من بعده سوى أصغرهم هنري الأول ، وكان وقت وفاة أبيه في الماشرة من عمره . وتولت أم الملك القاصر الملكة الينورا الحكم بالوصاية عليه لأيام فلائيل فقط ، ثم لحقت بزوجها إلى القبر في ٣١ أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

وعندئذ تولت الوصاية على الملك أخته برنجاريا ، وهي مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ؛ وكانت كبرى بنات ألفونسو النبيل ، وقد جعلها أبوها الملك في وصيته وارثة العرش إذا توفي أخوها وعاشت من بعده ؛ أما أخواتها الأصغر منها فكان ، أوراكا زوجة ألفونسو الثاني ملك البرتغال ، وبلانكا زوجة لويس الثامن ملك فرنسا ، والينورا التي تزوجت فيما بعد من يعقوب (جايم) ملك أراجون . وأما تولى برنجاريا للوصاية أيما قلق ؛ ذلك أن الكبراء القشتاليين الطامعين كانوا يكرهون أن يربي ملكهم المستقبل على يد امرأة ، ويكرهون من جهة أخرى أن تبقى الحكومة حتى بلوغ الملك لرشده — وقد حدد بسن الرابعة عشرة — في يد غير أيديهم . وكان على رأس أشرف قشتالة ، أسرة لارا الشهيرة القوية ، التي بذلت كل ما في وسعها لتجمل الملك الطفل في حوزتها ، لكي تفوز بما فاز به أسلافها وقت حداثة ألفونسو النبيل من القبض على زمام الحكم . ولم تقو الأميرة الوصية برنجاريا لضعفها على مقاومة الأشرف الأقوياء ، الذين كان يظهرون رجال الدين وفريق من الشعب ؛ ورأت خشية من أن تزج بقشتالة في غمار الحرب الأهلية من جديد ، أن تأخذ بالنصح السوء ، وأن تنزل مختارة عن الوصاية ، وذلك في مجلس عقد في برغش في سنة ١٢١٥ م ، وأرغمت أن تعين مكانها في الوصاية الكونت القارو نونيز دى لارا ، ليتولى الحكم وليسهر على تربية الملك الطفل . على أنه أُلزم بأن يقسم بين يدي المطران ردريك الطليل ، بألا يزال حقا من حقوق السيادة قبل إخطار الملكة (هكذا كانت تسمى برنجاريا يومئذ نفسها) وموافقها ، وفي ذلك

ما يدل على أن برنجاريا لم تنزل في الواقع عن الحكم ، ولكن تخلت فقط من إدارة المملكة وتربية الملك إلى الأشراف وإلى أسرة لارا زعيمة الأشراف . وكان مما احتفظت به برنجاريا من حقوق السيادة ، توزيع الاقطاعات واستردادها ، وإعلان الحرب ، وعقد المحالفات ، ورفع الضرائب والرسوم ؛ فكل هذه الحقوق لا يزاؤها القارو نونيز ؛ وكان عليه أن يتولى كل ما يتعلق بشخص الملك وشؤون المملكة ، وأن يترك الجميع في حقوقهم ووظائفهم ، وأن يمقد السلام مع الممالك النصرانية المجاورة .

وما كاد الكونت القارو دي لارا ، يتسلم الملك بناء على ذلك ، حتى عمد إلى الحكم دون أن يتقيد ذرة بنصوص القسم . بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن المصدر الذي نستقي منه ما يتعلق بطروف قشتالة يومئذ ، كان من المعارضين صراحة لأسرة لارا ، ولئن صدقنا كل ما يرويه ردرريك الطليطلى — وهو يخفى مع ذلك أنه يضطرم بنفصاً لآل لارا — فإن الكونت القارو نونيز آثار بطانياته بنفص جميع الطبقات ؛ فطارد الأشراف ، ونهب أموال التجار الأغنياء في المدن ، واستولى على جزء من أعشار الكنائس بحجة أنه يحتاج إلى هذا المال لهاربة المسلمين ؛ ولم يمنعه من المضي في مطاردة رجال الدين سوى القرار الكنسي الذي أصدره ضده المطران .

ولأرب أن برنجاريا تحمل بعض التبعة في نشوب الحرب الأهلية . ذلك أنها اضطرت سخطا لانتزاع الوصاية وتربية أخيها منها ، فسعت إلى تحريض أصدقائها للعمل على إسقاط الوصاية الجديدة ، وإعادة الملك الطفل إلى حوزتها ؛ واجتمع فريق من الأشراف الذين ينتمون تفوق أسرة لارا في بلد الوليد وقرروا إعادة الوصاية إلى الدونا برنجاريا . ومن ذلك الحين شهر الكونت دي لارا عليها الحرب علانية ، فنزع أملاكها وأسرها بمناداة المملكة ؛ فلجأت برنجاريا إلى حصن « أولتليو » وشجعت أنصارها على المضي في المقاومة وبذلك سارت الحرب الأهلية سيرها . وحالت بقظة الكونت القارو دون فرار الملك الطفل إلى أخته ؛

ورأى تمكيناً لسلطانه عليه ، أن يزوجه بالرغم من أنه لم يجاوز الثانية عشرة ،
وسافر الكونت بنفسه إلى البرتغال وحمل ملكها ألفونسو الثاني على الموافقة على
تزويج أبنته بالملك هنرى ، واصطحب معه الأميرة ، واسمها مافلدا إلى قشتالة
وعقد زواجهما على الملك . على أن الكونت لم يوفق إلى تحقيق غايته ، ذلك أن
الملك الطفل لم يبد ميلاً إلى زوجه . وأعلن البابا أنوسان الثالث ، بناء على طلب
برنجاريا ، بطلان الزواج بسبب القرابة الوثيقة ، وذلك على يد أسقفى برغش
وبالابسيا ، وهكذا عادت مافلدا إلى البرتغال ، وذلك بعد أن حاول الكونت
دى لارا عبثاً أن يقترب منها .

وحدث أثناء أن كان الوصى يقيم مع مايكه فى بلدة مقوده من أعمال ولاية
طليطلة ، أن أرسلت برنجاريا سرا إلى ذلك المكان خادماً ليتحرى عن أحوال
أخيها وطريقة تربيته ، وربما أيضاً لكي يبحث عن خير الطرق لاختطافه .
ولكن الوصى الساهر لم يخف عليه أسر هذا الرسول ، فأمر بالقبض عليه وإعدامه
وزعم الكونت أنه عثر معه على خطاب بخاتم برنجاريا وتوقيعها ، وفيه مايدل على
أنها كانت تعزم أن تقتل أخاها بالسّم ؛ ولكن قليلاً من الناس آمن بزعم الوصى
وكاد الرأى يجمع على تبرئة برنجاريا من مثل هذا التدبير المشين ، ويستشف منه
خبث الكونت دى لارا . ولما كان رجال الدين ، وفريق من الأشراف ، وعدة
مدن ، يناصرون برنجاريا - وهو ما اضطر الكونت إلى مفادرة ولاية طليطلة
والذهاب إلى وبدة للإقامة فيها - فقد رأى الكونت إزاء تفاقم غضب الشعب
وازدیاد قوة الملكة ، أنه لابد من معالجة الموقف بسرعة ، والضرب على يد أعدائه
قبل أن يظفروا بالتغلب عليه ؛ فأعلن باسم الملك الذى يصطحبه أينما كان ، ويحرمه
بكل ما وسع ، أن الذين يناصرون حزب برنجاريا يعتبرون جميعاً عصاة خائنين ،
وكان الإحجام عن محاربة الملك عظيماً إلى حد أن المدن وجوع الشعب انضوت .
كلها تحت لواء الوصى ، ولم تستطع حصون الأشراف الذين يعضدون برنجاريا ،
أن تقاوم القوى المتغلبة عليها مقاومة ناجحة ، كذلك بدت الملكة وقد فقدت كل

شجاعتهما وعزمهما؛ ومع أنها لم تنزل ميدان الحرب ضد الكونت، فقد كانت جوعها تنافس كل يوم، وكانت الحصون الموالية لها تسقط تباعاً في يد الكونت.

وفي الوقت الذي يئست فيه الملكة برنجاريا من كسب قضيتها وامتنعت مع نفر قلائل من الأشراف المخلصين ببعض الحصون النسيمة، وأخذ الوصي عمن في مطاردة جميع الدين خاصموه، حدث حادث فجائي حول مجرى الحرب الأهلية إلى اتجاه جديد. ذلك أن الكونت القارو نونيز غادر بلد الوليد بعد أن أقام فيها مع الملك حيناً، إلى بالانسيا؛ وهنالك نزل في قصر الأسقف، وقرر أن تكون نفقات البطانة الملكية من أموال الأسقفية، وفي ذات يوم كان الملك الفتى يلعب في الفناء مع بعض أقرانه من أبناء الأكابر، فانطلق أثناء اللعب سهم أحد أبراج القصر، فسقطت منه قطعة من الآجر، فأصاب الملك في رأسه وجرحته جرحاً بالغاً توفي منه لأيام قلائل، وذلك في السادس من يونيو سنة ١٢١٧ م. ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة بعد، ولم يكن قد مضى على وفاة أبيه سوى عامين وثمانية أشهر، ثم تبعه إلى القبر.

ولابد أن هذا الحادث المحزون قد اعتبر في قشتالة توفيقاً عظيماً، ذلك أن الدعامة التي كان يستند إليها سلطان الوصي السنباطي الطامع، وهي الملك الذي يحقق باسمه كل عسف، قد انتهت، وكان الملك ألفونسو النبيل قد سن في وصية سابقة له أنه إذا توفي دون عقب من الذكور، فإن عرش قشتالة يؤول من بعده إلى كبرى بناته الدونا برنجاريا، ثم إلى أعقابها الشرعيين، ولما كان الأشراف والأشراف قد وافقوا على وصية ألفونسو هذه، ولم يبق كذلك عذر لأنصار أسرة لارا في رفض الطاعة للملكة، فقد بويعت بالطاعة في الحال على يد المجلس النيابي (الكورتيس) المنعقد في بلد الوليد، وذلك بالرغم من تخلف الوصي عن الخضوع؛ وكانت المرأة الدكية، حالاً وقفت على موت أخيها الملك، وكان الكونت القارو يجتهد في إخفاء النبا — قد أرسلت بعض خاصتها إلى ليون، حيث أحضروا معهم ولدها فرديناند الذي رزقت به من زواجها بملك ليون ألفونسو التاسع، وهو الزواج الذي ألغاه البابا.

ولم يرد الكونت دى لارا أن بمقد أى تفاهم ما لم يسلم إليه الاتفانت (ولى العهد) فرديناند الذى يرث العرش بعد وفاة أمه ، ليقوم بتربيته وحراسته ، ولكن برنجاريا لم تقبل قط مثل هذا الحل بعد الذى شهدته من عبر التجربة الماضية . وهنا قامت فى البلاد أحزاب ثلاثة ، كان أقواها الحزب الذى ينضوى تحت لواء برنجاريا الملكى ، وكان الأحرار والشعب يخلصون لها ، وكذلك الفرسان من خصوم آل لارا . وكان على رأس الحزب الثانى الكونت القارو نونيز دى لارا ، وتحت يده جيش لا بأس به ، وفى حوزته كثير من الحصون ؛ وإلى جانب هذين الحزبين المتخاصمين ، كان ثمة خصم ثالث هو الفونسو ملك ليون ، زوج برنجاريا السابق ، ووالد ولى العهد فرديناند ، وكان يدعى عرش قشتالة باعتباره أكبر أعضاء الأسرة سنا ، وقد أرسل أخاه سانشو فى جيش كبير إلى قشتالة للاستيلاء عليها . وعندئذ بادرت برنجاريا بمؤازرة القوات والفرسان فى قشتالة الجديدة واسترامادوره ، إلى اتخاذ إجراء حاسم لسحق الحزبين الخصيمين . ولما كانت تعلم حق العلم أن الشعب القشتالى لا يرضى عن حكم النساء ، فقد اعترمت أن تضحي بنفسها فى سبيل ولدها ، فأعلنت تنازلها عن حقوقها فى العرش لولدها فرديناند — وكان يومئذ قد بلغ الثامنة عشرة من عمره — وذلك فى الميدان الكبير فى بلد الوليد ، وسلمته مقاليد الحكم فى محضر حافل من الناس ، وفى ٣١ أغسطس سنة ١٢١٧ ، تلقى فرديناند الثالث الذى لقب بالقدس فيما بعد ، عيّن الطاعة فى كنيسة بلد الوليد الكبرى . وحلت هذه الخطوة الحاسمة ملك ليون والكونت دى لارا على الاتحاد ، وذلك بعد أن حاول الكونت عبثاً أن يمرض قلب الثانى ملك فرنسا ووالد خلفه لويس الثامن زوج الأميرة بلانكا أخت برنجاريا الصغرى ، على غزو قشتالة والاستيلاء عليها . وبينما سار الفونسو التاسع ملك ليون فى قواته إلى برغش متناسياً صالح أسرته إلى حد أنه تحالف مع الثاثرين وشهر الحرب على ابنه الذى جعله وارث العرش من بعده ، كان الكونت القارو يحاول بمؤازرة إخوته وأنصاره أن يضرم نار الحرب الأهلية فى جنوبى قشتالة .

وحاولت برنجاريا في البداية بالرجاء والإقناع أن تحول دون تحالف قوات ليون وقوات الثوار ، وتوسط أسقفا برغش وبلنسية لدى زوجها السابق في هذا السبيل ، ولكن الملك الطامع المتحفز لم يرد أن يصنى إلى شيء من هذا الرجاء — وقد كان يضطرم سخطا ، لأنهم رفعوا ابنه إلى العرش دون إذنه ، مع أنه هو صاحب هذا العرش في زعمه ، قضى في توغله في قشتالة ، وأسرع إلى برغش عاصمتها القديمة يحاول افتتاحها ، ولكن ما اتخذته برنجاريا من الإجراءات الحكيمة وما أبداه فرديناند من الحزم والشجاعة ، وما أبداه سواد الشعب القشتالي من الفيرة في مؤازرته ، ما لبثت أن حلت ملك ليون على أن يعود أدراجه إلى أراضيه ، ذلك أنه شهد حين محاصرته لبرغش ، كيف يتفانى القشتاليون في الدفاع عنها ، وآنس في جيشه القصور والمعجز ، فبادر بالعودة إلى ليون قبل أن تحمل به الهزيمة وهو ساخط أشد السخط لأن السكونت دى لارا خدعه بتصوير ميول الشعب القشتالي على غير حقيقتها .

ولما زال الخطر الدائم من ناحية ليون بسلام ، وحُطِم أنصار السكونت دى لارا بالعتف والبطش ، عمد فرديناند إلى الاحتفال بدفن رفات سلفه الملك هنرى ، وكان جثمانه لا يزال في حوزة أعدائه ، فدفن في المقبرة اللوكية في برغش بأعظم تكريم .

وبدأ فرديناند حكمه في ظروف صعبة ، بالرغم من المزايا التي حققت . ذلك أن كثيراً من الحصون في ولاية ريوجا وفي قشتالة القديمة ، وكذلك على ضفة نهر دويره اليمنى كانت لا تزال في أيدي آل لارا ؛ بل إن برغش نفسها لم تكن في مأمن ؛ وعاث الثوار أيعا عيث في أنحاء مختلفة من قشتالة دون أن يتمكن فرديناند من قمع غزواتهم ؛ وكانت أسرة لارا تحتكم على أموال طائلة ، وفي وسعها أن تحشد من الجند ماشاءت ؛ أما ملك قشتالة ، فكانت بالعكس في أشد الحاجة إلى المال ، حتى أن والدته اضطرت أن تبيع جميع حيازها للمعاونة في نفقات الحرب ، وهكذا كان فرديناند عاجزاً عن متابعة الحرب ؛ وهنا حدث حادث في غاية

التوفيق ، وهو أن الكونت دى لارا وقع أسيراً في يد فرسان الملك ، في الوقت الذى كان يتأهب الفريقان فيه لخوض المعركة على مقربة من بالانسيا Palencia ؛ فالتى الثوار أنفسهم بلا زعيم ، واضطر الكونت لكي يفتدى حريته ، أن يقطع عهداً بالخضوع ، وأن يسلم الحصون التى يحتلها أنصاره . ولم يمض قليل حتى اضطر أخوا الكونت ، وهما فرديناند وجوازالز ، إلى الخضوع أيضاً وتسليم ما بيدهما من الحصون . والظاهر أن وعيد البابا هونوريوس بأن يقضى بالحرمان على كل تأثر ضد حكومة فرديناند كان له أثر عميق في إخماد الحرب الأهلية في قشتالة (سنة ١٢١٨ م) . ومن ذلك الحين ساد سلطان فرديناند في أرجاء قشتالة كلها .

ولكن آل لارا الثائرين لم يخلدوا إلى السكينة طويلاً . فلم يمض نصف عام حتى ناروا من جديد وزحفوا على منطقة بالانسيا بقوات كبيرة وخربوها كما يفعل الأعداء . ولما سار فرديناند في جيش كبير لمحاربة الثائرين مرة أخرى ، ورأى آل لارا أن قواتهم دون قوات الملك ، ساروا إلى ليون ليطلبوا الدد منها وأفلحوا في تحريض الأب على محاربة ابنه مرة أخرى ؛ وما كاد الجيش الليونى يمبر حدود قشتالة حتى أرسل فرديناند قوة إلى ليون لتعيث في منطقة شلنقة ؛ ولما التقى الأب والابن وجها لوجه ، حاول بعض الأساقفة والكبراء التوسط بينهما لعقد الصلح قبل الالتحام في المعركة ، وعاون مرض الكونت دى لارا الفجائى على ميل ملك ليون إلى إيثار الصلح ، وعقدت الهدنة في الحال بين الفريقين . وما لبث الكونت المريض أن توفى وهو بضطرم سخطا لأنه لم يكن في سعيه لتحطيم عرش فرديناند أكثر توفيقاً . وارتنى الكونت قبيل وفاته ثياب جماعة شت ياقب ، ودفن في اقلش على نفقة الملكة برنجاريا التى كان في حياته أشد الناس خصومة لها ، ذلك أن الكونت أنفق كل ماله في الحرب وتوفى فقيراً . وهكذا عقد السلام الدائم بين قشتالة وليون ؛ واقتنع ملك ليون أخيراً بأنه ليس من اللائق أن يعصد الثائرين على ولده ، وعاون على محاربة آخر زعيم لأسرة لارا وهو الكونت فرديناند شقيق القارو ، حتى اضطر إلى الفرار من المملكة (سنة ١٢١٩ م) ، ثم عبر البحر إلى

مراكش ملتجئاً إلى المسلمين ، ولم يلبث أن توفي هنالك مرتدياً قبيل وفاته ثياب فرسان الاسبثارية .

ولما أستتب السلام في المملكة ، احتفل فرديناند في برغش بزواجه بالأميرة بياتريس ابنة القيصر فيليب فون هو هنتاوفن . وقبل عقد الزواج أعلن الملك نفسه فارساً وارتدى ثياب الفرسان بعد أن باركها له أسقف برغش ، وشهد هذا الحفل كبراء المملكة مع نسايتهم ، ونواب الطبقات ، وعدد كبير من الفرسان .

وحدثت في الأعوام التالية في قشتالة وليون ثورات عديدة قام بها بعض الأشراف النصارى ، ولكن الوثام لبث بالرغم من ذلك سائداً بين ملكي قشتالة وليون ؛ وكان يقوم بهذه الثورات في قشتالة دائماً أنصار آل لارا ، وكان زعماء الثورة إذا ما رأوا فشل جهودهم فروا عادة إلى المسلمين . وحدث في مملكة ليون خلاف بين الملك وأخيه سانشو فرنانديز ؛ ذلك أن سانشو جمع أربعين ألف مقاتل بحجة أنه سيقودهم إلى مراكش لخدمة سلطان الموحدين ، ولكنه لا عبر حدود ليون إلى الأندلس ، كشف عن حقيقة مشروعه ، وهو أنه يريد أن يؤسس له مملكة مستقلة في اسبانيا ، فانفض عنه معظم الجند ، ولكنه امتنع بمن بقي على ولائه في جبال الشارات (سييرا مورينا) حتى توفي في سنة ١٢٢٠ م في حفلة صيد كان يطارد فيها دباً .

وفي الأعوام التالية ، كان الأب والابن يسيران في قوات قشتالة وليون كل عام تقريباً لمحاربة المسلمين . كذلك كان ملكاً أراجون والبرتغال يسيران لمحاربة المسلمين كلما سمحت بذلك أحوال بلادهما المضطربة ، وكانت قشتالة وليون تعمالان بالأخص على استقلال ما تجوزة الأندلس من الاضطراب والقوضى بسبب انحلال سلطان الموحدين . فكانا يبيعان عونهما للأمراء المسلمين الثائرين تباعاً ، وكانا في نفس الوقت يحاربان ابن هود^(١) الذي خرج على الموحدين وانتزع منهم معظم بلاد

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن هود ، وهو الثائر على دولة الموحدين في أوائل المائة السابعة كما سيبي .

الأندلس ، وبينان بذلك في بلاد المسلمين أعظم ضروب الاضطراب والروع ؛ وسوف نتحدث فيما بعد عن الحروب التي خاضها الليونيون والقشتاليون إلى جانب الموحدين كخلفاء لهم ، ولهذا نقفل ذكرها هنا ؛ ونكتفي بأن نقول هنا إن ألفونسو التاسع ملك ليون حقق لنفسه في تلك الحروب شهرة عظيمة ، وإن فرسان القنطرة عاونوه خير معاونة ؛ وكان قسم من فرسان قلعة رباح قد أخذوا من القنطرة مركزاً لهم ، وجعلوا من أنفسهم جماعة خاصة وأطلقوا عليها اسم هذه القلعة وذلك في سنة ١٢١٩ م ؛ وكانت معظم حروب ألفونسو التاسع ضد ابن هود ، المتغلب على معظم أرجاء الأندلس . ولما افتتح ألفونسو ماردة من المسلمين في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) ، سار المسلمون إلى محاربته في جيش ضخم قوامه ستون ألفاً من المشاة ، وعشرون ألفاً من الفرسان ؛ فلم يرعه تفوق الأعداء في العدد ، واشتبك معهم في معركة أحرز فيها نصراً باهراً ، وكان هذا النصر مثار الدهشة حتى أن بعض الروايات الدينية المعاصرة نسبته إلى عون شنت ياقب (القديس يعقوب) وفرقة من الملائكة ؛ وترتب على هذا النصر أن سقطت بطليوس في يد الليونيين .

وكان هذا النصر آخر عمل حربي قام به ألفونسو التاسع ملك ليون . وحدث أثناء رحلته قام بها ليحج إلى قبر شنت ياقب وليقدم إليه صلاة الشكر عما أحرز من نصر ، أن مرض وتوفي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م بعد حكم دام اثنين وأربعين عاماً ؛ ودفن في بلدة شنت ياقب حيث يرقد أبوه أيضاً ؛ ومع أنه اشتهر بالعدالة والتقوى ولا سيما على يد معاصره الأسقف لوقا التطليل ، فإن التاريخ يقص علينا الكثير من أعماله مما يتناقض مع هذا المديح ؛ وكان ألفونسو يبرز في الفروسة جميع الأمراء التابعين له ؛ وكان كثير البذل لرجال الدين ، يهب كل ما يفتحه من الحروب تقريباً إلى الأديار ؛ كثير البر بالمساكين والمطف عليهم ؛ بيد أنه كان كثير القسوة والبطش نحو الفرسان التاهيين ، يلقي بهم من فوق الأبراج أو يفرقهم في البحر ، أو يشنقهم أو يجرقهم في ماء ينفل ، أو يسلمهم أحياء . وقد استطاع بهذه الوسائل الفظيمة أن يحقق السلام والعدالة في مملكته حسبما يقول مؤرخ معاصر . وكان لسوء الحظ

كثير الإصغاء لوشاية الناصحين المفرضين ؛ بيد أنه كان من صالح المملكة أن كان يصنى إلى رجاء زوجه برنجاريا واقتراحتها مما أدى إلى تهذيب بعض القوانين القديمة وإصلاح بعض العيوب . وكان شغوفاً بالأبنية الفخمة ، وقد شيد منها الكثير في مملكته ؛ فأنشأ في ليون قصرأ عظيماً ، وملجأ لإقامة الساكنين من الوافدين لزيارة شنت ياقب ؛ وبني أبراج ليون التي أزالها المنصور أو هدم بعض أجزائها ؛ وأنشأ بجوار شنت ياقب كنيسة فخمة ، كما أنشأ كثيراً من الأبراج والحصون في مختلف أنحاء المملكة ، وشحنها بالسكان والمقاتلين .

كذلك أصلح ألفونسو الطرق وعيدها ، وابتنى القناطر على الأنهر وأبدى حبه وتقديره للعلوم بتأسيس جامعة شلمنقة الشهيرة في سنة ١٢٢٣ م . وقد ظن البعض خطأ أن الجامعة النصرانية التي أنشئت من قبل في بالانسيا ، قد نقلت فيها بعد إلى شلمنقة ؛ على أن ذلك لم يكن من الميسور يومئذ ، إذ كانت ليون وقشتالة كل منهما منفصلة عن الأخرى ؛ ومن الواضح أن الملك ألفونسو التاسع ، قد احتذى في عمله مثل جامعة بالانسيا القشتالية ، وأبدى بذلك أنه لا يقل في مملكته تقدير الأهمية للعلوم عن مملكة قشتالة .

وقد تزوج ألفونسو التاسع مرتين ؛ ورزق من زواجه الأول بالأميرة البرتغالية الدوناتريزا ، بابنتين هما سانشا ودولشا ، وابن يدعى فرديناند توفي رشيداً في سنة ١٢١٤ م . ورزق من زواجه الثاني بالأميرة القشتالية برنجاريا ، بأربعة ، ابنتين هما فرديناند وألفونسو ، وابنتين هما برنجاريا وقسطنطينة ؛ ومع أن الزواجهن قد ألغيا على يد البابا بسبب القرابة الوثيقة ، فإن الأولاد الذين أعقبوا منهما قد اعترف بصحة نسبهم ؛ وبذا كان فرديناند الذي ولى عرش قشتالة ، عند وفاة أبيه أيضاً صاحب الحق بعروله في عرش ليون ، وبالرغم من أنه كان أصغر بعض أخواته ، فإنه لم يكن لهؤلاء سوى حقوق على التاج ، متى توفي والدهن دون عقب من الذكور ؛ ومع أن ألفونسو التاسع كان قد عهد بالعرش من بعده إلى ولده فرديناند فقد ظهر عند فتح وصيته أن يحمل ابنتيه سانشا ودولشا وارثتين لمملكته .

وكان فرديناند ، حينما تلقى نبأ وفاة أبيه ومضمون وصيته ، يخوض الحرب ضد المسلمين ، ويشغل بحصار مدينة جيان . وانقسمت مملكة ليون إلى فريقين ، أحدهما وعلى رأسه الأساقفة يؤيد ولاية فرديناند ، وهو الذى أقسموا له بمن البطاعة من قبل باعتباره ملكهم المستقبل ؛ والآخر يؤيد نصوص الوصية الملكية ويعتبر الأميرتين هما صاحبتا العرش ؛ وكان الفريق الثانى قويا بالأخص فى سموره وجليقية واشتوريش ؛ وكانت مدينة ليون نفسها تنقسم على هذا النحو ، حتى عمد حاكمها الكونت ديجو دياز ، بعد أن رغب بالمال والوعود ، إلى تأييد حزب فرديناند . وبادر فرديناند إلى ليون دون تأخر ، وفقا لنصح أمه الحكيمة بلارب ؛ وهناك بعد أن أقسم باحترام حقوق الملكة وحرياتهما ، تلقى فى الكنيسة الكبرى بمن الطاعة من رجال الدين والأشراف ونواب الطبقات ، وذلك بالرغم من أن معظم البلاد كانت فى قبضة خصومه ؛ وأسبرت والدة الأميرتين وليتى المهد ، الملكة تريزا من البرتغال إلى ابنتها فى جليقية لكي تشهر الحرب على فرديناند بأقصى ما يستطيع ، واعتزم فرسان قبرشنت ياقب ، وأشراف جليقية واشتوريش أن يؤيدوا دعوى الأميرتين ؛ ولاح أن حرباً أهلية جديدة ستحتاج المالك الأسبانية ؛ ولكن الملكة برنجاريا وقفت بحكمتها واعتدلتها إلى التدخل لوقف الحرب ؛ فدمت الملكة تريزا إلى مقابلتها فى «بلنسية»^(١) الواقعة على نهر منهو ؛ وهنا استطاعت أرملة الملك ألفونسو التاسع أن تسويا فيما بينهما النزاع القائم بين أولادها ؛ واتفق على أن تتنازل الأميرتان وليتا المهد عن جفوقهما فى التاج ، وأن تعترفا بفرديناند ملكا شرعيا على ليون ؛ وفى نظير ذلك تحصلان مدى الحياة على إيراد سنوى قدره ثلاثون ألف قطعة من الذهب .

وعلى أثر هذا الاتفاق أعلن فريناند ملكا على جميع أنحاء مملكة ليون . ومن ذلك الحين تتحد مملكتا قشتالة وليون - ومعهما إسترامادوره وجليقية واشتوريش - نهائيا . ومع أنه لم يصدر يومئذ مرسوم باتحادهما ، فإنه يجب أن

(١) هى غير تفر بلنسية المعروف .

نعتبر من ذلك الوقت (سنة ١٢٣٠ م) ، أنه قد اتخذت بالفعل قرارات هامة فيما يتعلق بوراثة العرش خلاصتها أن قشتالة وليون هما مملكة واحدة لا مملكتان ، وأن العرش فيها يؤول إلى أكبر البنين ، فإذا لم يوجد عقب من الذكور ، آل إلى الفرع النسوي . وقد أسند عندئذ إلى ألفونسو أخى فرديناند الأصغر نصيب في حكومة ليون . واتحاد قشتالة وليون هذا هو أعظم حادث في تاريخ اسبانيا ، في القرن الثالث عشر ؛ وكان نذيراً بإتمام انحلال سيادة المسلمين في اسبانيا ، والحجر الأساسى للفتوحات العظيمة التى قام بها فرديناند في الأندلس .

الفصل الخامس

اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين

في الأندلس

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى الخليفة محمد الناصر بالأندلس فقط ، ولكنها أفضت فوق ذلك إلى تحطيم سلطان الموحدين في المغرب . وإذا كان النصارى لم يوفقوا إلى استغلال ظفرهم في موقعة العقاب بما كان على الذكاء وضعف العدو ، فإن الخلافة الموحدية التي جردت منه كل قواها لم تنهض من هزيمتها قط ، ولم ينقطع ألفونسو النبيل ملك قشتالة طول حياته عن الخروج إلى محاربة المسلمين ، ولكنه كان مفرق القوى بسبب خصومته الجديدة لليون . وكان أشد من ذلك اضطراب الممالك الأسبانية ، وهو ما أدى إلى تأخير غزو المسلمين بضعة أعوام ؛ ويرجع ذلك إلى ما حدث في نحو عامين من وقوع ثلاثة عروش نصرانية تحت سلطان الوصاية ؛ وكان يشغل عرش قشتالة وأراجون ، — وهما أهم ممالك شبه الجزيرة — أميران قاصران ؛ أما البرتغال فكان يشغل عرشها ملك يفتل لديه الدهاء والطمع أكثر مما تغلب الشجاعة وصفات الفروسة . وبينما كانت الممالك النصرانية — وهي تتمتع عندئذ بقسط عظيم من القوة والمنمة — تتحدر على هذا النحو إلى الاضطراب والفوضى ، في ظل الوصايات المخربة ، وما يترتب عليها من حروب أهلية تضطرم خلالها أطباع الأشراف ، والبنضاء والتنازع والجهد ، وقرارات « الحرمان » ، والقتل والتخريب ، إذا بسلطان الموحدين

ينهار في الأندلس أولاً ، ثم ينهار بعد ذلك في المغرب ، وتقوم على أنقاضه أسر جديدة ، ولكنها لا تضارع الموحدين في قوتها ومنعتها .

غادر محمد ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعاً إلى إشبيلية ؛ وهناك سحق في بادرة من غضبه جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس الذين كانوا في مقدمة الفارين من الموقعة ، والذين ينسب إليهم هزيمته ؛ فقتل منهم عدة ، وعزل منهم من كان يلي مناصب النفوذ والثقة . بيد أنه لم يذكر أن البغض يثير البغض ، فبعد أن صب جام غضبه على الأندلسيين كالنمر الغتريس ، عاد إلى إفريقية لا لكي يمشد جيشاً جديداً يسترد به هيبة الموحدين الحربية ، ولكن لكي يحاول نسيان كدره وهزيمته بالانفاس في ملاذه وشهواته . ولم يبق يومئذ بشيء من شؤون الحكم سوى أن عين لولابة عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالسنتنصر بالله^(١) ، وكان يومئذ طفلاً في الماشرة من عمره ؛ ولما انتهى من هذا التعمين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه . وقضى هذا الأمير الذي كان يشغف بالحرب والجهاد ، أمداً قصيراً ، لا يجاوز العام ، في هذا القصر الصاخب ؛ ثم دس له خدمه السم ، فانتزعه من مسراته ، وأودى بحياته ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وذلك في الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٣ م)^(٢) . وقد حكم خمسة عشر عاماً وبضعة أشهر . أما الرواية التي يقول بها مؤرخ عربى ، ومقادها أن محمداً كان يشتغل بمشدد جيش آخر لكي يمحو هزيمته ، وأنه توفى أثناء أهباته بمدينة سلا ، فهي خلط ظاهر

(١) في روض القرطاس أنه لقب بالسنتنصر بالله (س ١٦٠) ، ولكن في ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٥٠) وفي الحلل المشية (س ١٢٢) أنه السنتنصر بالله .

(٢) إن ما يورده المؤلف عن أيام الناصر الأخيرة ووفاته يتفق مع رواية صاحب روض القرطاس (س ١٦٠) بيد أنه يقول لنا إن الناصر توفى مسموماً بأمر وزرائه ، حيث دست له إحدى الجوارى السم في قنق من الخمر ، لأنه كان قد عزم على قتلهم ، فاجلوه بالقتل . وجاء في الحلل المشية أنه توفى ما وعما (س ١٢٢) .

بما حدث في وفاة عبد المؤمن . ومع أن الناصر كان بطبيعته يتمتع بخلال بديمة فإنه مذول الحكم ، ترك إدارة الشؤون لطائفة من الوزراء الكرويين ومنهم من هو عاطل من كل كفاية ، فكان ذلك من الأسباب القوية التي أدت إلى تصدع سلطان الموحدين من أمسه ؛ ومما يستحق الذكر أيضاً أن محمداً هو سلطان المغرب الذي بعث إليه جون (يوحنا) ملك إنجلترا في سنة ١٢١٣ م ، بسفارة ، يقدم إليه فيها ملكه وحياته ، ويتمهد بدفع الجزية ، ونبذ النصرانية واعتناق الإسلام ، إذا أمد به بالجند ؛ ولكن سلطان الموحدين لم ير في ذلك المرض غنياً يذكر ، فرفض مقترحات الملك جون بكبرياء وازدراء .

وإذا كانت دولة الموحدين قد بدأت من قبل دور انحلالها ، فإنها أخذت في ظل الحكومات اللاحقة تنحدر سراعاً ، حتى أنه لم يكن من الميسور بعد على وصي أن يعمل لإنهاضها ؛ وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبي قاصر ؛ بل إن الدول القوية المنظمة ، كثيراً ما تنهار من جراء ذلك في أعوام قليلة ، فما بالك بدولة قد أخذت منذ حين تتمزق إلى عناصر خصيمة .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله ، الملقب أيضاً بالنصور بالله ، حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه — دون الحادية عشرة من عمره ؛ وكان أضعف من أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه ، فتركها لأعمام طامحين ، ووزراء ذوي أثره وخلال سببته ، لا يباحثون إلا عن مصالحهم وسلطانهم ، ويسومون الشعب في المقاطعات التي يحكمونها الخسف في سبيل مطامعهم المضطربة ؛ وكان يحكم الأندلس أربعة من أعمام المستنصر لآحد لسلطانهم ، هم السيد أبو محمد عبد الله بن النصور ويحكم بلنسية ودانية ، وشاطبة ومرسية ؛ والسيد محمد ويحكم قرطبة ؛ والسيد أبو علي ويحكم إشبيلية ، والسيد أبو عبد الله ويحكم جنوبي الأندلس . وأقطع السيد أبو علي حكم المقاطعات والناصب بالمال وفقاً لهوائه ونصح معاونيه ؛ وبذلك أبعاد الرجال الأكفاء ، ولا سيما الأندلسيين ، فقد ساء لهم ذلك ، واضطهدوا صراحة ؛ واختفى المدل بتاتا ، لأن القضاة الذين اضطروا إلى شراء مناصبهم ، حاولوا

— باضطهاد الشعب وظلمه — أن يستردوا ما خسروا أو يضاعفوه .

فأثار هذا الاستبداد بين مسلمي الأندلس — وقد كانوا يرون في الموحدين ظالمين — أيعاسخط على المغاربة ، حتى كانت تكفى شرارات قلائل لتضرم من جديد نار الحرب الأهلية في جنوب اسبانيا ؛ وقد أدى إليها بالفعل سير الحرب المشؤم ضد النصارى ؛ وبالرغم من أن الدول النصرانية كانت يومئذ عاجزة — من جراء الحرب الأهلية والفحط والتفرق — أن تقوم باستمدادات كبيرة لمحاربة المسلمين ، فإنها مع ذلك لم تمتنع بتاتا عن محاربة عدوها التاريخي ؛ وكانت الغزوات المتفرقة التي قام بها ألفونسو ملك ليون ، وفرسان قلعة رباح وسنت جوليان (فرسان القنطرة) ، والبرتغال ، والمطران رديك الطليطلي مع فرسان قشتالة ، تستغرق نشاط الحاميات الموحدية وجند الحدود كله ، حتى إنه لم يكن بوسعها أن تمنى بحركات الثوار في الداخل عناية كافية ؛ وفقد الموحدون هيبتهم تباعا ، ولم يعد بيت اسمهم ما كان يبعث من قبل من الخوف والروع ؛ وسقطت عدة من القلاع والحصون في يد النصارى ؛ ففي يولييه سنة ١٢١٣ م ، افتتح ألفونسو النبيل ملك قشتالة حصن القصر ، ونفذت القوات القشتالية الخفيفة حتى ظاهر إشبيلية ؛ وفي العام التالي ، استولى ألفونسو التاسع ملك ليون عنوة على حصن القنطرة ، وهو الحصن الذي اتخذ فيه بعد (سنة ١٢١٩) فريق من فرسان قلعة رباح مركزا لهم ، وتسموا باسمه ؛ وثبتت عندئذ مدينتا القصور (كسيرس) وبياسة بعد أن حاصرها الليونيون والقشتاليون دون طائل ؛ وحالت الحرب الأهلية التي اضطرت في قشتالة وليون بين سنتي ١٢١٥ و ١٢١٨ م ، وهي التي أثارت ضرامها أسرة لارا القوية ، دون قيام النصارى بغزوة كبيرة ضد المسلمين ، ولكن جماعات الفرسان ورجال الدين لم ينقطعوا عن القيام بغزوات في أرض الأندلس ، وقلما كانت تلحقهم الهزيمة ؛ وزاد في جرأتهم ما كانوا يصيرونه من الثنائيم الكبيرة ، فكان الغزاة يتقدمون حتى أبواب إشبيلية وقرمونه ، وهم يخربون وينتسفون كل أرض وطئها أقدامهم ، ولم تكن قسوتهم الوحشية قاصرة

على المحاربين من خصومهم ، بل كانت تشمل النساء والأطفال والشيوخ ؛ فكان الخوف والروع يتقدمان الغزاة النصارى ، أينما حلوا ، وكان الموحدون يقاتلون قتال اليائس وقد فقدوا فى النهاية كل شجاعة وكل ثقة فى قوتهم ومنهم .

وعجل باضمحلال سيادة الموحدين فى اسبانيا عود السلام بين قشتالة وليون ، واضطرام الحصومة حول العرش فى أسرة الموحدين اللوكية . وقد عقد ألفونسو الأول ملك ليون الصلح مع ولده فرديناند ملك قشتالة ، وحشد الاثنان قواتهما المتحدة لمحاربة العدو المشترك ، ولبنا كل عام تقريبا يقودان فرسانهما الظمئين إلى القتال إلى غزو الأراضى الإسلامية واقتناص الفنائم ؛ وفى تلك الأثناء كان سلطان الموحدين المستنصر ، خلافاً لأسلافه المحاربين ، يمتكف فى قصره بمراكش ، متمسكاً فى اللهو والترف ، لا يحيط به سوى المبيد والجوارى ، ولا يفكر إلا فى ملاذه ؛ وبدلاً من أن يعنى بشؤون الحكم ، كان يلهو بما لا يليق بأمر من رعى الأبقار وتربيتها ؛ ومع أنه لم يجاوز الحادية والعشرين ، فقد ذبلت صحته ونحطت من جراء اللهو المتيف ، ودنا سراعاً من القبر ؛ ولقيت حياته المابثة نهاية غير مجيدة ؛ فقد توفى بين أبقاره وهو يروضها ، إذ هجمت عليه بقرة شرود منهن وضربت به بقرنيها فى موضع القلب ، فتوفى لساعته ، وذلك فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، الموافق ٦ يناير سنة ١٢٢٤ م ^(١) .

والواقع أن المستنصر نفسه لا يحمل تيمة خلاله السيئة وفشله فى الحكم ؛ ذلك أن أقاربه ووزراء كانوا يدفعون به إلى غمر اللهو وبجملونه غير أهل لآى عمل جدى ، وذلك لى ينتزعوا مقاليد الحكم لأنفسهم من هذا الفتى القاصر ، وقد حققوا غايتهم ؛ ولكنهم دفعوا فى نفس الوقت بالملكة إلى برائن الفوضى والحرب الأهلية .

وسهت وفاة المستنصر الفجائية دون عقب ، لأقاربه الذين كانوا يحكمون مقاطعات المملكة مستغلين فرصة واسعة لمحاولاتهم وأطماعهم ؛ وسرعان ما أفضى

النزاع حول العرش الى اضطرام الحرب الأهلية . وقام في الحال بالأمر في مراکش عم أبي المستنصر ، أبو مالك عبد الواحد ، وكان يعيش من قبل عيشة الترهيب والتبتل ؛ وقام بالأندلس ابن أخيه عبد الله أبو محمد وهو ولد يعقوب النصور ، وأعلن نفسه أميراً على مرسية باسم العادل بالله ، واعترف أخوه أبو علي إدريس والي إشبيلية بسيادته ؛ ولم يكتف العادل بما أحرزه من الاستقلال بالأندلس ، فأوعز إلى أصدقائه وأنصاره في مراکش بالثورة على أبي مالك عبد الواحد ، وكان منكبا على لموه وملاذه ، فخلع في ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ (٨ سبتمبر سنة ١٢٢٤ م) ، ثم قتل بعد ذلك بثلاثة أيام ، ولم يطل حكمه سوى ثمانية أشهر . بيد أن العادل لم يستقر في عرشه الملتخ بالماء سوى القليل ، ثم أسقطه أولئك الذين رفعوه ؛ ذلك أنه حاول أن يحد من غطسة الولاية والقضاة والأشياخ وأطاعهم ، وأن يقيم العدل والنظام ثمانية في تسير الشؤون ، وأن يرد هبة السلطان كما كانت من قبل ، ولكنه لقي معارضة من كل جانب ؛ ووقع الانفجار في الأندلس بادي ذي بدء ، حيث رفع أقارب العادل من السادة الموحدين — وهم محمد صاحب قرطبة ، وأبو علي صاحب إشبيلية ، وعبد الرحمن صاحب بلنسية ، ومحمد والي يياسة — علم الثورة ؛ وتحالف محمد مع الجند القشتاليين الذين نفذوا إلى الأراضى الإسلامية ، ضد من بقى على إخلاصه من جند العادل ، واستطاع فرديناند ملك قشتالة بذلك أن يحتل حصون يياسة وأندوجار ومرطوس ، وأن يحصل على ربيع مواردها . ورأى العادل خشية من أن يفقد الأندلس كلها أن يعقد حلفا مع ملك قشتالة ، وعين محمد والي يياسة^(١) قائداً عاما لقوات الموحدين بالأندلس ، وحصل فرديناند في الحال على أهم الحصون الواقعة على الحدود ؛ واتهم خصوم العادل هذه الفرصة فشهبوا به لدى الشعب ، وأبى قائد حصن كاييلا أن ينفذ أمر العادل وأن يسلم المدينة إلى ملك قشتالة ؛ ورأى أهل قرطبة أن النصارى قد أحاطوا بهم من كل صوب . وأخذوا يتوقعون سقوط المدينة في أيديهم . وأخذ السخط يشتد تباعاً من

(١) ويسى الياسى لأنه قام ودعا لنفسه بمدينة يياسة (روض القرماس ص ١٦٤) .

جراء الماهدة المقودة مع النصارى ، ورأى الناس فى المادل خارجاً على الإسلام ، وحذف اسمه من خطبة الجمعة ، وجهر الناس بالدعاء عليه فى الساجد ، واعتبروه عدواً لله ومفتصباً للعرش بلا حق ، وانتهى الأمر بأن كسب الثوار الحرس إلى جانبهم ؛ وفى ذات يوم اقتحموا القصر وطلبوا إلى المادل أن ينزل عن العرش مختاراً ، فأبى وصرح بأنه لن ينزل بأى حال عند مطلبهم ، فقبضوا عليه ، ووضعوا رأسه فى حوض نافورة مملوء بالماء ، وأقسموا بالألا يخرجوه منه حتى يمتن تنازله ؛ فأصر المادل على رفضه بشدة ؛ فوضوا عمامته فى عنقه ، وأخذوا فى خنقه ورأسه مغمور فى الماء ، وهكذا توفى هذا الأمير ضحية لصرامته وأطباع أقاربه وكبراء مملكته ، وذلك فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٢٤ هـ ، الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٢٢٧ م ، بعد حكم دام ثلاثة أعوام وثمانية أشهر وبضمة أيام . وحدث فى نفس الوقت أن قتل محمد صاحب قرطبة غيلة ؛ وحاولت مدينة يباسة التى منح قلعها كبير فرسان قلعة رباح ، أن تطرد النصارى ، ولكن جهودها ذهبت كلها عبثاً . ولما استولى فرديناند على حصن كابيلا بعد أربعة أشهر ، استطاع أن ينقذ فرسان قلعة رباح المحصورين فى قلعة يباسة ، وأن يأخذ المدينة نفسها ؛ وغادر المدينة سكانها ، واحتل النصارى هذا المركز الهام ، وقد كان دعامة ذات شأن لما تلا من الفتوح فى الأندلس .

وكان مدبر الفتنة ورأس المؤامرة التى فقد فيها المادل عرشه وحياته ، أخا المادل ، أبا على إدريس والى الأندلس المتقدم ذكره ؛ وكان مقامه من قبل فى إشبيلية ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مالقة ، وابتنى له بها قصراً فخماً ، وعمل على استغلال سخط الزعماء فى الأندلس للحط من هيبة أخيه ؛ ولما تم له ذلك فى الأندلس ، سهل عليه أن يقوض سلطان المادل فى المغرب ، وأن ينزعه من عرشه ، ويقضى على حياته ؛ وكما أن المادل استطاع أن يرقى العرش بطريق الثورة والخيانة والقتل ، فكذلك كان سقوطه ؛ ولم يوفق أخوه أبو على الذى أعلنه الثوار ملكاً باسم المأمون ، إلى أن يفوز بحكم أهدأ من حكمه ، وحمله فقد كل نظام وطاعة على أن

يحكم بيد من حديد ، ولما كان مجلسا الحسين والسبعين اللذان أنشأهما أمراء
الموحدين وفقاً لتعاليم المهدي ، قد أصبحا أكبر عصب للإخلاق بالنظام والفوضى
من جراء سوء استعمال السلطة ، فقد حاول المأمون قبل كل شيء ، أن يحطم من
سلطة هذين المجلسين ، وأن يردهما إلى سابق حالتهما كهيئتين استشاريتين فقط ،
وأن يلفيهما إذا استطاع ؛ وكان يؤازره في ذلك وزيره الأكبر الأمير أبو زكريا
ابن علي ، وكان من رأيه أنه يجب لإقامة حكومة قوية رشيدة ، أن يكون ثمة
شريعة غير شريعة الله ، ورأى الأمير ؛ وكتب المأمون أو كتب وزيره المذكور
باسم هذا المعنى وثيقة يعارض بها شريعة المهدي ونظام حكمته ، ويبين فيها
عيوب هذا النظام وسوء إدارته ، ويعرب عن رغبته في العمل على إصلاح دستور
الدولة المهدية . فرأى الزعماء في تصريح الأمير ، ورأى فيه أعضاء المجلسين
بالأخص تهديداً لامتيازاتهم ، وحاولوا أن يعارضوا بكل قواهم ذلك النظام المطبق
الذي يريد أن يقيمه المأمون ، والذي هو في الواقع نظام الحكم المعتاد في الدول
الاسلامية ، لما فيه من حد لحقوقهم ؛ فلم ترد هذه المعارضة المأمون إلا نشاطاً
في تنفيذ مشروعه الإصلاحى ، ومرعان ما استحال هذا الصراع في سبيل الحياة
أوالوت بين السلطتين إلى حرب أهلية ، وعوقب محاسن الدولة أعنى مجلسي الحسين
والسبعين من جراء معارضتهما بالحل ؛ ومع ذلك فقد أعلن المجلسان قيامهما ،
وأعلننا بطلان حكومة المأمون ، وزعما لأنفسهما الحق في اختيار خلاف الحكومة
المدل ، وناديا في الحال بولاية أبي زكريا يحيى ، ولد الخليفة السابق محمد الناصر
وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره^(١) ، وأقسموا له بيمين الطاعة ، فتلقب بالعتصم
بالله ، وبادر أنصاره الدين رفموه إلى العرش بإرساله إلى الأندلس على رأس قوة
من الجنود ، ليعمل على إسقاط المأمون عن العرش ، وكان يومئذ بالأندلس ،
وما كاد المأمون يقف على مقدم خصمه العتصم حتى سار إلى لقائه في جيش ضخم
يعاونه بعض الجنود القشتاليين ، وهزمه في معركة شديدة نشبت بينهما في شدونة ،

(١) في روض القرطاس أنه كان يومئذ في السادسة عشرة من عمره (س ١٦٥) .

وفر الأمير النهزم في قل جيشه القليل إلى مفاوز جبال البشرات ، حتى تسنح الفرصة مرة أخرى لنارعة خصمه المأمون . ولما كان النصارى قد انتهزوا فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين للقيام بفزوات عديدة في الأندلس ، وعبروا الحدود الإسلامية ظافرين من كل صوب ، فقد آثر المأمون أن يتحول إلى مقاتلة النصارى على أن يمضى في مطاردة فلول المتصم في أعماق الجبال ؛ فانقلب فجأة إلى مقاتلة القشتاليين ، وكانوا يومئذ قد اجتاحتوا أراضي الأندلس حتى ظاهر غرناطة وضربوا الحصار عند عودتهم حول جيان ، وأخذهم على غرة ، فانهزموا وركبوا إلى الفرار بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ؛ وكان من ثمار هذا النصر الذى وقع في سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) أن أنقذت جيان ، واستردت عدة من حصون الحدود المفقودة ، وأصاب المسلمون غنائم عظيمة .

وبعد أن حصن المأمون حدود الأندلس للموحدين على هذا النحو ، بادر بالعودة إلى المغرب ليعاقب الزعماء الذين دبروا خلمه أو الذين تخلفوا عن بيعته ، فركب البحر من إشبيلية في أسطول ضخم ، ولما وصل إلى مقربة من سبتة حاول إبراهيم بن غانية أمير البحر من قبل المتصم ، أن يمترض نزوله إلى البر ، فقاتله وهزمه ، وترك المأمون جنده المشاة ، وسار في قوة من الفرسان فقط ، فوصل إلى سراكنس بسرعة عظيمة ، حتى أن أحداً من خصومه لم يجد وقتاً للفرار ، وسقط أعضاء المجلسين اللذين بالناء في خصومته جميعاً في يده أسرى ، ففضي عاينهم بالإعدام بتهمة الخيانة ، وقام في الجبال حرسه بتنفيذ هذا الحكم .

ولم يقتصر الأمر على العاصمة ، بل تناول المقاطعات أيضاً ، وجد المأمون في مطاردة جميع أنصار النظام القديم ، ونفذت أوامره الدموية بمنتهى الصرامة ، حتى أنه لم يعض سوى القليل حتى أرسلت زهاء خمسة آلاف من رؤوس القتلى إلى سراكنس ، وعلقت على أسوارها ؛ وبثت حكومة المأمون الصارمة الذعر والروع في كل مكان ؛ وألقى المأمون في حرسه من الأندلسيين والسود أداة قوية مستعدة لتنفيذ أوامره ، وفقد زعماء الموحدين الذين استطاعوا الفرار من الموت .

كل شجاعة وكل عزم ، ومع أن مجلسي الحسين والسبعين لبنا قاعين بالاسم . فان أعضاءها الجدد كانوا من صنائع المأمون ، ولم يسمح لهم بالتدخل في شأن من شؤون الدولة ، وكل ما هنالك أنهم كانوا يماونون وزير المدل ، وكان عليهم أن يصادقوا دون جدال على كل خرق للشرع والقانون . ولكي يعدل دستور دولة الموحدين من أساسه ، أعلن أن مؤسسه المهدي غاتل ومحتال ، وعي ذكره من الصلاة ومن المنابر ، وأبطلت جميع النقود والنقوش التي تحمل اسمه ؛ وكان طبيعيا أن يعتبر الشعب المأمون إثر ذلك ملجدا ومرتدا وكافرا ، وألا يحول دون انفجار الثورة العامة عليه سوى بطشه وقوة حرسه ؛ ومن ثم فقد اضطر المأمون إلى المضي في هذا الحكم الرهب ، ولم يتح له أن يستبدله بغيره ، بالرغم من أنه قد أقيمت في ظله الألوف ، ولم ترفع رؤوس القتلى عن جدران المدينة بالرغم من أنها كانت تسم الهواء من جراء اشتداد الحر ؛ وكان المأمون يقول : « ها هنا مجانين هذه الرؤوس أحرار لها ، وروايحها عطرة عند المحبين كريمة عند المبغضين ... وأنا أعرف بما يتطلبه الخير العام ^(١) » .

وبينا كان المأمون يحكم المغرب بيد من حديد ، ويرد أنصار خصومه بمد أن هزمهم غير مرة ، إلى أعماق جبال الأطلس ، إذا بمعظم أراضي الأندلس يخرج عن قبضة الموحدين ؛ ففي منطقة مرسية قام أبو عبد الله محمد بن يوسف سليل بني هود أمراء مرسية السابقين ، وسرعان ما ألقى العربي النبيل في بغض عرب الأندلس للغاربة الموحدين أكبر عضد ؛ كذلك لم يكن ينقصه تمصيد الفرسان النصارى الذين كانوا — كما كان السيد الكنيطور — يخرجون للحرب والفتوح ؛ واستولى محمد بن هود على مرسية دون كبير مشقة ، ونادى بنفسه أميراً لها باسم المتوكل على الله ، وحاول أن يكسب الأندلسيين إلى جانبه بسرعة ، وأن يؤلبهم على قتال الموحدين فأذاع أنه يسمي إلى تحريرهم من نير الغاربة المرهق ، وأنه لن يفرض عليهم سوى

(١) وردت هذه التفاصيل جميعها عن حكم الإرهاب الذي بسطه المأمون في الحلال الوشية ص ١٢٤ و ١٢٥ ؛ وقد نقلنا قوله الأخير عن الرؤوس منها ما عدا العبارة الأخيرة .

الضرائب الشرعية ، وأن يعمل على إقامة شرائع الإسلام الحقة ، وأعلن التوكل أن الموحدين كفار ، وأمر أن يحتفل بتطهير المساجد التي دنسها قضاؤهم وارتدى السواد بهذه المناسبة ، وأمر الزعماء بارتدائه ، لا باعتباره شعار الحداد كما يقول ودريك الطليطلى ، ولكن لكي يميز حزبهم من غيره ، وذلك لأن التوكل ، رأى أن يترف بسيادة بني العباس خلفاء بغداد ، وشعارهم السواد ، لكي يستعين بذلك على قتال الموحدين .

ولم يحض سوى قليل ، حتى سارعت — بعد مرسية — معظم بقاع الأندلس إلى طاعة ابن هود ، ومبايعة ، ومنها مدن جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ؛ وزاد في قوته وسلطانه ما أعلنه من أنه عدو لدود للنصارى ، وأن الخليفة العباسى قد أقر إمارته على الأندلس ؛ واضطر التوكل في بدء إمارته أن يخوض مع ألفونسو التاسع ملك ليون مباركة شديدة ؛ واستطاع ألفونسو أن يفتتح عدة حصون على الحدود في مقاطعة استرامادورة ، وأن يهزم جيش التوكل الضخم في معركة هائلة انتهت باستيلاء الليونيين على ماردة ، وهى مدينة عظيمة على ضفة وادى يانة ، وعلى بطليوس وهى إحدى الحصون الثمينة ، وذلك فى سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) .

ولم يدخر التوكل وسماً فى العمل على إسقاط المأمون ، أو معاونة منافزه على العرش المتصمم يحيى بن الناصر ، الذى أرسل من جديد جنوداً إلى الأندلس لمحاربة جند المأمون ؛ كذلك لم يفته أن يحسن الانتفاع بثورة أخى المأمون ، أبى موسى بن النصور ، والى سبته ؛ ولم يكن من الصعب عليه — وقد حظى بمؤازرة الشعب الأندلسى كله — أن يهزم زعيم الموحدين ، بعد أن كان التوفيق يحالفه فى عدة معارك دموية ، وأن يتزع منه حصن غرناطة المنيع (سنة ١٢٣٠ م) ؛ وفقد الموحدون مدينة بعد أخرى ، ومقاطعة بعد أخرى ؛ ولم يروا أمامهم سبيلاً للاحتفاظ بما تبقى سوى عون النصارى الأسبانيين ؛ وكما حاول الأمويون ، ثم الرابطون من بعدهم ، فى آخر أيامهم أن يحتفظوا بسلطانهم المضطرب بمعاونة المرتقة

النصارى ، فكذلك شأن الموحدين^(١) .

وهكذا اتخذ أمير المؤمنين اثني عشر ألفاً من المرتزة القشتاليين في خدمته ، وأرسلوا إلى المغرب لحماية العاصمة مراکش وإقليم المغرب من عدوان منافسه يحيى وأنصاره ، ونزل لقاء ذلك إلى ملك قشتالة عن عشرة من حصون الحدود ، ودفع إليه مبالغ طائلة من المال ، وسمح بإقامة كنيسة للنصارى في مراکش ، وتهدد بالآل يتعرض أحد في مملكة الموحدين كلها للنصرانية والنصارى بسوء ، وأن يؤذن للنصارى في الأندلس بقرع النواقيس في كنائسهم . أما ما قيل من أنه اشترط في معاهدة الصلح بين المسلمين ، أنه إذا اعتنق الاسلام نعراني ، فإن إسلامه يكون باطلاً ، وأنه إذا اعتنق النصرانية مسلم فإن يتعرض له أحد بشيء ، فما يشك فيه كل الشك ، كما أنه يشك أيضاً في صحة ما نسب إلى المأمون من أنه قال في خطبة ألقاها في الشعب ، إن المهدي مؤسس الدعوة المهدية وحكومة الموحدين مخادع مضلل ، « وإنه لا مهدي إلا عيسى ابن مريم عليه سلام الله وبركاته » ، ذلك أنه إذا كان المأمون ، كما يبدو صديقاً للنصرانية ، فإنه لم يكن باستطاعته أن يجاهر بذلك دون أن يفقد في الحالة عرشه وحياته^(٢) .

ولم يدخر المأمون وسماً في تحطيم خصومه ؛ ومع ذلك فقد كان يرى — والألم يحز في نفسه — كيف ينهار سلطانه يوماً بعد يوم ، وذلك بالرغم من أن حلفاءه النصارى كانوا ينشطون إلى معاونته بالانزوات المستمرة والمارك المخفزة ضد محمد بن هود ؛ ولكن الأندلسيين لم تكن لترضيهم مخالفة النصارى ، بل كانت بالعكس

(١) تحدث ابن خلدون عن ثورة ابن هود على الموحدين وحروبه معهم بأسباب في

الجزء الرابع من ١٦٨ و ١٦٩ .

(٢) يورد صاحب روض القرطاس جميع هذه الشروط ، التي اشترطها ملك قشتالة على المأمون نظير إمداده بالجند القشتاليين ومنها إقامة الكنيسة بمراكش ، وعدم الاعتراف بإسلام النصراني إذا أسلم ، وعدم التمرض للإسلام المرتد . كذلك يقول لنا إن المأمون خطب الناس بجامع النصور ، ولعن المهدي وقال : « أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالقوي الذموم ، إنه لا مهدي إلا عيسى ، وإنا قد نبذنا أمره النجس ... الخ » (من ١٦٧) ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية في بعض تفاصيلها (ج ٦ من ٢٥٣) .

حافزاً لهم على معاونة خصوم المأمون . وحدث أيضاً أن فقدت مقاطعة بالنسية الخصبه الغنية . ذلك أن واليها السيد أبا عبد الله محمد أبا المأمون ، لجأ في حماية سلطانه من المتوكل والأندلسيين الشائرين إلى طلب العون من جاييم الأول ملك أراجون ، وتعهد بأن يؤدي له الجزية ، وأن يكون تابعاً له ، فاشتد لذلك سخط البلنسيين ، والتفوا حول أحد زعمائهم وهو أبو جليل زبن بن أبي الحلات مدافع ابن أبي الحجاج الجذامى سليل آل مردنيش أمراء بالنسية السابقين ، وطرّدوا الأمير المراتبى ، ونادوا بزبان أميراً عليهم ؛ فلم يجد السيد أبو عبد الله أمامه سوى الالتجاء إلى ملك أراجون يطلب حمايته ، وأجاب جاييم إلى سؤاله باعتباره تابعه سيما وقد اعتنق السيد وبناته النصرانية ^(١) ، وألقى جاييم عندئذ حجة لغزو بالنسية ، مؤملاً أن يحظى بالتأييد والعون من أنصار الأمير الموحدى فيها .

وفي تلك الأثناء نار والى سبته السيد أبو موسى أخو المأمون ، وانضم بقواته إلى ثوار الأندلس ؛ واستطاع يحيى الناصر بالرغم من الحامية النصرانية أن يفتح مراکش ، وهدم الكنيسة التى أقيمت فيها ، ونهب النصارى واليهود وقتلهم ^(٢) . فعندئذ رأى المأمون أن يترك الأندلس إلى مصيرها ، وإلى حلفائه النصارى ؛ وركب البحر من إشبيلية — وهى المدينة الوحيدة الهامة التى بقيت للموحدين فى الأندلس — إلى إفريقية ، لى يسترد مراکش قبل كل شئ . ومن النادر أن تقص سيرة أسرة على شفا الانهيار بوضوح وصدق ، فالأورخ الذى ينسب إلى هذا الحزب أو ذاك يقص حوادث هذا العصر المضطرب فى الغالب وفقاً لما يهوى ؛ ومن ثم فانه ليس من المحقق ما إذا كان المأمون قد توفى بالصرع قبل أن يصل إلى مراکش ، أو أنه خاض مع يحيى الناصر معركة وهزمه ثم أصابه الموت فجأة وهو يدبر الأمر لاسترداد الأندلس ؛ وقد توفى فى الثلاثين من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١١٣٢ م) ، بعد حكم دام

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٦٩ .

خمسة أعوام ، كدبرته الحروب المستمرة مع الثوار ؛ وكان موته نذيراً بانتهيار سلطان
الموحدين في المغرب بعد أن تم انهياره في الأندلس قبيل موته ؛ وبقيت في المغرب
من سلطان الموحدين أبقاض لبثت بعد ذلك زهاء نصف قرن ، ونحن نقص هنا
سيرتها بإيجاز ، وإن كانت لا تكاد تمت بصلة ما إلى تاريخ الأندلس .

وبعد وفاة المأمون حاول الحزب الذي رفع ابن أخيه أبا زكريا إلى العرش ، أن
يحصل لارشحه على البايعة العامة ، ولكن الحزب الممارض كان أقوى ، فعمل بتأييد
الحرس النصراني على تولية ولد المأمون أبي محمد عبد الواحد ؛ وهو صبي في الرابعة
عشرة من عمره ، وتلقب بالرشيد ؛ واعترف بولايته معظم أقطار المغرب ، وقسم
من الأندلس يشمل إشبيلية والجزيرة ؛ أما يحيى فقد استمر أربعة أعوام أخرى
بمخوض مباركة دموية كان يهزم فيها دائماً ، ثم توفي على مقربة من فاس ، وذلك
في شهر رمضان سنة ٦٣٣ هـ (يونيو سنة ١٢٣٦ م) ، ولكن لم تنقطع بوفاته
دسائس الأحزاب المختلفة ، وهي دسائس جد عبد الواحد في قمها ؛ وهكذا
استمر يعيش محوطاً بالقلقل والفتن ، حتى وقع حادث سىء أودى بحياة ؛
ذلك أن جواده جمع ذات يوم وركض به إلى بركة نافورة في حديقة فغرق ،
وتوفي في التاسع من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ (٤ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م) ،
وذلك بعد أن حكم عشرة أعوام وبضعة أشهر ؛ ولم يجاوز عند وفاته الرابعة
والعشرين من عمره ؛ وفي أثناء حكمه فقد المسلمون في الأندلس قرطبة وإشبيلية
وأراضي كثيرة أخرى ، استولى عليها النصارى من محمد بن هود وزيان بن
أبي الحلات .

وعلى أثر وفاة عبد الواحد نادى الموحدون بأخيه أبي الحسن على — الملقب
بالسميد — سلطاناً عليهم ، وكان حكمه أحفل بالصائب من حكم أسلافه ؛ وألقى
الموحدون خصوماً جديداً في بني زيان وبني مرين ، الذين أخذوا ينازعونهم
السيادة في المغرب ؛ وكان السميد أكثر توفيقاً في محاربة بني مرين ، إذ هزمهم
في معركة شديدة بمعاونة المرتقة النصارى الذين في خدمته ؛ بيد أنه هزم بعد ذلك

في موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير نلسان ، وقتل أثناء القتال ، ولا يحض على حكمه ستة أعوام بعد ، وكان مقتله في ٢٩ صفر سنة ٦٤٦ هـ (٢٤ يونيو سنة ١٢٤٨ م) . وفي أثناء حكمه حاصر النصارى مدينة إشبيلية ، وهي آخر قاعدة كبيرة بقيت بيد الموحدين بالأندلس ، ولم يستطع أن يمددها بالعاونة الكافية ، فسقطت في يد فرديناند الثالث ملك قشتالة .

وخلفه في حكومة مراکش عمر بن أبي إبراهيم إسحاق ، وهو من أحفاد أبي يعقوب يوسف ، وتلقب بالرتضى ؛ وكان أميراً عاقلاً حسن الخلال ، فنشط لمقاومة خصوم أمرته مزوداً بجميع الوسائل والقوى خلا حسن الطالع ؛ ولم تفد جهوده — لا إعادة نظم المهدي وتمايليه إلى سابق مكانتها بعد أن أبطل المأمون بعضها — شيئاً في توطيد سلطانه ؛ ذلك أنه متى انهارت أسس دولة من الدول فإنه لن تحول دون سقوطها دعائم قدعة مقوضة ؛ ولم يتأثر الشعب ذرة بحجج المرتضى إلى قبر المهدي في تينال ، جريا على سنة الأوائل من خلفاء الموحدين ؛ ذلك أنه لم يكن يرى في مؤسس دولة الموحدين بعد نبيا ورسولاً ، بل اعتاد أن يرى فيه — وفقاً لأقوال حكومة المأمون — محتالاً مخادعاً . وهكذا فإنه بينما كان المرتضى يحاول عبثاً رد القديم أن يقلل المملكة من عثارها ، كانت النواحي تخرج عن قبضة الموحدين واحدة بعد أخرى ؛ وكانت أنقاض سيادتهم في الأندلس تؤول إلى أمير غرناطة محمد بن الأحمر ، أو إلى قشتالة وإبرتغال ؛ ونشبت في سبتة ثورة لم يقو المرتضى على إخمادها ؛ وسقطت فاس في يد المرينيين ؛ ونفاذ الخطاب بخروج أمير من أمراء الموحدين ، هو أبو الملاء إدريس بن أبي حفص بن إبراهيم ابن عبد المؤمن الملقب بأبي دبوس ، وكان خروجه في ٢٥ محرم سنة ٦٦٥ هـ (٢٥ أكتوبر سنة ١٢٦٦ م) وحاول أن يعمل لإسقاط عمر ، وانتزع الملك لنفسه ، فتحالف مع بني مرين ، وسلمهم مدينة مراکش بطريق الخيانة فاحتلوها ، وفر عمر المرتضى ناجياً بنفسه ، منبوذاً من جميع أصدقائه ، فهام حينا على وجهه حتى قتله عبده المرافق له غيلة ، وذلك في ٢٢ صفر سنة ٦٦٥ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٦٦ م)

بعد أن حكم تسعة عشر عاما إلا بضعة أشهر ؛ وجسن ذكره في الناس فيما بعد فكانوا يحجون إلى قبره كما يحجون إلى قبر قديس .

وعلى أثر ذلك ولي إدريس أبو دبوس - بـمعاونة المـريـنيين - ذلك العرش المضطرب ، الذى عاون هو على تقويضه ؛ وقبض على أبناء سلفه وزجهم إلى السجن تأمينا لحكومته ، بيد أنه لم يمض سوى القليل حتى أدرك إدريس معاونة المـريـنيين على حقيقتها . ذلك أنهم طلبوا إليه أن يحكم باسمهم باعتباره تابعا لهم ، فأبى إدريس منفضبا ؛ وعندئذ نشبت الحرب بين الفريقين ؛ فحشد إدريس كل ما تبقى له من قوى الموحدين ، وبعد أن دام القتال بينهما حيناً ، وكن النصر بينهما سجالا ، التحم الفريقان في العام الثالث ، في الثاني من محرم سنة ٦٦٨ هـ (أول سبتمبر سنة ١٢٦٩ م) ، في معركة دموية على ضفاف نهر وادى الغفير ؛ فقتل إدريس وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، وذلك بعد أن مزق جيشه وسحق في كل ناحية وقتل معه سواد الموحدين في ميدان الحرب ؛ وكانت هذه المقتلة ، هي مقتل سيادة الموحدين ؛ فانهارت دولتهم ، بعد أن قامت مدة واحد وخمسين ومائة عام ، وانتهت بالرابع عشر من أسرائهم ، وهو إدريس أبو دبوس ، لكي تعقبها دولة بنى سرين .

الفصل السادس

نزاع جاييم الفاتح مع عميه وحروبه ضد المسلمين

في الجزائر الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه

المملكة لسيادة أراجون

كان نبأ موت بيدرو تذيير اضطرار فتن شديدة بين أشراف أراجون وقطلونية ؛ كذلك نهض أخوا الملك المتوفى وهما سانشو وفرناندو في الحال مطالبين بالعرش ، منكرين صحة مولد جاييم (خاييم) أو يعقوب ، لأن بيدرو نفسه كان يعتبر زواجه من ماريا باطلاً ؛ ولكن البابا كان قبيل وفاة بيدرو قد أعلن صحة هذا الزواج ، ولذلك أعلن معظم رجال الدين ، وفريق كبير من الفرسان تأييدهم لجاييم ، باعتباره وارثاً للعرش ؛ وأرسلوا سفيراً إلى البابا أنوسان الثالث ، وحصلوا بمعاونته على استلام وراث العرش من الكونت سيمون دي مونفور ؛ وأحضر « جاييم » وهو طفل في السابعة من عمره إلى أراجون برفقة بطرس مطران بنقنت والكونت ريمون برنجار صاحب بروفانس ، وذلك سنة ١٢١٤ م ؛ وفي مجلس النواب الذي عقد في لارده ، وشهده رجال الدين ، والأشراف والفرسان ، وكذلك عشرة نواب عن كل مدينة ، أعلن جاييم ملكاً شرعياً للبلاد ؛ ولما كان الهان قد استطاع أثناء غياب جاييم عن أراجون أن يحشد كل منهما فريقاً كبيراً من الأنصار ، ولم يحضرا مجلس النواب ، فقد رأى المطران أن يطلب إلى الحاضرين أن يقسموا عين الطاعة في الحال للملك ، وهو ما لم يحدث قط من قبل في أية تولية سابقة .

وأصدر المجلس قراراً بأن تسند تربية الملك الطفل وحراسته إلى أستاذ فرسان الداوية في مملكة أراجون وهو وليم دي موزيدون ، وهو من أشرف قطلونية الذين امتازوا بوافر عنايتهم وفروستهم وثقاتهم ، وأن يسند حكم البلاد إلى ثلاثة من حكام المقاطعات ، منهم اثنان عن أراجون ، والثالث عن قطلونية ؛ وأسندت الوصاية إلى سانشو كونت روسيون حتى لا تهضم حقوق الممين .

ولكن هذه الإجراءات لم تنجح في قمع الفتنة من البلاد ، بل زادت بها اضطراباً ؛ وكانت أطماع عمى الملك اللذين لم ينزلا عن دعواهما في العرش ، أهم أسباب القلاقل في البلاد ؛ وكانا يعملان فقط لتحقيق مصالحهما الخاصة ، وبنفقان موارد البلاد في سبيل أغراضهما ، وترتب على ذلك أن انهضت موارد البلاط المالية ، وكانت قد اضمحلت من جراء إسراف بيدرو ؛ وكان القضاء للملكيون يبيعون المدالة ليحصلوا قوتهم ؛ وبذا كان كل شيء ينذر بالاحلال للملكة . وهنا نهض الشيخ الأمين الموفر كينو كورنل ، فعمل على إنقاذ الملكة من السقوط ، وعلى تأمين العرش لجايم ، الملك الذي يعانى نوعاً من الأسر ؛ ذلك أنه عقد حلفاً بين المخلصين من مواطنيه ؛ وعمل هؤلاء على تسهيل الفرار للملك الفتى من حصن موزون حيث كان سجيناً تحت إشراف عمه الطموح سانشو ، وأحضروه إلى سرقسطة ، وذلك في سنة ١٢١٧ م ؛ ومع أن جايم لم يكن في ذلك الوقت يجاوز العاشرة من عمره ، فإنه كان يبدو من حيث نموه الجسمي والعقلي فوق سنه ؛ وكان يعنى بشؤون الدولة بمعاونة بعض الوزراء الأكفاء ؛ وفي العام التالي استدعى مجلساً نيابياً في لارده ، وفيه اتفق مع عمه سانشو ، على أن يقطعه أملاً بكاشاسمة ، ودخلاً حسناً ؛ ولقاء ذلك نزل سانشو عن الوصاية ، وعن دعواه على العرش ، وأقسم بيمين الطاعة المنشود .

وهنا ظهر المم الآخر فرناندو ، وغدا أخطر عدو للملك . وكان أقوى الأمراء الإقطاعيين يضطرمون عناداً ومعارضة ويرفضون الإذعان للأوامر الملكية ، وسرعان ما شهبوا على الملك الفتى حرباً شواء ؛ فانهز فرناندو هذه

الفرصة ليعمل على نزع ابن أخيه عن العرش ، والتف حوله الخوارج والثوار ؛ وحاول كل حزب أن يحصل على شخص الملك لكي يستطيع الحكم باسمه ؛ وهكذا وقع جاييم في يد آل مونكادو وآل آهوني ، وهما أسرتان قويتان ، لم يلبثا أن استأثرا بجميع السلطات ؛ وكان فرناندو يشترك في جميع هذه الحوادث ، وقد استطاع أن يسيطر على مدن سرقسطة ووشقة وجافه وأن يحملها على الانفصال عن المملكة ؛ ولكن الخلاف والحسد اللذان دبا إلى الحلفاء ، وخلقا منهم أحزابا جددا ، ونصرف جاييم الحكيم في جميع المآزق ، قضت على عمل الأطماع والحياة ؛ وكلما اعتقد فرناندو أنه أوشك على تحقيق الغاية بمدت عنه ؛ واستطاع جاييم أن يوثق أواصر تحالفه مع قشتاله بزواجه من الينور ابنة ألفونسو النبيل (سنة ١٢٢١ م) ، وعاون ذلك على تسوية الخلاف بين الأحزاب الخصيمة لدى قصير ؛ ولكن سرعان ما عاد فرناندو وأنصاره الأقوياء إلى غطرستهم ؛ وفي سنة ١٢٢٥ م ، استطاع جاييم أن يفر من قبضة خصومه الأقوياء مرة أخرى ؛ وحاول — باثهار الحرب على المسلمين — أن يسترد هيئته الملكية ، ولكنه لم يوفق في البداية ؛ إذ لم يتبهم إلى ميدان الحرب سوى القليل من البارونات والفرسان ؛ على أن الملك الفتى لم يهن عزمه من قلة أعوانه والنصاب المحدقة به ، وما زال مصرا على تأييد حقوقه بالسيف ضد جمهرة الخوارج عليه ، وقد أبدى في ذلك من الاقدام والحرأة والجلد ، مثلاً أبدى من البراعة في الحرب . والدكاء ، وضبط النفس . وكانت معظم المدن قد انحازت إلى فرناندو ، وانحاز إليه أيضاً فريق من رجال الدين ، وأعلن معظم البارونات والفرسان خصومتهم الملك ، فنبع الكثيرون منهم فرناندو ؛ وكانت مدن سرقسطة ووشقة وجافة الرابطة مما يربط التحالف الوثيق بتمبره حاميا والمدافع عنها . ولكن جاييم استطاع في النهاية ، بمفاوضات بارعة مع الأحزاب ومصانعة زعماء الحزبين الكبيرين في قطلونية ، وما أبداه من العزم والحزم ، أن يترع سلاح خصومه ؛ وما لبث أن انفض عن فرناندو معظم أنصاره فجأة ، فخارت عزائمه ، وبادر بالخضوع لجاييم .

والتماس عفوه ورأفته ، وذلك في مدينة طرطوشة في سنة ١٢٢٧ م . ولم يرد الملك أن يدفع بالقسوة خصومه إلى صراع اليأس ، فلم يكتف بالعفو عن عمه ، بعد أن بايحه بالطاعة وأقسم له بمين الاخلاص ، بل زاد على ذلك أن أقطعه ثلاثين ضيمة من ضياع الفرسان ، وشمل بمفوه جميع أنصاره ؛ وعهد بقمع الفتن الباقية إلى مطران طركونة وأسقف لاردة ، وأستاذ فرسان الداوية في أراجون ؛ وهكذا تمت تهدئة البلاد بسرعة بعد أن عصفت بها الحرب الأهلية طويلاً ؛ واحتفل بعود السكينة إلى البلاد بتنظيم مواكب الشكر والحفلات الشعبية .

وما كاد يستتب الهدوء الداخلي ، ويطمئن چايم إلى توطد عرشه حتى عاوده شغفه القديم الذي لازمه منذ الصبا في مقارعة أعداء دينه ، واعتزم أن يخصص كل عنايته لمحاربة المسلمين ؛ ولا ريب أنه كان حكيماً بعيد النظر حينما بادر بعد قمع الفتن الداخلية ، إلى أن يفتح للبارونات والفرسان الظلمتين إلى الكفاح ميداناً للحرب ، يستطيعون أن يخصصوا فيه حياتهم للحرب والقتال دون إضرار بالوطن . ذلك أن غزوات چايم ضد المسلمين كانت إلى حد ما وسيلة لاجتناب الحرب الأهلية ، وكان قد حاول أن يقوم بمثل هذا الدور في صباه ؛ بيد أن الوقت لم يكن قد حان يومئذ للقيام به ، إذ كان لا بد من تحقيق وحدة البلاد بأدى ذى بدء . وقد أنشأ چايم في بداية حكمه جمعية عرفت بجماعة الرحمة لكي تعمل على اقتداء النصارى من أسر المسلمين ، وعين لرياستها أحد رؤدييه ، وهو الشيخ الورع بييدرو نولاسكو ، وربما كان لهذا الشيخ كبير أثر في كون چايم قد خصص حياته كلها لمحاربة المسلمين .

وفي سنة ١٢٢٨ م ، حينما كان چايم يعقد بلاطه في طركونة ، وبرفقته جمهرة كبيرة من البارونات والفرسان ، تقرر في إحدى المآدب أن تنظم حملة ضد جزيرة ميورقة ؛ ومن قبل چايم حاول بضمة من ملوك أراجون افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وكانت ولاية قطلونية أيضاً قد استطاعت أن تشهر عليها مدى حين حرباً موفقة . وأثار بيدور مارتل وهو بحار مجرب من طركونة ،

أطلع الحضور وغضبهم ، بما قصه عليهم من غنى الجزيرة وخصبها ، وما يقوم به سكانها من آن إلى آخر من سبي النصارى ، وما يضمه أميرها للأرجونيين من البغضاء والمداوة . وعندئذ طلب الحضور إلى الملك أن يشهر الحرب على الأمير السلم - وكان هذا الأمير يعامله أيضاً بصف واهتقار - فأعان الملك استعداده للمبادرة إلى ذلك . وأقسم أنه لن يعتبر نفسه ملكاً شرعياً قبل أن يتم افتتاح ميورقة .

ولما كان أهل قطلونية نظراً لما يزاولونه من التجارة البحرية مهتمون بهذا المشروع أعظم اهتمام ، فقد رأى چايم أن يعتمد بالأخص على معاونتهم . وفي ديسمبر ١٢٢٨ م عقد مجلس نيابى فى برشلونة ، تقرر فيه أن يوطد السلام الداخلى قبل كل شئ . وصرح بواب الطبقات للملك بأن يجبى « ضريبة الماشية » عن كل زوج من الثيران بصفة استثنائية ، وهى الضريبة التى كانت فيما يمد بجبى مرة واحدة عند ولاية كل ملك ؛ وأوضح كل من الحضور نوع المساعدة التى يعتزم تقديمها إلى الملك فى هذه الحملة . ووعده چايم - من جانبه - بأن يقسم جزءاً مما يفتح على جميع الذين ساهموا فى هذا الفتح كل بنسبة ما قدم من عون ؛ وندب لتحديد هذا الجزء والجزء الذى يخص له لجنة من أسقف برشلونة وبعض الأشراف ؛ ولم تنس الكنيسة ورجال الدين ، إذ خصص لهم جزء لا بأس به ؛ وبعد أن تم التفاهم على تقسيم الأرض المفتوحة على هذا النحو ، تقرر أن يكون مقر سالو مكان الاجتماع ، وأن يبدأ فى تنفيذ المشروع فى نهاية مايو سنة ١٢٢٩ م .

وكان انحلال سيادة الوحدين السريع قد انتهى يومئذ إلى حالة يرتى لها مما يمهّد لنجاح مثل هذا المشروع . وكان السيد أبو عبد الله محمد المنصور ، أخو المأمون والحاكم على بلنسية والجزائر الشرقية ، قد زرع من ولايته قبل ذلك بقايل على يد الأمير زيان بن أبى الحملات ، وأخرج من أرضه ؛ وفر السيد المزول إلى ملك أراجون ، وكان قد تعهد له من قبل بأداء الجزية وسأله أن يحارب مفتصب ولايته ، وأن يعيد إليه أرضه ؛ فأكرم چايم وفادة الأمير الفار ، ووعده بأن ينظم حملة من أجله ؛

وأومح بأن الحملة التي كانت أعدت من قبل لغزو ميورقة ، إنما أعدت من أجله وفي سبيل معاوته .

وفي الوقت المحدد اجتمع الجيش الذي اتخذ الصليب شعاره ، وأبحر في مائة وخمسين سفينة كبيرة ، وعدد كبير من الزوارق الصغيرة ، وانضم إلى الحملة كثير من الجنويين وأهل بروقانس .

وكانت جزيرة ميورقة يومئذ تحت حكم واليها أبي عثمان سميد بن حكيم بن عمر القرشي وأصله من طبرية بغرب الأندلس وبها ولد ، وكان يحكمها من قبل الأمير أبي جميل زيان بن مدافع . وكان قد علم بأمر الحملة التي تهدد الجزيرة منذ البداية فحشد جيشاً ضخماً ، رتبته في الأماكن التي يخشى أن ينزل منها الجيش المعاصم ؛ وبلغ عدد الجند المسلمين يومئذ نحو اثنين وأربعين ألف مقاتل . ومع ذلك فقد استطاع النصارى النزول إلى الجزيرة في منتصف الليل بسلام ، قبل أن يستطيع المسلمون رددهم ، واستولوا على الشواطئ . على أن هذه البداية الموفقة ، لم يعقبها ما كان منظوراً من النجاح ؛ ذلك أن النصارى كانوا يلقون في كل خطوة يتقدمونها داخل الجزيرة صعاباً وبكتائب وخسائر . وبلغون في كل مكان كيناً ومعارك يأس ومقاومة بأسلة ؛ وقد سقط كثير من قادة الجيش الصابي في المذابح الدموية قبل أن يستطيع التقدم إلى عاصمة الجزيرة ويتاح له أن يحاصرها . ونهض عندئذ راهب دوميكي اسمه عجويل باقى في الجند مواظباً ملتزمة لسكى يستبق حماستهم وشففهم بالقتال ، ويحفزهم إلى الجلاء والاستبسال ؛ هذا إلى ما كان يذكرهم من أمل الحصول على ثروات المدينة وكنوزها ؛ وهكذا سار الحصار في طريقه بالرغم من بطئه وما كان يحيط به من الصعاب . ولكن حدث بعد أن سلم بعض زعماء الأرض السهلة ، وأبدت المدينة المحصورة رغبتها في التسليم وعقد الصلح ، أن هب مسلمو الجزيرة جميعاً إلى المقاومة من جديد ؛ والظاهر أنهم كانوا يتوقعون نزول الأمطار ودخول الشتاء ؛ عندئذ لم يتردد جاييم في أن يهاجم المدينة للاستيلاء عليها ؛ وكان من المحتوم عليه يومئذ أن يجد مخرجاً موفقاً للحملة كلها ،

إذ كان من المتعذر عليه أن يبقى طويلاً في جزيرة لا تتسع إلا لحرب صغيرة . ففي آخر يوم من سنة ١٢٢٩ م (صفر سنة ٦٢٧ هـ) قاد جاييم جنوده لمهاجمة المدينة ، بعد أن شهدوا القداس وزودوا الموت ، وهزم المسلمين الذين خرجوا للقائه ، وطاردهم ، واستولى على المدينة عنوة ، وغادرها المسلمون قارين ، وامتنع الوالي سعيد بن حكم بالقلمة أياماً آخر ، ولكنه لما لم ير أملاً في الانتقاذ ، استسلم للظافر ، وبإيماء بالطاعة على أداء الجزية ^(١) .

ومع ذلك فقد استطاع فريق كبير من المسلمين أن يظل محتفظاً باستقلاله ، معتصماً بكموف الجبال وسفورها . واضطر جاييم أن يعود إلى الجزيرة مرتين ، في سنتي ١٢٣٢ و ١٢٣٣ ، وذلك لكي يحارب الزعماء الذين لم يقدموا طاعتهم وبطاردهم في معاقلمهم ، ولكي يجمع الجزيرة أيضاً من غزوات مسلمي تونس ، وقد حاولوا العمل على استردادها من النصارى ؟ وجد جاييم في إخضاع الجزيرة ، وكان قد أفر من قبل واليها السابق سعيد بن حكم حاكماً عليها ، معتقداً أن في ذلك ما يخفف وطأة سيادة النصارى على الشعب المغلوب ؟ ولكن المنازعات اضطرت

(١) تختلف الرواية العربية في أمر والي ميورقة وقت سقوطها في يد النصارى فيقول ابن أبي سعيد إنه كان عندئذ أبو يحيى بن أبي عمران التينيلي ؟ وقال الخزومي في تاريخ ميورقة إن أمبرها يومئذ كان محمد بن علي بن موسى ، وقد وليها منذ سنة ست وستائة ؟ وقد حقد عليه ملك النصارى بتكرار اعتدائه على السفن التابعة له في مياه الجزائر الشرقية فغزى حلة لمحاربه ، واستولى على ميورقة في يوم ١١ صفر سنة ٦٢٧ هـ ، وأسر الوالي وعذب ومات من العذاب بعد ذلك بسير (راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٤) . وأما سعيد بن حكم ، فقد كان عندئذ والياً لجزيرة منورقة ثمانية الجزائر الشرقية ، فلما سقطت ميورقة في يد النصارى ثار بجزيرته ، ثم تصالح مع النصارى على أداء الجزية (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) . وذكر ابن الأبار في الحلة السيرة ، وهو ماصر لهذه الحوادث ، رواية أخرى مفادها أن سعيد بن حكم تغلب على ميورقة قبل سقوطها في يد النصارى بقليل ، وعين من قبل واليها وهو يومئذ القاضي أبو عبد الله محمد أحد بن هشام والياً لمنورقة ؟ ثم ثار بالقاضي وانتزع منه ميورقة وانفرد بحكمها منذ سنة ٦٣١ هـ ؟ ولما كان ابن الأبار يتفق مع باقي الروايات في أن سقوط ميورقة في يد النصارى كان في صفر سنة ٦٢٧ هـ ، فعني ذلك أن القاضي كان واليها وقت سقوطها ، وأنه تصالح مع ملك النصارى ثم ثار به سعيد بن حكم وحل مكانه في حكمها مع تمهده بإداء الجزية للنصارى (الحلة السيرة ص ٢٥٥) .

داخل الجزيرة بين المسلمين ، ووقع التفاهم بينهم وبين مسلمي إفريقية ؛ ولذلك رأى
جايم حينما ذهب إلى الجزيرة للمرة الثالثة في سنة ١٢٣٣ م ألا يبقى المسلمين من
ضروب الحرية سوى القليل ؛ وحصل البارونات والفرسان القطلونيون الذين
ظهروا في هذه الحرب ، على معظم الأرض المفتوحة بطريق الإقطاع ، وكذلك
خضع المسلمون في جزيرة منورقة لسيادة النصارى ، وقدم زعمائها طاعتهم لملك
أراجون واعترفوا بسيادته . ولم يكن من الصعب على مطران طركونة أن يفتتح
أصغر الجزائر الشرقية ، وهي جزيرة يابسة التي أقطعها الملك لكنيستته ، وقد
استولى عليها في سنة ١٢٣٥ م بمعاونة البارونات والفرسان القطلونيين ؛ ثم إن
الأمير بيدرو البرتغالي — الذي عاش فيما يبدو مدى حين متفيا في مراكش ، وجاء
بعد ذلك إلى قطلونية وحصل على إمارة ولاية أورقلة (أورجل)^(١) بزواجه من
صاحبها الكونتة — استولى على جزيرتي ميورقة ومنورقة من جايم بدلاً
من ولايته .

وعلى أثر فتح الجزائر الشرقية ، وقع فتح أهم ، هو فتح بلنسية . وكان السيد
أبو عبد الله محمد ، الذي يسميه النصارى : زيت أبو زيت^(٢) قد فر منذ
سنة ١٢٢٩ م ملتجئاً إلى ملك أراجون ، ليعاونه على محاربة مفتصب أرضه أبي جميل
زيان ، فوعده الملك بتحقيق مطلبه وعقد معه حلفاً بذلك ؛ وتعهد السيد من جانبه
بأن ينزل إلى أراجون عن ربع الأراضي التي يستردها ؛ وفي الوقت الذي شغل فيه
جايم بفتح ميورقة ، أخذ السيد محمد بمعاونة الفرسان الأراجونيين ، ولا سيما
بمعاونة بيدزو فرنانديز دي أزاجرا ، وبلاسكو دي الوسون ، يشهر الحرب على
خصمه ؛ ولكن السيد لم يوفق في هذه الحرب ، إذ كان يعتمد على قوى قليلة ،
وكان الدفاع عن الأراضي المنزوعة قويا منيعاً .

(١) هي بالأفريقية Urgel ، وهي ولاية صغيرة تقع في شمال غربي قطلونية في سفح
جبال البرنية .

(٢) وأصله بالبرية أبو زيد وهو كنية السيد .

بيد أنه لما انتهى چايم من إخضاع ميورقة في سنة ١٢٣٣ م (٦٢٧ هـ) واشترك بنفسه في الحرب ضد بلنسية ، أخذ التوفيق بحالف الفزاة . وأرغمت برّيانة^(١) الواقعة على البحر ، بمد حصار دام شهرين ، على التسليم ، بالرغم من دفاعها المجيد ؛ وسقطت من بعدها عدة من الحصون ، وكذلك حصن بنيسكولا ، وكلها حصون أمامية لحصن بلنسية الكبير . وبذل الأمير أبو جهيل زيان كل جهد مستطاع ليقف تقدم الأرجونيين ، بل حاول فوق ذلك أن يقوم بغزو أراضيهم ؛ وعقد في هذا السبيل حلقا مع محمد بن هود ، الذي يسيطر على غرناطة ومرسية وجزء كبير من الأندلس ؛ وشجعه أمه في أن يبادر ابن هود إلى نصرته بجيش ضخم ، على أن يسير لمحاصرة حصن شنتمرية ان رزين (شنتمرية الشرق) وهو من أهم الحصون الأرجونية ؛ بيد أن التوفيق لم يحالفه ؛ واستطاعت الحامية النصرانية التي كان يقودها بيدرو فرنانديز دى أزاجرا بكثير من الشجاعة والجلد أن تحطم كل جهود زيان ، فاضطر بعد محاولات عقيمة أن يعود أدراجه إلى بلنسية .

واجتمعت عدة عوامل لتعاون ملك أراجون في مشروعه لغزو بلنسية ؛ فقد استطاع في مجلس النواب الذي عقد في موزون في أكتوبر سنة ١٢٣٦ ، أن يحمّد منازعات الأحزاب التي عادت إلى الظهور في أراجون ، وأن يحقق حريات البلاد ، بحيث أتيح له أن يدعو جميع البارونات والفرسان الإقطاعيين وكذلك المدن إلى الانضمام إلى الجيش . وكذلك عهد البابا جريجورى التاسع إلى تأييد المشروع ، وأعلن في جميع أمم الغرب النصرانية ، أن الحرب ضد بلنسية هي حرب صليبية ؛ وكان من أثر ذلك أن قدمت فيما بعد جموع من فرنسا وإنكلترا لتشارك في هذه الحملة . وقرر چايم عزمه الأكيد على أن يفتح بلنسية ، وأقسم ألا يعود إلى مملكته إذا لم يفز بفتحها ؛ وحذا حذو الملك كثير من البارونات والفرسان ، وكان لذلك وقع حسن في الجيش كله .

(١) هي بالأفريقية Burriana وهي ثغر صغير يقع شمال بلنسية .

وفي سنة ١٢٣٧ م زحف چايم على مملكة بلنسية بنفردا بالوبل ، بجيش يقدره النصارى بألف من الفرسان وستين ألفا من المشاة ، وتقدره الرواية العربية بأكثر من ثمانين ألفا . وكان الأمير زيان في حالة سيئة ، خصوصا وأن حايفه محمد بن هود ، الذي كان يعتمد على عونه أيما اعتماد ، وكان عندئذ يدر إمداده بأسطول وجيش ، قتل عندئذ في ثغر المرية ، وغاض كل أمل في الانتفاع بقواته . وهنا حاول زيان أن يتقى العاصفة التي تنذره ، بأن يمرض تسليم جميع الحصون الواقعة بين طرطوشة ونهر الوادي الكبير ؛ ولكن چايم أراد أن يفتنم القرصة السانحة بأكلها ورفض كل عرض من هذا القبيل .

وبذل فرسان زيان — وهم كثرة — كل ما استطاعوا ليحولوا دون تقدم الجيش النصراني . واشتبكوا معه في معارك مستمرة ؛ ومع ذلك فلم يكن من الميسور أن يردوا جيشاً يفيض حماسة للاقتال في سبيل دينه ، ويغريه أمل الحصول على غنائم عظيمة ؛ وهكذا سقطت جميع القلاع والحصون الواقعة حول بلنسية تباعاً ، وأحاط النصارى بالدينة من البر والبحر ، وذلك في السابع عشر من رمضان سنة ٦٣٥ هـ (مايو سنة ١٢٣٨ م) ومع ذلك فقد لبث أبو جميل زيان يؤمل النجدة ، وقد أرسل في طلبها إلى الأندلسيين ، وكذلك إلى أقربائه بني زيان في إفريقية ؛ ولكن الأندلسيين كانت تشغلهم الحروب الأهلية ، ويهددم نصارى قشتالة ، فلم يكن بوسعهم أن يلبوا النداء ؛ وأما بنو زيان في إفريقية فقد جهزوا أسطولاً صغيراً ، وحاولوا النفاذ به إلى ثغر بلنسية ، ولكن حال دون بنيتهم الأسطول المحاصر ، والمواصف الشديدة ، فسادوا إلى إفريقية من حيث أتوا ، دون أن يتفعموا البلنسيين بشيء (١) .

(١) راجع في سقوط بلنسية ، فتح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ -- ٥٨٠ وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و ١٨٣ ، وكان الأمير زيان حينما حاصر النصارى بلنسية وتوقع سوء الصير ، قد استعان بصاحب إفريقية (تونس) الأمير أبي زكريا بن أبي حفص ، وأوفد إليه كاتبه الصهير أبا عبد الله بن الأبار الفضاعي صاحب كتاب التكملة (تكملة الصلة لابن يشكوال) ، وأعقاب الكتاب ، والحلة السيرة وغيرها ، سفيراً يرجوه الموف والإمداد ، وأنشد ابن الأبار بهذه =

ولما طال الحصار واشتدت وطأته ، وبلغ الإعياء بالمسلمين مبلغه من الهجمات المستمرة ، وبئس زيان من الانجاد ، اضطر أن يفاوض النصارى في تسليم المدينة ؛ وعقدت معاهدة التسليم بين الفريقين في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) ، وذلك بالرغم من سخط البارونات والفرسان ، إذ كان يحدوهم أمل الفينة والنهب . واشترط أن تسلم بالنسية إلى ملك أراجون ، على أن يؤمن جميع سكانها في أنفسهم ، وأن تكفل لهم حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى حيث شاءوا ، وأن من آثروا البقاء في بلنسية منهم ؛ كفلت لهم الحرية في مزاوله شأئهم وشرائعهم وعاداتهم ، وألا يدفعوا من الكوس أكثر ما يدفع رعيا ملك النصارى الآخرون ؛ وأنه يجب في ظرف عشرين يوماً أن تسلم إلى ملك أراجون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقر اليسرى ؛ وفي نظير ذلك بمنح ملك أراجون إلى زيان ورعاياه المسلمين الهدنة لمدة سبعة أعوام . وفي اليوم المحدد دخل ملك أراجون نغر بلنسية في موكب نفخ ؛ وفي الحال حول مسجدها

== المناسبة بين يدى السلطان أبي زكريا فصيده الشهيرة التي تعتبر من فخر القصائد في رثاء دولة الإسلام بالاندلس ، ومطلما .

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التفت	فلم يزل منك عز النصر ملتصبا
وحاشي مما تمنائه حشاشتها	فطالما ذقت البلوى صباح ما
يا للجزيرة أضحي أهلها جزرا	للحادثات وأمسى جدها تمسا
في كل شارقة إلأم بارقة	يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة أخجال شائبة	تفنى الأمان حذارا والسرور أسي
تقاسم الروم لا نالت مقامهم	إلا عقائلها المحجوبة الانسا
وفي بلنسية منها قرطبية	ما ينسف النفس أو ما ينزف النفا
مدائن حلها الإشراك مبتسا	جذلان وارنحل الاعان مبتسا
وصيرتها الدوايد الغانيات بها	يستوحش الطرف منها ضف ما أنسا

وهي طويلة وبها روائع من البيان المؤثر . وبادر الأمير أبو زكريا الحفصى إلى إغاثة أهل بلنسية ، وبعث إليهم في سفنه بالجند واللؤن ، ولكن ذلك لم ينقذ بلنسية من قضائها المحتوم . ولما سقطت بلنسية رجع ابن الأبار بأهله إلى تونس واستقر بها ، ولابن الأبار رسالة بلنسية مؤثرة في رثاء بلنسية أوردها صاحب فتح الطبيب (ج ٢ ص ٥٩٧ وما بعدها) . وفي روض القرطاس أن سقطت بلنسية في يد النصارى كان في سنة ٦٤٢ هـ ، وهو خطأ واضح (ص ١٨٣) .

الجامع على يد أسقف طركونه إلى كنيسة للنصارى ؛ وغادر المسلمون المدينة ، وهم زهاء خمسين ألف نفس في نحو خمسة أيام ، وهاجروا إلى ما وراء نهر شقر ، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا غير آمنين في ظل حكم النصارى ؛ هذا إلى ما شهدوه من أن عدالة ملك النصارى وحدها كانت تحميهم من غضب فرسانه ؛ وقسمت منازل المدينة ومناطقها بين رجال الدين والبارونات والفرسان ، وأهل المدن التي اشتركت في الفتح بنسبة ما اشتركت به الجند ؛ وكان أغلب الفرسان الذين أحرزوا الأملاك في بلنسية ، وعددهم ثلاثمائة وثمانون من أهل قطلونية ؛ وكان هؤلاء أكثر ميلاً من أهل أراجون إلى البقاء في تلك الأراضي البديعة الحصبة التي سميت بخق حديقة كبرى ؛ وقد أسندت إليهم بالأخص مهمة الحراسة والحرب ، ورثب منهم مائة فارس يبقون دائماً تحت السلاح ، ثم يستبدلون بغيرهم كل أربعة أشهر . ونظراً لكثرة النازحين من القطلونيين ، كانت القوانين واللوائح التي يسنها جايم لبلنسية تصدر باللغة القطلونية ، وهو ما كان يثير سخط الأراجونيين .

ورأى جايم أن عمله يكون ناقصاً إذا لم يتم الاستيلاء على مملكة بلنسية كلها ، وخصوصاً على المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر شقر ، وعلى حصونها الهامة . كذلك كان جايم يود أن يسبق قشتالة التي أخذت في الإغارة على أراضي مرسية ، قبل أن تستولى على هذه المنطقة . ولما كان الأمير زيان لا يزال قائماً بمجاربة معظم زعماء هذه النواحي ، فقد كان يوسع جايم في البداية أن يقوم بحملاته وفتوحه ضد المسلمين دون أن ينتهك نصوص الهدنة التي عقدت بينه وبين زيان . وفي الوقت الذي كان فيه زيان يحاول في جموع المسلمين التي هاجرت من بلنسية أن يتناض عما فقدته من مملكته بغزو أراضي مرسية ، والاستيلاء على بعضها بالفعل ، عبر فرسان الداوية والقديس يوحنا وكثير من الفرسان القطلونيين نهر شقر ، وتوغلوا فيما وراءه حتى ظاهر شاطبة ، وافتتحوا عدة من الحصون ، وأحرزوا على جموع المسلمين الكثيفة عدة انتصارات نسبت إلى المعاونة الإلهية أكثر ما نسبت إلى قوتهم وشجاعتهم ؛ ولم يمض قليل على ذلك حتى طرح جايم جانباً كل اعتبار يتعلق باحترام نصوص الهدنة ، وعمد إلى افتتاح باقي أراضي مملكة بلنسية بكل

ماوسع من غزم وقوة ؛ واحتج المسلمون وأميرهم زيان بشدة على هذا الانتهاك وهذه الخيانة ، وقالوا إنهم لم يسلّموا إليه بلنسية إلا مقابل عقد الهدنة لبضمة أعوام ، وكان أشق ما في هذه الغزوة الاستيلاء على حصن شاطبة المتبع بموقعه ، ولم يكن من اليسور أن يتقدم النصارى في فتوحهم دون الاستيلاء عليه . وكان النصارى قد حاصروا شاطبة عبثاً في سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) ، واضطرّ جاييم أن يترك الحصار ، ومع ذلك فإنه لم ييأس ولم تنفّر همته ، ولجأ إلى جميع الوسائل من الخديعة والإقناع والوعيد والعنف ليحقق بغيته بالاستيلاء على المدينة . وقد وفق بعد جهود طالت أربعة أعوام إلى أن يكسب حاكم شاطبة — وهو من أنصار الموحدين — بالوعود المغرية ؛ وكان قد حاول عبثاً أن يحصل على معاونة القشتاليين ؛ واستولى جاييم على شاطبة في سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) ، وكان لذلك وقع أليم في نفس ملك قشتالة إذ كان يود أن يفتتح المدينة لنفسه ؛ واشترط أن يبقى المسلمون في شاطبة في أملاكهم آمنين ، بل استمرت إحدى قصبات المدينة في قبضتهم زهاء عامين ، وحصل حاكمها لنفسه ولأنصاره على حصن متريزه ، وبلاّده .

وفي نحو هذا التاريخ — قبله أو بعده بقليل — استولى جاييم على ثغر دانية ؛ وكان صاحبها الزعيم الباسل يحيى بن محمد عيسى أبو الحسين ، أحد أنصار الأمير المنكود محمد بن هود ؛ وقد أبدى في الدفاع عن المدينة كثيراً من الشجاعة والبراعة ، ولكنه اضطر أخيراً إلى التسليم ، بعد أن ضربها ملك أراجون من البر والبحر بالنجنيقات ؛ ودخل جاييم ثغر دانية في مستهل ذي الحجة سنة ٦٤١ هـ (مايو سنة ١٢٤٤ م)

وكان المسلمون لا يزالون كثرة في هذه الأنحاء ، يثورون ضد النصارى كلما سنحت الفرصة ؛ ولهذا لم يهدأ بال جاييم ، ولم يعتبر فتحه كاملاً ، قبل أن يطرد جميع السكان المسلمين من المملكة ، وقد تم ذلك في سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) وتلفت مملكة غرناطة جميع اللاجئين ، وزاد بذلك سكانها وقوتها ، وأصبح فتح مملكة بلنسية على جاييم لقب « الفاتح » .

الفصل السابع

فتوح فرديناند الثالث في جنوبي اسبانيا

ونهاية سلطان الموحدين في الأندلس

بينما كان جاييم ملك أراجون يغزو مملكة بلنسية ، كان فرديناند ملك قشتالة يفتيز فرصة اضطراب مسلمى الأندلس وتفرق كلمتهم ، وينتزع منهم مدنها واحدة بعد أخرى ، حتى غدا سيد المنطقة كلها . وكان التوكل محمد بن هود قد استطاع بعد موت سلطان الموحدين المأمون في سنة ١٢٣٢ م (٦٢٩ هـ) أن يسيطر على معظم قواعد الأندلس ، وكان سلطانه يعتمد من مائة على المربة وغرناطة وقرطبة حتى مرسية ، بينما كان أبو عبد الله محمد بن الأحمر النصرى يسيطر على أرجونة ووادي آش وبياسة وجيان ، ويحكم بغض الأمراء الموحدين إشبيلية وما حولها من النواحي ؛ وكان جميع أولئك الأمراء المسلمين يحقد بعضهم على بعض ويحارب بعضهم بعضاً بشدة ومضاء ، وكان ذلك مما يسهل مهمة محاربتهم على عدو خارجي مثل فرديناند ملك قوات ضخمة ، ويمكنه بانتهاز هذه الظروف اللائقة من أن يسير من فتح إلى فتح .

واستطاع فرديناند في أعوام قليلة ، بصدافته ومحالفته لهذا الأمير طوراً وخصومته لذلك طوراً آخر ، أن يقوم بفتوح هامة في الأندلس ، وأن يستولى على عدد كبير من الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يبعث في البسائط أعما عيث ، وأن يقتل ويأسر ألوفاً من السكان : أجل كان النصارى الاسبان كلما أمنوا انتقام

خصومهم ، ازدادوا قسوة وعتقا ، ولم يكن الشيوخ والنساء ، بل الأطفال بمنجاة من سفكهم .

وما كاد فرديناند يوطد عمرشه في ليون ، ويخضع الأحزاب الخصيمة لصولته حتى عهد إلى إشهار الحرب على المسلمين بكل ما وسع من قوة ؛ وسير أخاه الانقانت ألفونسو ، والقائد الشجاع الفاربيريز على رأس جيش إلى منطقة قرطبة ، فافترا بما أحرزا هنالك من نجاح أيما غرور ، حتى أنهما تقدما إلى إشبيلية ، ثم تجاوزاها إلى فخص شريش على نهر وادى لسكة (الجوادليث) ، وهو المكان الذي استطاع طارق أن يقضى فيه على مملكة القوط ، في الموقعة التي نشبت بينه وبين الملك ردريك (لدرين) . وساد الروع الذي أناره النصارى بعنفهم وقسوتهم جميع أرجاء الأندلس ، واشتد سخط الشعب على أولئك الأمراء الذين شغلوا بالنضال حول السلطة ، وتركوا البلاد لأعداء الدين يعمنون فيها نهباً وعيثاً دون أن يردعهم رادع ؛ ورأى المتوكل محمد بن هود أن ينزل على صوت الشعب أخيراً وأن ينفذ بذلك مؤازرته ، فترك الحرب التي كان يخوضها ضد ابن الأحمر ، وأذاع نداء عاما في الأندلس كلها إلى حرب الجهاد ضد النصارى ؛ وحشدت رغبة الانتقام والحماة الدينية حول ابن هود جموعا كبيرة ، ووفد من إفريقية ذاتها كثير من المسلمين يدفعهم حب الاستشهاد ؛ وخرج المتوكل على رأس جيش ضخم من المشاة والفرسان ، ولقى النصارى في فخص شريش على ضفاف وادى لسكة حيث كانوا يحرسون غنائمهم وأسرهم ودوابهم ؛ وكان عددهم قليلا لا يمدو ألفاً وخمسمائة مقاتل . وكان من الواضح أنه لا مفر لهم من الهلاك . ذلك أن جيش المسلمين كان من الكثرة بحيث استطاع أن يطوق النصارى تطويقاً تاماً ؛ ولكن النصارى لم يسمعهم إزاء هذا المأزق السيء إلا أن يجمعوا أمرهم ، وذكر قائدهم الفاربيريز ما أبداه طارق في نفس المكان من بطولة ، وما أحرزه في موقعة شريش بجنده القليل من النصر على جيش ضخم ، وحث جنده بنفس الكلمات على أن يخوضوا معركة الموت ؛ وبعد أن أمر بقتل الأسرى المسلمين وعددهم خمسمائة حتى لا تشغله

حراستهم أثناء المعركة ، خاطب القشتاليين بقوله : « البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، ولا نجاة لكم إلا بعمون الله ، فهبنا نفتدى الموت غالياً » . وبعد أن تضرعوا إلى الله والقديس ياقب ، واعترفوا وتلقوا الغفران ، احتشدوا عند بزوغ الفجر في صفوف متراصة ، وقاد المقدمة الفار بيريز ، وقاد البقية الانفانت ألفونسو ، ووثبوا إلى الهجوم من الجانبين بقوة وعزم ، تحت صوت الأبواق ، وقرع الطبول ، ونفخ القرون ، وصيخة الحرب المروعة يلقبها الجند . وسرعان ما التف الفرسان المسلمون بكثرة حول النصارى من كل صوب ، ولاح هلاكهم محققا ، ولكن القشتاليين واجهوا حراب الأعداء بصفوف متراصة لا تخترق ، وردوا الفرسان المسلمين على أعقابهم ، وشقوا طريقهم إلى صفوف المشاة التي اختل نظامها من جراء ارتداد الفرسان ، وسحقوا كل معارضة في طريقهم . وهكذا استطاع النصارى بالرغم من خسارتهم الفادحة أن يفروا من الهلاك . ومع أن التوكل سير جنده لمطاردبهم ، فإنه لم يستطع أن يلحق بهم كبير أذى . ولاح هذا النصر للنصارى كأنه مفاجأة مدهشة ، حتى أنهم نسبوه إلى معونة القديس ياقب ، وزعموا أن القديس ياقب ظهر أثناء المعركة على فرس أبيض ، وكان يقاتل المسلمين ويلقى الرعب في قلوبهم ، ويلجئهم إلى الفرار . وزعم النصارى فوق ذلك لكي يزيدوا من روعة هذا النصر ، أنهم لم يبقوا في هذه الموقعة الدموية سوى رجل واحد ، وأن هذا الرجل قد عاقبه الله بالموت لأنه لم يتصاف قبيل المعركة مع خصومه كما فعل الباقون . وتتفق الروايات النصرانية والإسلامية على أن هذه الموقعة قد حدثت في سنة ١٢٣٣ م (نهاية سنة ٦٣٠ هـ) .

وفي العام التالى ، حينما حل وقت افتتاح الغزو ، سارت عدة فرق من الجند القشتاليين إلى الأندلس غازية ، فأحرزت كلها قسماً من النجاح . وكان فرسان الجماعات الدينية قد افتتحوا في أوائل العام بقيادة آدم أسقف بلازنسيا ، حصون ترواله ، ومجسيله ، ومديلين ، والهائج . وافتتح فرسان القديس ياقب حصن منطيل . وفي الصيف خرج الملك فرديناند نفسه في قواته ، وطوق مدينة أبده بآلات

الحصار حتى سلت ودخلها القشتاليون في سبتمبر سنة ١٢٣٤م (٥٦٣١هـ) ، بمد أن سمح لحاميتها الإسلامية بالانسحاب .

وتلا الاستيلاء على أبده فتح أم ، هو فتح قرطبة . وكان التوكل بن هود ، حينما سقطت أبده يسير إلى غرناطة بجيش ضخم لمحاربة ابن الأحمر ، ففي تلك الآونة سار قسم من الجيش النصراني الذي حاصر أبده مع قوات أخرى إلى منطقة أندوجار ، وطأوا في تلك الناحية ، وأسروا كثيراً من المسلمين ؛ وعلموا من هؤلاء الأسرى أن قرطبة في حالة سيئة ، وقد أهملت وسائل الدفاع عنها ؛ وتطوع من بينهم بعض الخونة لمعاونة النصارى على افتتاح هذه القاعدة الأندلسية الهامة ؛ وعمل النصارى بالمثل القاتل : في الجرأة نصف النجاح ، فسارت الفرقة الصغيرة من الجند النصارى تحت جنح الظلام في هدوء حتى وصلت إلى قصبة قرطبة الأمامية السماة بالشرقية (أو شرقية قرطبة) ، وذلك في ٨ يناير سنة ١٢٣٦م ؛ وساعد هطل المطر على إخفاء حركاتهم .

ووضع النصارى ، بإرشاد الخونة من الأسرى ، السلام على الجدران ، وصعد عليها عدة من الفرسان النصارى دون أن يشعر بهم الحرس ؛ ولما اقتربوا من أحد الأبراج التي تأوى بعض الحراس — وكان منهم حارس قد اشتراه النصارى — رد النصارى عليهم نداءهم مخادعين بأنهم من سرايات التفتيش ؛ وهكذا دم النصارى الحراس المخلصين وقتلواهم بسرعة ، وهدموا الجدران دون أن يشعر بهم أحد من المسلمين ؛ واستولوا بذلك على أحد الأبراج المنيع ، وعلى قسم من السور ، وعلى الباب المسمى باب مرطوس ، وقتلوا حراسه ، وفتحوه ، فدخل منه إلى المدينة زملاؤهم التربصون في الخارج ؛ وفاجأ النصارى أحياء الضاحية بالهجوم ، وجرى دم السكان المسلمين غزيراً .

وحينما لاح الصباح علم الناس بما وقع من مدمامة القسبة الشرقية ، وعندئذ بادر نفر من أشجع رجال الحامية إلى مهاجمة المعتدين في الحال ، وأخرجوهم غير مرة من شوارع القسبة ، وأجأوهم إلى داخل البرج ، ولكنهم لم يستطيعوا

فهاجّة البرج نفسه ، وبقي النصارى بذلك مسيطرين على القصبية ، وجدوا في تحصينها بجميع الوسائل ، بوضع التاريس وإقامة العمد وغيرها .
ورأى النصارى أنهم لا يستطيعون بمجموع القليل غزو مثل هذه المدينة المنظمة ، التي يؤلف سكانها الذكور وحدهم جيشاً بأسره ، فأرسلوا على عجل رسولا إلى قائد هذه المنطقة القار بيريز دى كاستروس ، وكذلك إلى الملك فرديناند نفسه ، راجين إرسال المدد السريع لإتمام فتح قرطبة .

وسار القار بيريز بجميع جند الحدود ممن استطاع أن يقتطعهم من حاميات الحصون ، وانضم إلى الجند الذين ملكوا القصبية الشرقية ، ولكن عددهم لم يكن مع ذلك كافياً للقيام بأعمال ذات شأن . أما فرديناند الذي كان يقيم عندئذ في مملكة ليون ، فما كاد يقف على هذا النبا ، حتى اهتم له أيعا اهتمام ، وسار في الحال في ثلاثين فارساً فقط ، وأصدر الأوامر بأن تتبعه جموع الفرسان بأسرع ما استطاع ، وكذلك فرسان الجماعات الدينية والمدن أخذوا يجتمعون بسرعة وينضمون إلى الجيش . ولما كانت الأنهر قد فاضت بماء المطر الغزير ، وكان الوقت مبكراً لم تبحر العادة فيه بامتياز الحرب ، فقد عاق ذلك سير الجند ، واجتماع الصفوف ؛ ولهذا سار فرديناند في قوة صغيرة إلى مدينة رديك ، ثم اخترق ولاية استرانادوره إلى مدينة القلعة ، وبمث يني النصارى الرابطين في ضاحية قرطبة بمقدمه السريع ، متى اجتمع لديه الجند الذين أمر بمحشدهم من كل صوب .

فأذكي ذلك من عزائم النصارى في قرطبة إلى الدروة . أما أهل قرطبة أنفسهم فقد تولاهم الفزع والروع ؛ واتجه أملهم الوحيد في النجاة إلى التوكل محمد بن هود ، وأرسلوا إليه الرسل طالبين الإنقاذ بأسرع ما استطاع . ولم يكن ابن هود يجهل أى خطر يتعرض له الإسلام في الأندلس إذا سقط هذا الحصن النيع في يد النصارى ؛ ومن ثم فانه لم يتردد في أن يحشد في الحال جيشاً ضخماً ، وأن يسير على عجل لإنقاذ المدينة المهددة ؛ فلما وصل إلى استجة ، علم بأن النصارى بقيادة ملكهم فرديناند قد اقتربوا من قرطبة في جيش ضخم ؛ وهنا ذكر التوكل

ما أصابه من قبل في معارك خاضها مع قوات نصرانية أقل عدداً ، ولم تحقق له
الكثرة العددية أى تفوق أو مزية ، وخشى المواجهة إذا اشتبك دون تبصر في
معركة لم يتحقق فيها بعد من قوى قوة أعدائه ؛ ولما عقد المجلس الحربى كان
التوكل من رأى قاده الذين نصحوا بإرسال الرسل للتحقق أولاً من مبلغ قوى
فرديناند ومواقعها الحقيقية ، ولم يوافق على رأى الذين نصحوا بالبحث عن العدو
توا ومهاجمته على الأثر .

وكان في جيش المسلمين فارس جليقي يدعى لورنسيوس سوارز ، كان الملك
فرديناند قد نفاه من المملكة بسبب أعماله العنيفة ، فخرج منها مع بعض أتباعه
من الجند والتحق بخدمة التوكل ؛ فاستدعاه التوكل ، وعهد إليه بأن يأتى إليه
في ظرف ثلاثة أيام بمعلومات وثيقة عن جيش فرديناند . وكان سوارز يبحث قبل
كل شئ عن صالحه ، فرأى الفرصة سانحة لكي يحصل على عفو الملك فرديناند ،
وإذن العودة إلى وطنه ؛ فانسل إلى المعسكر النصرانى ، وتوصل إلى مقابلة الملك ،
ونبأ بمحققة مهمته ، وبأنه قد اعتزم تخادعة المسلمين ، وأنه سيقدم إليهم عن
قوى النصرارى وصفاً لا يجرأون معه على محاولة إنقاذ قرطبة ، وأنه يجب إحكاما
لخديمة المسلمين ، وخشية من أن يحصلوا على معلومات أخرى ، أن يأمر الملك
بمضاعفة نيران الحرس ليلاً .

ولما علم التوكل من سوارز إثر عوده أن الجيش النصرانى يتفوق بكثرتة
تقوفاً كبيراً ، وأنه حسن الأهبة والتسلح ، ساوره التردد في أن يشتبك معه
في موقعة ؛ وبينما هو في تردده وحيرته فيما يفعل ، إذ وصلتته أنباء من أبى جميل
زيان أمير بلنسية حملته على أن يعتزم أمره ؛ ذلك أن زيان حينما شدد عليه چايم
ملك أراجون الضغط أرسل يستنثى بأخيه في الدين ، ويطلب إليه المدد
السريع ، ويمد نظير ذلك بخضوعه وطاعته إليه . وهكذا لاح لابن هود أمل
في الاستيلاء على مملكة بلنسية ، وخشى في الوقت نفسه أن يكون جنده مازالوا
متأثرين بذكريات معاركه السابقة مع النصرارى ، وأن يكونوا غير أهل للاشتباك

مع جيش فرديناند في معركة ظافرة ، فترك قرطبة إلى مصيرها ، وهو يعزى نفسه
وعينها بأن أهل قرطبة ، وهم كثرة حاشدة ، قد يستطيعون رد النصارى ، وأنه
حتى إذا سلمت المدينة ، فإنه من اليسور استردادها ، خصوصا وأنه يتمتعر على
النصارى أن يمكنوا سلطانهم من السكان المسلمين .

وكانت تضطرم في تلك الأثناء حول قرطبة عدة معارك دموية شديدة ؛ وكان
القرطبيون يقاتلون بمنتهى الشجاعة من أجل الوطن والحرية والحياة طالما
خالجهم أمل الإيقاذ والفوثة ، ويدافعون عن أنفسهم بمنتهى الشدة والبسالة
في الشوارع والبيادين ، ويبعدون ضروبا رائمة من الجلاء والاحتمال ؛ ولكنهم
لما علموا بأن التوكل سوف يتركهم إلى مصيرهم ، وأنه سار بالفعل إلى نجدة
أمير بلنسية ، خبت شجاعتهم ، وحل الخور واليأس لديهم مكان القوة والبسالة .
وأما فرديناند ، فإنه بالمعكس ، فضلا عن استقدام الجند من جميع الأنحاء بعد
تحسن الجو ، أخذ يشدد في حصار المدينة بكل ما وسع ، واستمر يبالغ في التضيق
عليها ، حتى اضطر أهلها إلى البدء في مفاوضات من أجل التسليم ؛ بيد أنهم لم
يحصلوا منه على أكثر من عهد بتأمين النفس والحرية ، ولم يسمح لهم بالاحتفاظ
بشيء من أملاكهم وأموالهم ؛ وفي ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيه
سنة ١٢٣٦ م سقطت قرطبة في يد النصارى بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين
خمسة وخمسة وعشرين عاما^(١) .

وما كاد النصارى يستولون على المدينة حتى وضعوا صليبا فوق مسجدتها
الجامع ، الذي أقامه الخلفاء الأمويون بمنتهى البذخ والبهاء ، ورفعت راية ملك

(١) راجع في حوادث سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٣ ، ويسى
ابن خلدون فرديناند ملك قشتالة المستول على قرطبة : « هرانده » (ص ١٨٣) مع أنه يسمى
فرديناند عادة « بفردلند » (راجع ص ١٨٢) . وكذلك روض القرطاس ص ١٨٣ ، ونجح
الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ ، ويذكر المفري هنا أن غرناطة سقطت في يد النصارى في ٢٣ شوال
سنة ٦٣٦ هـ ، وهو تحريف ظاهر فيما يتعلق بالسنة . والمجمع عليه أنها سقطت في
سنة ٦٣٣ هـ .

قشتالة على أبراج « القصر » ، وانتظم موكب في طليعته الكهنة المختلفون وفرسان الجماعات الدينية وجمهرة كبيرة من الفرسان ، ودخلوا المسجد الجامع وهم ينشدون أناشيد الحمد والشكر ؛ وفي الحال قام يوحنا أسقف أوسمه بتحويل المسجد إلى كنيسة نصرانية ، وأقام به القداس . ولما عثر فرديناند بالتواقيس التي انتزعها الحاجب المنصور فيما مضى من كنيسة القديس ياقب ضمن غنائمه ، وحملها الأسرى النصارى على أكتافهم إلى قرطبة ، أمر بأن تعاد بالمثل إلى مكانها الأصلي على أكتاف الأسرى المسلمين .

وغادر المسلمون المغلوبون قرطبة بقلوب محزنة ، وتفرقوا في باقي مدن الأندلس ، واقسم النصارى الأملاك والدور المهجورة ؛ ولما ذاع نبأ سقوط قرطبة ، خضع كثير من القلاع والحصون . وكان أهمها حصون : بياسة ، وأستجة ، والدور ، ورتفيله ، وأشتبه .

وفي تلك الأثناء توفي المتوكل ، محمد بن هود ، فجأة ؛ فأنارت وفاته انقلابا كبيرا في الأندلس ، إذ كان حتى وفاته أقوى الأمراء المسلمين في جنوبي إسبانيا . وكان بعد أن ترك قرطبة إلى مصيرها قد سار إلى الربة معترضا أن ينقل جنده منها بالسفن كي يصل بسرعة إلى بلنسية ، وينجد زيان ضد الأرجونيين ؛ فاستقبله عبد الرحمن صاحب الربة في قصره أعظم استقبال ، واحتفل لتقدمه بإقامة المآدب والحفلات الشائقة . ولكنه لما آوى إلى غرفته للنوم ، انقض عليه مضيفه الخبيث الغادر ، وقتله خنقا ، وذلك في ٢٧ جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ (سنة ١٢٣٧ م) . وفي صباح القد ، أذيت إشاعة مفادها أن المتوكل توفي بالصرع بسبب الإفراط في السكر (١) .

(١) كان صاحب الربة يومئذ ، وهو الذي يسميه المؤلف بعبد الرحمن ، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأموي الرميبي وزير ابن هود ؛ وكان يدعو ذا الوزارتين ؛ وقد ولاه حكم الربة . ويذكر لنا ابن خلدون أن ابن هود حينما قدم على وزيره في الربة توفي في الحمام ، بيد أنه يشير إلى رواية قتله واتهام وزيره بذلك (ج ٤ ، ص ١٦٩) . وأورد المقرئ تفاصيل أخرى عن علاقة ابن هود بوزيره الرميبي ، وعن وفاته (نفح الطيب ج ٢ ، ص ٥٨١ و ٥٨٢) .

وقد أنفق المتوكل أيام حكمه كلها في نضال مستمر ضد الاضطراب والثورة ،
وضد أطماع الزعماء المسلمين ، وغزوات النصارى . ولم يكن من اليسور إزاء
هذه القوضى الشاملة والأخطار المديدة ، أن توطد دعائم الحكم ، وأن تجتمع له
أسباب القوة . وكان المتوكل ، وهو عقب بنى هود الذين كانت لهم من قبل دولة
قوية فى سرقسطة ، يرى آسفاً أن الإسلام فى جنوبى اسبانيا يقترب أيضاً من
نهائته . وليس أدل على أهمية شخصه — كمال فى جمع كلة الأندلس — من أنه
سرعان ما أذيع موته حتى تفرق الجيش الذى كان يقوده ، وعيناً حاول القادة
أن يعيدوا الجند إلى الصفوف . وقد أشاد شاعر العصر أبو بكر محمد بن أحمد
الصابونى بخلال ابن هود وشجاعته ، فى قصائد غراء . وانهم المتوكل بأنه لم
يكن قويا فى دينه ، وأن ذلك كان سبب هلاكه .

وآل ترات معظم الولايات التى حكمها ابن هود إلى محمد بن نصر بن الأحمر ،
أمير جيان وأرجونه ؛ ولم يقتصر الأمر على استيلائه على الربة على يد حاكمها
الغادر عبد الرحمن ، ولكنه استولى أيضاً على غرناطة الحصن الهام ، وقاعدة
مملكة ابن هود ، بدعوة من أهلها ، وذلك فى رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل
سنة ١٢٣٨ م) ، وبها جعل مقر حكمه .

وسرعان ما اعترفت بطاعته أيضاً مالقة وكثير غيرها من مدن الأندلس .
أما إشبيلية وشريش ومدن الغرب (غربى الأندلس) فقد احتفظت باستقلالها
أو انضوت تحت حكم الوحدىن المحتضر .

وحكم فى باقى أراضى المتوكل — أى فى مرسية — فى البداية — أخوه على بن
يوسف عضد الدولة ، ونودى به أميراً عليها فى الرابع من محرم سنة ٦٣٦ هـ
(١٢٣٨ م) ، ولكن حكمه لم يطل أمده ، إذ استولى على مملكته أبو جميل زيان بن
مدافع بن يوسف بن سعد الجندى ، وذلك فى الخامس عشر من رمضان من نفس
العام ، وأسر ، ثم قطع رأسه بعد ذلك بأيام قلائل^(١) . وعلى أثر ذلك اختلف الزعماء

واضطرب القتال بينهم من أجل رئاسة المدينة ، وسادتها الفوضى الشاملة^(١) .

وفي الوقت الذي كان فيه چايم ملك أراجون يتابع فتوحاته في شرق اسبانيا بعد أن انتزع قلعة بلنسية من أبي جميل زيان ، وقضى على إمارته في ولاية بلنسية ، كان محمد بن الأحمر النصارى يزداد في جنوبي اسبانيا قوة وسلطانا ، وكان ينضوي تحت لوائه كل مسلم يعنيه إنقاذ الإسلام ؛ وكان مولده بمحضر أرجونه Arjuna في أسرة قديمة عريقة في النبيل ، وكان قد ترك فلاحا الأرض (إذ كان كالرومان القدماء يفلح ضيعته بنفسه) ، وهرع إلى ميدان الحرب أيام خليفة الموحدين المأمون ، حينما ساد الاضطراب جميع أرجاء الأندلس ، وسقطت فريسة لفزوات النصارى ؛ وأذكت محاسن الصدف ، وعلامات ونبوءات عمرضت له بإحراز السلطان ، شجاعته في المارك إلى الدروة ؛ ولما تفاقمت الخطوب على الأندلس من جراء غزوات النصارى المنظمة ، منحه الزعماء المتطلعون إلى المون لقاء شجاعته الرياسة أولاً في أرجونه ، وهي موطن أسرته بنى نصر ، ثم على المدن المجاورة لها ؛ فوطد فيها رياسته بالرغم من معارضة ابن هود ، وبسطها من بعد وفاته على جزء كبير من جنوبي اسبانيا .

وأخذ محمد بن الأحمر يحشد من حوله جميع المسلمين الذين غادروا البلاد التي افتتحها النصارى ، وسرعان ما غدا عضد الإسلام الوحيد ، وأصبح كل من لم يؤيده ويلتف حوله يعتبر خارجا على الإسلام ؛ ثم دعا الشعب بأسره إلى محاربة النصارى ، وبعد أن حشد جموعا كبيرة من الفرسان ، وكذلك جيشا ضخما من المشاة ، سار إلى أرض النصارى ، وعسكر أمام قلعة مرطوس ، وكاد يتغلب عليها لولا أن قدم لإنجاده جيش من النصارى ، فرفع ابن الأحمر الحصار عنها ، ولكنه لم يحجم عن الاشتباك مع النصارى في معركة أحرز النصر فيها ،

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٧٠ ؛ وفي روايته أن الذي ولي مرسية بعد وفاة ابن هود ولده أبو بكر محمد الملقب الواقى ؛ وتناوبها من بعده عدة من الزعماء . راجع أيضا نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨١ .

(سنة ١٢٣٨ م — ٦٣٦ هـ) ، وبذلك أعاد الثقة إلى نفوس جنده في قوة السلمين . واستطاع فرديناند بعد غزوات عديدة ، ومهاجمات لبعض المدن الصغرى ، أن يضم بالصلح والتراضي ولاية بأسرها ، هي مملكة مرسية . وكانت مرسية ، منذ مقتل محمد بن هود ، قد اقتسمها رهط من الزعماء ، وأصبح لكل مدينة ، بل وكل قلعة ، حاكم مستقل ، ينحصر نشاطه في أن ينازع جاره ملكية مدينته أو منطقته ، أو أن يدفع عدوانه عن أملاكه . وهكذا شملت الحرب الأهلية جميع الولاية ، وعانى الشعب أروع الآلام من عسف الزعماء الطامعين المتطلعين إلى الحكم والسلطان . ولما بدا أن أمير غرناطة محمد بن الأحمر يرى إلى أن ينتهز فرصة تفرق الزعماء ، والاستيلاء على بلنسية ، وهو ما كان يرجوه الشعب لكي يتخلص من نير الطغاة الأصاغر ، آثر أولئك الزعماء أن يحتفظوا بسلطانهم كأتباع للملك قشتالة ، على أن ينزلوا عنه لابن الأحمر ، أو أن يتحدوا على مقاومته ؛ ولما نعى إليهم أن ألفونسو أكبر أولاد الملك فرديناند ، قدم إلى حدود الولاية على رأس قواته ، أرسل كل منهم إليه رسولا للمفاوضة وتقرير الشروط التي يرى أن يخضع للملك قشتالة وفقاً لها . وفي « الكراز » وقعت الشروط التي يخضع بمقتضاها محمد بن علي بن هود والى مرسية ، وحكام لقنت ، وأريولة ، والحامه ، ولبيط ، وعقيقه ، وجنجاله ، وخلاصتها أن يبقى هؤلاء متمتعين بحكم مدنهم وموارد دخلهم ، وعليهم في مقابل ذلك أن يدبخوا بالطاعة للملك قشتالة باعتباره سيدهم الأعلى ، وأن يؤدوا له الجزية ، وأن يتعهدوا بأخذ جنود من النصاري في القلاع والحصون . ولكن والى لورقة ، أبا بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب أبي أن يدخل في هذا الاتفاق ، إذ كان يدعى السلطان على مملكة مرسية بأسرها باعتباره خلفاً للمتوكل محمد بن هود ، بيد أنه لم يستطع أن يحتفظ إلا بثلاث مدن هي لورقة وموله وقرطاجنة ، وكان ينبغي عنه حاكماً في كل من موله وقرطاجنة . كذلك كانت مدينتا شاطبة ودانية اللتان تبعدان عن أملاكه تترقان بسلطانه ، وقد ولي عليهما أبا الحسين يحيى بن أحمد حاكماً من قبله .

وبعد أن تلقى ألفونسو طاعة زعماء « الكراز » وهي مدينة تقع على مقربة من منابع نهري شقورة والوادي الكبير ، وبذلك كفل لهم الحماية ضد أى اعتداء ، سار في عدد كبير من الفرسان القشتاليين والزعماء الخاضعين إلى مدينة مرسية ، فدخلها بين مظاهر الاحتفال الفخمة (سنة ١٢٤٣ م - ٦٤١ هـ) ، ورتب في المراكز الهامة ، في الأراضي الجديدة ، جنوداً كحامية تسهر على ولا المسلمين . وحاول ألفونسو عند عودته أن يرغم والي لورقة الذي أصر على رفض الخضوع على التسليم بالسيف ، واستطاع أن يفتح قلعة مولة الواقعة على نهر شقوره (Segura) . ولكنه أخفق في افتتاح قلعة لورقة وقرطاجنة ، واكتفى بالعيش في أرضهما (سنة ١٢٤٤ م) .

وهنا استطاع فرديناند لأول مرة أن يحارب أمير غرناطة بنجاح . فأرسل ولده ألفونسو مرة أخرى بجيش لافتتاح لورقة وقرطاجنة ، ومن ثم تهديد غرناطة من هذه الناحية ، وسار بنفسه بجيش آخر من أندوجار إلى جيان ، وخرب هذه المنطقة ، وأرسل قسماً من جيشه بقيادة نونيو جونزالز دي لارا إلى قلعة أرجونة لمحاصرتها . ولما كانت أرجونة غير مستعدة لحصار طويل ولم تزود بالمؤن (خصوصاً وقد كان القحط يعصف يونثد بجنوبي اسبانيا) فقد فتحت أبوابها للنصارى ، وغادرها سكانها الذين أمنوا في أنفسهم ، إلى أماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ؛ وشجع النصارى هذا النجاح فتابعوا فتوحهم واستولوا على حصون قسطنطية ، وبجبالر ، ومنتجر ، وكارنجز ؛ وفي ربيع نفس هذا العام (١٢٤٤ م) زحفوا على وادي قرطبة ، ولم يلق الفرسان القشتاليون مقاومة تذكر ، حتى وصلوا إلى ظاهر غرناطة ذاتها ، وبدأوا حصارها في الحال ، ولكن تقدم الوقت وقيام المحصورين بهجمات عنيفة كانت تكبد القشتاليين خسائر فادحة ، وزحفت قوة إسلامية على مرطوس وراء خطوط القشتاليين ، كل هذه حملت النصارى على رفع الحصار ، والارتداد إلى أراضيهم ، وكانت هجمات المسلمين تتوالى عليهم حين العودة . وفي تلك الأثناء خرجت مرسية من قبضة النصارى مرة أخرى ؛

ذلك أن بعض المسلمين لزعمائهم الذين يعتمدون في تمكين سلطانهم على الجند القشتاليين كان يشتد يوماً عن يوم ؛ فلما سار أبو جيل زيان عقب فقده لبلنسية واستيلاء جاييم ملك أراجون عليها ، إلى مدينة مرسية ، وغزا أراضيها بقوة لا بأس بها ، هب المسلمون لتحطيم النير الذي فرض عليهم ، ونادت شاطبة ودانية ، ومدن أخرى بانقضائها تحت لواء أمير بلنسية السابق . وسار عزيز بن عبد الملك والى لورقة في قوانه لمحاربتها ، ولكنه هزم وقتل في معركة دامية (٢٦ رمضان سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م)^(١) ، ومكن هذا النصر زيان من الاستيلاء على لورقة وقرطاجنة وعدة أماكن أخرى ؛ ولم يستطع القشتاليون مقاومته ، فطردوا من كل مكان . ولما كان ملك أراجون يستير قوانه أثناء ذلك لافتتاح شاطبة ودانية وكنائهما تقع في أراضي مرسية ، وتعتبرها قشتالة واقمتين تحت سيادتها ، فقد كان تطور الحوادث على هذا النحو نذيراً باضطرام الخلاف بين الملكتين على حقوق الفتح في أراضي مرسية .

وفي العام التالي ، أعنى سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) ، اعترم ابن الأحمر أمير غرناطة أن يشحن قلعة جيان بالمؤن والسلاح ، إذ كان يتوقع أن يهاجم ملك قشتالة هذه القلعة الواقعة على الحدود ، فأرسل إليها قافلة من ألف وستمائة من دواب الحمل محملة بالمؤن والذخائر ، وسارت من غرناطة إلى جيان في حراسة خمسمائة فارس ، فلما علمت قوات النصارى على الحدود بأمر هذه القافلة ، سارت إلى منطقة جيان مما يلي غرناطة ، وتربصت لمهاجمتها والاستيلاء عليها . ولكن المسلمين علموا بهذا السكين في الوقت المناسب ، وعادت القافلة إلى غرناطة . وأدرك النصارى من ذلك أن جيان ليست مزودة بالمؤن الكافية ، فوجهوا عنايتهم لافتتاحها ، وبدأوا حصارها بتخريب جميع المناطق المحيطة بها ، حتى تصبح وقد غاص أهلها في تلقى أى قسط من المؤن ، ومع أن النصارى كانوا متفوقين في العدد ، فقد

(١) راجع في ترجمة عزيز بن عبد الملك أخلة السراء من ٢٤٩ وما بعدها ، وفي رواية ابن الأبار أن وفاته كانت في جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ :

دافعت الحامية عن المدينة ببسالة نادرة ؛ بيد أنه لما كانت جميع القلاع والحصون القريبة منها قد وقعت في يد النصارى ، ولم يوفق ابن الأحمر حينما سار في قواته من غرناطة بسرعة لايجاد جيان بل هزمه النصارى ، فقد كان من الواضح أنه يتعذر على هذه القلعة التى تنقصها جميع وسائل الدفاع ، أن تصبر طويلا على هجمات القشتاليين ، وأمر فرديناند — الذى أقسم بالاستيلاء على المدينة — قواته بمطالبة الحصار بالرغم من قسوة الشتاء وهطل الأمطار ، خلافا لما درج عليه النصارى فى غزواتهم .

ولما رأى أمير غرناطة عقم المضى فى المقاومة ، وأدرك أن فرديناند لن يقف فى فتوحه عند الاستيلاء على جيان ، اعترم أن يقوم بخطوة حاسمة لتأمين أراضيه من عيث النصارى ، بل وحمايتها بمعاونتهم ؛ فسار إلى لقاء فرديناند ، فى معسكره أمام جيان واثقا كل الثقة فى شهامته ، وعرفه بشخصه وبالفرص الذى أتى من أجله ؛ وقدم طاعته إلى ملك قشتالة باعتباره سيده الأعلى ، وصرح بأنه يحكم كل أراضيه من قبله على أداء الجزية ، ثم قبل يده إيدانا بالخضوع له ؛ ودهش الملك فرديناند لما رأى من ثقة عدوه بالأمس ومن عروضة ، وأبت عليه شهامته أن يخيب ظن الأمير ؛ وفى الحال نهض لمناقشة ابن الأحمر ، وسماه صديقه وحليفه وصرح بأنه لن يعتدى على شىء من أراضيه ؛ وهكذا عقدت بين الأميرين معاهدة يحتفظ فيها أمير غرناطة بكل أراضيه ومدنه ، ويتمهد بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب ، وأن يعاونه كلما طلب بمدد معين من الفرسان لمحاربة أعداء قشتالة ، سواء أكانوا من النصارى أو من المسلمين ؛ وتمهد أمير غرناطة فوق ذلك بأن يشهد اجتماع المجلس النيابى (الكورتيس) أسوة بباقي الأمراء التابعين للعرش ، وأن يشهد كل حفلات البلاط الرسمية ؛ وسُلمت قلعة جيان إلى فرديناند رهينة بصدق التعاقد ، ودخلها على أثر عود ابن الأحمر إلى غرناطة ، وذلك فى أبريل سنة ١٢٤٦ م (نهاية سنة ٦٤٣ هـ) ، بمد أن حاصرها عشرة أشهر ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وربت بها حامية قشتالية كبيرة .

وكان انتهاء الحرب ضد غرناطة بهذه السرعة الفجائية ، في نفس الوقت الذى تفتتح فيه الغزوات ، مشجعاً لفرديناند على أن بضطلع بمشروع ضخم آخر . ذلك أن أمير غرناطة قد أصبح صديقاً لملك قشتالة يدين له بالولاء ، وعليه بوصفه تابعاً له أن يعاونه بقواته في كل حرب يخوضها ؛ وكان فرديناند قد اضطر أن يرجئ افتتاح مرسية — حيث تضاءلت قوى الأحزاب من جراء المارك المستمرة ، واعترف عدة من الزعماء بسيادة فرديناند — خوفاً من الاصطدام بأراجون ؛ وكان الخلاف على حق افتتاح شاطبة ودانية على وشك الوقوع بالفعل ؛ ولذا كان من الطبيعى أن يوجه فرديناند جيوشه المظفرة إلى ناحية أخرى يستطيع أن يحقق فيها فتوحاً أهم ، لا ينازعه في شأنها أحد من جيرانه النصارى ، تلك هى فياض الأندلس المباركة ، ومدينة إشبيلية الفنية ؛ وقلمتا قرمونه وقسنطينة الثمينة ، وهى التى يحقق له افتتاحها امتلاك نهر الوادى الكبير كله ، ويقضى على البقية الباقية من سلطان الموحدين فى اسبانيا .

فلم تحض ثمانية أشهر على الاستيلاء على جيان ، حتى كان فرديناند قد رتب فيها كل شيء ؛ ثم خرج فى جيشه ، وبمد أن طلب إلى تابعه الجديد أمير غرناطة أن يسير معه إلى ميدان الحرب فى فرسانه وفقاً لشروط المعاهدة ، انقض على كورة قرمونة^(١) ، وعاث فيها ألبا عيث وانتسف فيها كل شيء ، وهو تمهيد لحصار المدن الكبيرة حتى يتعذر تموينها لبضعة أعوام . وفى الموعد المحدد حشد أمير غرناطة خمسمائة فارس حسمى الأهبة إلى جانب الجيش القشتالى ؛ وكان أول مكان حاصره النصارى قلعة وديره ؛ ولم يثبت المسلمون — لضعفهم — طويلاً ، فبعثوا إلى محمد بن الأحمر وسلموا إليه المدينة ، مؤملين أن يجدوا منه كسملين معاملة أفضل ؛ وكاد ذلك يعكر صفو الملاقى بينه وبين فرديناند ، ولكن كليهما كان عاقلاً مستمداً لتضحية الأقل لاغتنام الأكثر ؛ فسلم ابن الأحمر المدينة إلى فرديناند بدوره فى البداية إلى حليفه كفتج أول . وسهل امتلاك هذه القامة الواقعة بجوار

(١) وفى ياقوت قرمونية .

إشبيلية انتساف أراضيها باستمرار ، والتوسع في تخريب بساطتها حتى شريش وقرمونة ، وكان يحاصرهما يومئذ فرسان القديس ياقب وقلعة رباح ؛ وحصل فرديناند على إذن البابا بأخذ أعشار الكنائس ليستعين بها على نفقات الحرب الكبيرة .

وكان من الواجب قبل أن يتمكن النصارى من محاصرة إشبيلية بنجاح أن يتغلبوا على ما حولها ، وأن يستعينوا أيضاً بأسطول بقطع عنها الميرة من جهة البحر . ولم يستطع النصارى تحقيق الشطر الأول إلا في بداية سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) حيث انتسفوا الحدائق والكروم وأعواد الشجر ، وجميع المحاصيل ، في كل مكان أبدى السكان فيه معارضة ؛ على أن معظم المسلمين آثروا التسليم والانضواء تحت لواء النصارى كرجالاً يؤدون الجزية ، وآثرت قرمونة وقسنطينة ولوره ، والقلعة ، وهي جيماً حصون منيعة كان يوسمها أن تحتل الحصار طويلاً ، — بعد أن لبثت أشهراً تنتظر عبثاً ، وعرض عليها النصارى عقد الهدنة — أن تبادر بالخضوع ، فتفتم عطف الظافر ، على أن تتمرض بالمقاومة الشديدة لقسوته ، كما حدث لقلعة قنطالان التي اقتحمها النصارى ، وقتلوا كل من فيها ؛ واستطاع ابن الأحمر أمير غرناطة أن يحمل — بالنصح والإقناع — عدة حصون على التسليم ؛ وأن يحصل من الملك فرديناند على وعد ، ألا يستعمل العنف حيث لا ضرورة لاستعماله ، وأن يقدم النصارى شروطهم إلى كل مدينة وقلعة قبل أن يبدأوا حصارها . وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يحقن كثيراً من الدماء ، واستولى النصارى بمعاونته على عدة من الحصون ، منها جويلان ، وقلعة ربه ، وجريئة ، وغيرها .

وفي أوائل سنة ١٢٤٧م ، أنشأ النصارى في نهر سفتاندر برياسة ريموند بونفاشيوس ، وهو سيد من برغش ، أسطولاً من ثلاث عشرة سفينة شراعية ، وسار هذا الأسطول ورسا عند مصب نهر الوادي الكبير ؛ واجتمعت في الوقت نفسه جميع القوات التي طلب حشدتها ؛ وعندئذ شرع النصارى في تطويق

إشبيلية ؛ وكان أهل إشبيلية قد اختاروا لرياستهم يومئذ أميراً من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، وعهدوا إليه بالدفاع عن المدينة ، ودعا السيد أبو عبد الله ابن أخيه أبا الحسن بن أبي علي حاكم قرمونة لمعاونته في تنظيم الدفاع ، فبادر إلى تلبية دعوته ، لما رأى من أن إشبيلية قد غدت مقصد فرديناند ؛ وتلفت المدينة من إفريقية بمض المعاونة ؛ وأدرك السيدان أهمية المحافظة على طريق البحر وبقائه مفتوحاً ، لكي يتسنى لإشبيلية تلقى المؤن باستمرار ، فاستقدا من الموحدين في إفريقية أسطولاً صغيراً رسا في مصب الوادي الكبير عن ثمر شنت لقر ليمنع سير الأسطول القشتالي في النهر .

ولكن الأسطول القشتالي استطاع بمد عدة معارك شديدة أن يحرز النصر ، وأن يفرق أو يطل عدداً من سفن المسلمين ، وأن يأمر السفن الباقية ، وعمل الجند القشتاليون من جانبهم على إخلاء الشاطئ من الأعداء ؛ وهكذا استطاعت سفن النصارى أن تمخر عباب النهر . ومنذ ٢٠ أغسطس سنة ١٢٤٧م (١٢٤٤هـ) كانت إشبيلية قد طوقت من كل مكان من البر والبحر ، واستمر الحصار طوال العام بأسره ؛ وجمع النصارى كل ما يحتاجون إليه ، وأقاموا الخيام في كل ناحية ، حتى بدا كأن مدينة أخرى قد أقيمت إلى جانب المدينة المحصورة .

وبعد أن لبثت إشبيلية محصورة طول الشتاء ، وقد قطع عنها كل مدد من المؤن ، وكذلك ردت الأمداد التي حاول المسلمون في غربي الأندلس إرسالها بقيادة محمد والي لبلة ، حشد فرديناند في أوائل سنة ١٢٤٨م قوات أضخم ، للاسراع في افتتاح هذه القاعدة الهامة من قواعد الأندلس ؛ وتنافس الكبراء والفرسان الأسبان في المساهمة في هذا الفتح . وفي شهر مارس قدم إلى المعسكر النصراني ولد الملك وولى عهده ألفونسو في قوة مختارة من الجند القشتاليين ، وفي صحبته ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، وصاحب (كونت) أورقلا ، ومعهم جمهرة من الفرسان الأرجونيين والقطلونيين والبرتغاليين ثم وفد من بعدهم لوبيز دى هارو ومعه قوة من جنود بسكونية وقشتالة القديمة ؛

وقدم يوحنا مطران شنت ياقب في قوة مختارة من جند جليقية ؛ كما قدمت قوات من مدينة سالم ومدلين وقورية وغيرها ؛ وقدم معظم الأساقفة وكثير من الأبحار والرحبان من جمعيات القديس دومينيك والقديس فرنسيس والقديس بندكت ، وأخذوا يلهبون بمواعظهم حماسة الجند ؛ وقدم محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، — وفق تعهده — بقوة من الفرسان ، وعسكر أمام برج الفرج ، وأدى بحكمته وشجاعته ، وما قدمه من فرسان حسنى الأهبة ، الملك قشتالة خدمات جليلة ؛ وإذا صححت الروايات الإسلامية ، فإن إشبيلية لم تقطع عن تاقى المؤن من طريق البحر ، وذلك بالرغم من أنه قد نشبت عند مصب الوادى الكبير معارك دموية شديدة ؛ وأخيراً قرر النصارى وفقاً لنصح ابن الأحمر أن يطوقوا المدينة تطويقاً تاماً ، وكانوا قد حاصروها مدى ثمانية عشر شهراً ؛ وفي الثالث من شهر مايو سنة ١٢٤٨م نزلوا عند نصبح أمير غرناطة ، ونصح أمير البحر ريموند ، وأحرقوا سفن المسلمين فى ميناء إشبيلية ، وذلك بأن دفعوا إليها بحراقتين تحملان آنية محملة بالكبريت والقار وغيرهما من المواد الملهبة ، ثم دفعوا بعض السفن الثقيلة نحو قنطرة السفن بقوة الريح والتيار ، فخطموا سفنها المثبتة مما بسلاسل الحديد ، وقطعوا بذلك المواصلات بين المدينة ، وبين قلعة طريانة ؛ واستولى النصارى على قلعتى طريانة وجوليس ، ثم اقتحموا ضاحية الصفار وباب مقرينة ، ولم يبق فيها على أحد ، ومع ذلك فقد دافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، واستعملوا فى قتالهم كثيراً من الآلات القاذفة والمكاحل ، وأنزلوا بالنصارى أضراراً فادحة ، وكانت مقدوفاتهم تشقى الجراد المدرع من جانب إلى آخر .

وفى النهاية أضنى الحصار أهل إشبيلية ، ولا سيما بعد أن يئسوا من الإيجاد ، وأخذ شعب القحط يهددهم ، فنزلوا على حكم الظروف مرغمين وبدأوا المفاوضات فى تسليم المدينة ، متمسكين ببعض الشروط . وتقول الروايات النصرانية إن فرديناند لم يقبل أية مناقشة فى الشروط ، وتقول الروايات الإسلامية إنه قبل الشروط مغتبطاً ، لى يجعل بالاستيلاء على المدينة ، أما شروط التسليم فتتأخص فيما يلى :

أن يكون المسلمون أحراراً في أن يبقوا في المدينة أحراراً آمنين محتفظين بمنازلهم وأموالهم لا يؤدون سوى الضرائب العادية ، أو أن يهاجروا منها بعد أن يبيعوا أملاكهم ؛ وأن يمنح الذين يرغبون في الهجرة شهراً كاملاً ، وأن يقوم النصارى بتسهيل رحيلهم سواء بالدواب في طريق البر ، أو بالسفن في طريق البحر ، وأن يسمح الملك فرديناند لأبي الحسن وإلى المدينة (والظاهر أنه كان آخر من ولى الأمر فيها) — وهو الذى يسميه النصارى أورانتس Orantes أن يبقى في إشبيلية ، وأن يمنحه مبلغاً من المال لنفقته . بيد أنه أثر الهجرة ، وما كاد ينتهى من تسليم مفاتيح المدينة حتى ركب البحر في نفس اليوم ، أى في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م الموافق ٦٤٦ هـ إلى سبقة وإفريقية حيث لحق بآله ، وكانوا يومئذ يتنازعون مع بنى مرين على السلطان .

وهكذا انتهى سلطان الموحدين في إشبيلية بعد أن حكموها مائة وبضع سنين ؛ وقد حكمها المسلمون منذ فتح الأندلس خمسمائة وسبعة وثلاثين عاماً ؛ وقد غادرها من المسلمين ثلاثمائة ألف ، وسار فريق منهم برفقة فرسان قلعة رباح إلى فريش ، ونزح القليل من الموحدين إلى إفريقية ، وذهب آخرون إلى بلبة وغربي الأندلس ، وقصد أكثرهم إلى كورة غرناطة حيث وعدم ابن الأحمر بحسن الوفاة والحماية . ودخل فرديناند المدينة بعد ذلك في موكب نفخ ، وقد حملت أمامه صورة السيدة المنذراء ، وركب إلى جانبه ولده وولى عهده ألفونسو ، ومن ورائه باقى أبنائه ، ثم تبعهم ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، لجميع الأحرار الرافقين للجيش ورؤساء فرسان الجماعات الدينية ، واصطف من حولهم كبار المملوك والفرسان ؛ وقصد الموكب إلى المسجد الجامع ؛ فقام الأحرار بتحويله إلى كنيسة ؛ ورفع في الوقت نفسه علم النصرانية وعلم ملك قشتالة على قمة البرج الأعلى للكنيسة الجديدة وهو الذى سمي « بالجيرالدا » Giralda ، وصنع بياق الساجد ما صنع بالمسجد الجامع ، وشهد المسلمون بأفضة مكلومة ، كيف أزيلت قبور آبائهم وأجدادهم خلال هذا التغير .

ولما انتهى النصارى من تحويل إشبيلية إلى مدينة نصرانية رأى فرديناند أن يفتح أيضاً جميع المدن الواقعة على مصب الوادى الكبير وفي منطقة وادى لكة ، واستطاع أن يخضع بالفتح أو بالإرهاب فى سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) ، شريش الفرتيرة ، ومدينة شذونة (مدينا سدوينا) وقلمة الغزال ، وباش ، وقادس ، وشنت لقر ، وثغر شنتمرية ، وروطة ، وأرك وغيرها^(١) ، بل لقد فكر فرديناند قبل أن يتم إجلاء المسلمين عن الأندلس ، فى أن يعبر البحر بأسطول إلى إفريقية ويفزو هنالك ويفتح ؛ وقام أسطول قشتالة بالفعل بقيادة أمير البحر ريموند يونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربى فى سنة ١٢٥١ م (٦٤٩ هـ) ، بيد أنه لم يوفق إلى الاستفادة من هذا النصر نظراً لوفاة فرديناند بعد ذلك بقليل .

(١) هى بالأفريقية على التوالى Xeres de la Fronterra ، Medina — Sidonia ، Arcos ، Rota ، St Maria del Ponto ، St Lucar ، Velez ، Alcala de Gazules

الفصل الثامن

تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول

حتى افتتاح ألفونسو الثالث لولاية الغرب

١ — سانشو الأول الملقب بالمعمر

كان سانشو الأول قد ظهر منذ عهد أبيه ألفونسو بشجاعته وبراعته في الحروب . ولما تولى العرش — في ٦ ديسمبر سنة ١١٨٥ — رأى أن يتبع فيما يختص بملاقاته بالكرسى الرسولى ورجال الدين سياسة أخرى غير التي اتبعها سلفه . وكانت البرتغال بلا ريب مدينة بقيامها كملكة مستقلة إلى حماية البابا ؛ ومن ذلك الحين كف القيصر ألفونسو ريمونديز عن محاربتها وقبل وساطة البابا ، ولم ينس ألفونسو هنريكيز طول حياته لمن يدين بعرشه بعد السيف ، ولبت على خضوعه نحو الكرسى الرسولى وعلى جوده نحو البابا والكنائس والأديار . بيد أنه لما ولى ابنه سانشو العرش ، كانت ظروف اسبانيا قد تغيرت تغيراً عظيماً ، فشغلت الممالك الاسبانية النصرانية الأربع بقتال بعضها البعض ، وقاتل الموحدين بلا انقطاع ؛ واستطاعت البرتغال أن تبرز من القوة ما أحرزته الممالك المجاورة ، وأن تحافظ على استقلالها دون حماية البابا ؛ وكان سانشو يغير حلفاءه وفقاً لما تطلبه الحكمة والمصلحة ؛ وكان — حسب ما ذكرنا من قبل — يشار على محاربة المسلمين دون كمال . وقد افتتح كثيراً من حصون الحدود ، وعمرها بالسكان النصارى ، وأسبغ عليه التاريخ من أجل ذلك لقب « المعمر » Poplador وكان كأمير مستنير يعمل على تأييد

النظام والسلام والرفاهية في مملكته ، ثم على تخفيف أعباء الحرب وغيرها من السكوس عن كاهل الشعب قدر استطاعته ؛ وقد شمل جماعات الفرسان بوافر جوده ، وعمل دائماً على توثيق روابطها ومصالحها بالعرش ؛ ومنح كثيراً من المدن والأماكن حقوقاً وحريات خاصة ، فساعد ذلك على تقدمها ورفع شأنها ، وشجع الزراعة أعظم تشجيع ، ووزع الأراضي المجدبة والمهملة على فقراء الزراع لزرعها ، وأذكى همهم المال المجدين بالنجح والامتيازات ، وأسبغ الفلاحون البرتناليون على ملكهم لقب « الفلاح » رضاً إلى ما لقوا من رعايته وحمايته .

وكانت مدينة شلب بعد أن افتتحها النصارى بمعاونة الجنود الصليبيين من جنوبي ألمانيا ، قد سقطت مرة أخرى في يد الموحدين وذلك نظراً لوقوعها في قلب الأراضي الإسلامية ؛ ولكن سانشو عاد فافتتحها المرة الثانية في سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) ، وهدمها حتى غدت قاعاً صفصفاً ، ولبثت قفراً مدى حين ، وفقد المسلمون بفقدائها حصناً من أمنح الحصون .

ولم تلق البرتنال في الأعوام التالية سوى القليل من عدوان المسلمين ؛ ولكن خصاماً نشب بين سانشو وبين البابا ساستان الثالث من أجل زواج ابنته بابن عمها ألفونسو ملك ليون ؛ ثم نشب خصام عنيف آخر بينه وبين خلفه البابا أنوسان الثالث الذي ارتقى كرسي البابوية في سنة ١١٩٨ م . وكان هذا الخبر أشد صلابة وحرصاً من سلفه على تنفيذ حقوق البابوية ومطالبها ؛ فطالب سانشو بالجزية التي تمهد بأدائها ألفونسو هنريكز للكرسي الرسولي وقدرها مائة قطعة من الذهب . ومع تسليمه بأن ألفونسو هنريكز قد دفع من قبل إلى الكنيسة ألف قطعة من الذهب كأثر من آثار ورعه وتقواه ، فإن هذه الهبة لا يمكن أن تعتبر أداء مقدماً لجزية عشرة أعوام كما أراد أن يعتبرها سانشو ، وليس هنالك ما يدل على أن سانشو قد خضع لوجهة نظر البابا ؛ ذلك أنه بالرغم من مصادقة البابا على معاهدة الصلح بين قشتالة والبرتغال ، وإنذاره بمعاينة الخائف بالحرمان ، وحمايته البرتغال بذلك من نكث قشتالة ، فإن سانشو لم يسلك نحو رجال الدين

مسلكا وديا . أجل لقد سمح للبابا بأن يشرف على تنظيم أحوال الكنائس في البرتغال ، وأن يرتب علائق جماعات الفرسان الدينية بالأساقفة ؛ ولكنه لم يكن يصبر على أى تصرف من الأخبار البرتغاليين أو البابا يرى فيه مساساً بهيبة العرش . وهذا ما أثبتته سانشو في فرصتين ، الأولى في خصام نشب بينه وبين أسقف بورتو ، والثانية في موقفه نحو أسقف قليرية ؛ ذلك أن سانشو بالرغم من التجارب المحزنة التي عرفها ملوك اسبانيا النصرانية فيما عقده من زيجات لم ترض الكنيسة عنها ، عقد ألفونسو زواج ولى عهده ألفونسو من إحدى قريباته الأقربين هي أوركا ابنة ألفونسو التاسع ملك ليون (سنة ١٢٠٨ م) ؛ ولكن أسقف بورتو الذي سبق أن غاضبه مراراً من قبل ، وظن مع ذلك أنه أرضاه بمجوده وصالته ، اعترض على هذا القران بشدة ، وأبى أن يبارك العروسين ؛ وزاد على ذلك أنه حينما قدم الملك وولى عهده إلى بورتو لم يقم نحوها بإجراءات التكريم العادية ، وأعلن قرار الحرمان الديني ضد الزوجين الجديدين . وهنا استشاط سانشو من الأسقف غضباً ، وأمر بالقبض عليه ، ومصادرة أملاكه وأمواله ، ومعاقبة كل من آثر أن يتبع أقواله على اتباع الأوامر الملكية . ثم أطلق سراح الأسقف بعد ذلك بقليل حينما وعد بأن يسحب قرار الاعتراض والحرمان ، ولكنه لم يف بوعده ، بل فر إلى رومة ليستصرخ البابا . وأمر أنوسان الثالث المبعوث البابوي في سموره بأن يعمل على تسوية المشكل ، فترد إلى الأسقف بجميع حقوقه ويسحب قرار الاعتراض ، على أن لا يعود الملك إلى التدخل في شؤون الكنيسة . ولسنا نعرف كيف انتهت هذه الخصومة ، مما يدل على أن سانشو لبث هو الظاهر المتغلب ؛ وقد حدث ذلك في سنة ١٢١٠ م .

وحدث قبل أن تنتهى هذه الخصومة أن نشب خصام أشد بين الملك وبين أسقف قليرية . وكان الملك كثير المدوان على الحقوق الأسقفية ، هذا إلى ما يمانيه الأخبار من حفلات الصيد الملكية ، واضطراهم إلى إضافة كثير من الناس والحيوان ؛ وكثيراً ما كان الملك يسخر من رجال الدين ويحقرهم ويبدى

غضبه عليهم ، وفوق ذلك فقد أتى بمضهم إلى السجن . واحتج أسقف قلدرية على هذه الأمور لدى الملك أولاً ؛ فلما لم تنفع شكواه ، كتب إلى البابا مباشرة متخطياً في ذلك مطران براغا نظراً ليله إلى الملك ، ووصف له إلحاد الملك وصفاً مثيراً ، وزعم في كتابه أن الملك يضيف لديه امرأة عرافة تسدى إليه النصيح كل يوم . ثم إن الأسقف أعلن فرار الحرمان الكنسى في دائرته ، ولكن سانشو أراد كعادته أن يأخذ كل شيء بالعنف ؛ فقبض على الأسقف قبل أن يتمكن من الفرار وسجنه . ولما علم البابا أنوسان بما حدث اهتم بأمر الأسقف ، وطالب الترضية إلى الملك ، ولكن سانشو أبى كل ترضية وتمسك بموقفه . بيد أنه لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل وشعر بدنو أجله ؛ وهنا وهنت إرادته ، وساوره القدم وسمى إلى طلب الصفح ، ووعد بالترضية ، حتى يظفر بالفقران من رجال الدين ؛ وعلى أثر ذلك أعلن مطران براغا تبرئته من الحرمان وكل عقوبة أخرى . والواقع أن سانشو قدم الدليل في وصيته على أنه لم يكن يحقد على رجال الدين ؛ فقد كتب وصيته قبل وفاته بعامين (في أكتوبر سنة ١٢٠٩ م) بمصادقة ومشهد عدة من الأساقفة والكبراء ؛ وفيها يجرى الصلات للأخبار ويطرح جميع نصوصها لمصادقة البابا ، ويوصى له بمائة سبيكة من الذهب ؛ وقد صادق عليها البابا ولم يجد فيها موضعاً للظمن . ولم يعش سانشو يشهد مصادقة البابا على الوصية ، وإلغاء قرار الحرمان على يده ، إذ توفى في ٢٧ مارس سنة ١٢١١ م ؛ وفي السابع من يونيه من نفس العام ، قبل أن يصل نبأ وفاته إلى رومة أقر البابا أنوسان الثالث إجراءات مطران براغا ، وصادق على الوصية ، ووعد بأن يعنى بالعمل على تنفيذها .

٢ — ألفونسو الثانى الملقب بالبادن

عنى سانشو الأول بأن يرتب لجميع أولاده موارد ثابتة ، وعلى ذلك فقد منح في وصيته لبنائه أيضاً أراضى معينة يملكها ؛ وكان ألفونسو قد أقسم بأن يترك

لأخواته ما خصهن به والدهن ؛ ولكن هؤلاء رفضن أن يعترفن بسيادة الملك على الأراضي المقطوعة لهن ، واعتبر ألفونسو هذا الرفض من الأمور التي لا يمكن التسامح فيها . وكان هذا سبب الخصام . ذلك أن الأميرات خشيته من تهديد أخيهن لهن في حقوقهن حسبما يرينها ، قصدن إلى البابا أنوسان الثالث ، الذي وعد بأن يسهر على تنفيذ الوصية . فأعلن البابا دون درس الموضوع ، أنه حامى الأميرات ؛ ولم يقنع هؤلاء بهذه الحماية فسمين في طلب المساعدة الخارجية خشية من عدوان أخيهن ، وكان ألفونسو التاسع ملك ليون على أهبة لأن يبذل هذه المساعدة . وكان يقيم في بلاطه ولي عهد البرتغال بيدرو ، الذي غادر المملكة لخصام عائلي ؛ فسار هذا الأمير مع ولد أخته تيريزا وهو فرديناند ولي عهد ليون على رأس القوات المحاربة ، وغزا البرتغال ، وطأ في أرضها ، ليرغم الملك ألفونسو الثاني على أن يرفع الحصار عن الأماكن التي اختص بها الأميرات ، بيد أن الجيش الفاتح بالرغم مما لقيه من مساعدة البرتغاليين ، وافتتاحه لبعض الحصون ، وبالرغم من أن ميموثي البابا أعلنوا قرار الحرمان ضد ملك البرتغال ، لم يستطع أن يحول دون سقوط أملاك الأميرات في يد أخيهن . وهنا فقط أبدى ألفونسو الثاني استعداده للصالح . وفي أثناء الهدنة التي عقدت سار بيدرو مع القوات البرتغالية للاشتراك في محاربة المسلمين في موقعة العقاب وأبدى شجاعة وبطولة . بيد أنه لم يحض سوى القابل حتى سار إلى مرا كيش ملتجئاً إلى سلطان الوحدين الذي كان يحاربه من قبل ، ثم حارب إلى جانبه ضد الخارجين عليه في المغرب .

وفي تلك الأثناء نشبت الحرب في البرتغال بين الملك وأخواته من جديد ؛ وأصدر مندوبو البابا الذين عهد إليهم بتسوية النزاع حكماً في منتهى التعسف ، إذ قرروا دون البحث فيما إذا كان ألفونسو الثاني محقاً في محاربة أخواته أم متجنكاً عليهن ، أن يلزم بنفقات الحرب كلها ؛ ولما أبى ألفونسو أن يذعن لهذا الحكم ، صدر ضده قرار الحرمان الديني مرة أخرى ، ولكن البابا أنوسان كان بعيد النظر فسارع إلى إصلاح الخطأ ، وقضى بمد بحث جديد لأسباب النزاع بإلغاء

حكم مندوبيه ، وإلغاء قرار الحرمان الذى صدر ضد الملك ، وبأن يمهّد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية ، وأن يعطى دخلها إلى الأميرات ، وأن تبقى خاضعة لحقوق الملك وسلطانة . أما نفقات الحرب وما ترتب عليها من الأضرار فيقدرها بمضى المدول وتوزع على الفريقين بالإنصاف ؛ وصدر الحكم البابوى فى ١٧ أبريل سنة ١٢١٦ م فاستقبله الفريقان بالرضى .

وعندئذ فقط استطاع ألفونسو الثانى أن يشهر الحرب على المسلمين ، وكان قد رسا فى تلك الآونة (يوليه سنة ١٢١٧ م) فى مياه اشبونة أسطول من ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجند الصليبيين ، القادمين من جنوبي ألمانيا ، لإصلاح ما فسد من السفن أثناء المرحلة ؛ وكانت الحملة تحت قيادة الكونت فلهم صاحب هولند ، وجورج فون فيد ؛ فاستجاب معظم رجالنا لدعوة رجال الدين البرتغاليين وأستاذ الفرسان ، وحملهم تقدم الفصل ، وأمل الظفر بالغنائم العظيمة ، على التخلف فى البرتغال ، والقيام بحملة ضد المسلمين . ولم يرفض هذا العرض سوى الفرزيين ، فأبحروا إلى فلسطين فى ثمانين سفينة . وسار باقى رجال الحملة مع الفرسان البرتغاليين ، وفرسان القديس ياقب ، وفرسان الداوية والاستبتارية ، وحاصروا قصر أبى دانس ؛ وفى الحال حشد ولاية قرطبة وحيان وإشبيلية جيشاً إسلامياً ضخماً ، سار إلى إنجاد القلعة ، ولكن هزمه النصارى ؛ ونسب النصارى نصرهم فى تلك الموقعة إلى معونة فرقة من الملائكة فى صفه الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم فى ثياب بيض ؛ وسقط من المسلمين فى تلك الموقعة أربعة عشر ألفاً (١٠ سبتمبر سنة ١٢١٧ — ١١٤ هـ) ولم يتمكن النصارى بالرغم من هذا النصر الباهر من الاستيلاء على القصر إلا بمد ذلك بستة أسابيع ؛ وعومت المدينة التى فتحت أبوابها للمحاصرين فى ٢١ أكتوبر سنة ١٢١٧ ، معاملة مدينة فتحت عنوة ، فقتل من أهلها كل من كان أهلاً للجل . السلاح ؛ وأخذ باقى

(١) وردت تفاصيل هذه الموقعة فى روض القرطاس (ص ١٦٦) ، ويطلق على مدينة

قصر أبى دانس بالألمانية Alcazar do sal .

السكان أسرى ؟ وسلمت المدينة بعد ذلك إلى فرسان شنت ياقب ، لما أظهروه أثناء القتال من شجاعة فائقة ، ولم يسافر الجند الصليبيون إلا في أوائل العام التالي بعد أن قضوا الشتاء في اشبونة ، فغادروا مياه البرتغال إلى فاسطين .

ولم يكن ميسوراً في ذلك الوقت الذي تمعدت فيه شؤون البرتغال الكنسية أن يطول أمد الوتام بين الملك وأساقفة المملكة ؛ فقد طالب الملك الأساقفة بنصيهم من نفقات الحرب من متحصل أملاكهم الواسعة ؛ ولم يكن يتاح للملك دائماً أن يجمع جراً ثم رعاياه ، التي كان يرتكب معظمها بسبب النظم السيئة وامتيازات رجال الدين ، كذلك رأى الملك أن يقدم رجال الدين الذين يخالفون قوانينه إلى القضاء المادى ليحاسبهم على مسلكهم ؛ فاحتج اسطفان مطران براغا على هذه الأمور كلها بشدة ، فكان جواب الملك أن نزع منه بعض أملاكه ؛ فاستشاط المطران غضباً ، وأصدر قرار الحرمان والتحریم ؛ فلم يعبأ الملك بذلك ، واضطر الأسقف أن يسي إلى السلامة بالفرار ؛ وحاول البابا هو نوربوس في كتابين متتاليين أرسلهما إلى الملك أن يصلح بينه وبين الأسقف ، وحثهما على النسيان والصفح ، فذهبت جهوده عبثاً ، وعندئذ أصدر هو نوربوس — بتحريض المطران الفار — قراراً (في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٢١) ، ينذر فيه الملك بأنه إذا لم يبادر إلى إنصاف المطران ، فإنه يصدر قرار الحرمان والتحریم ضد المملكة كلها ؛ ثم يأمر بعزله وتولية أمير آخر على العرش . ثم أصدر البابا أمراً آخر يطالب فيه الملك بالخضوع والطاعة ويكرر وعيده في حالة المخالفة ، ولكن الملك لم يذعن مع ذلك ولم يسلم ، بيد أنه مالبت أن مرض وتوفي في ٢٥ مارس سنة ١٢٢٣ م . وقد عجز ألفونسو في أواخر حكمه عن متابعة الحرب بنفسه نظراً لبدايته المفرطة ، وهي التي أسبغت عليه لقب « البادن » بيد أنه كان مع ذلك يدير شؤون المملكة بكفاية ؛ وقد غير نظم البلاط ومنح حقوقاً خاصة لكثير من المدن ، وعنى بإصدار طائفة من القوانين الجديدة . وكان قد دعا عقب توليه العرش ، في العام الأول من حكمه ، المجلس النيابي (الكورتيس) إلى الانمقاد في قلرية ، وأصدر بموافقة عدة قوانين ونظم عامة ،

أدرجت فيما بعد في مجموعة القوانين التي أصدرها ألفونسو الخامس . ونص في هذه القوانين على احترام الحرية الشخصية ، وأصلحت إجراءات المرافعات ، ونص على تأمين الملكية ، وعلى إلغاء المكوس الظالمة ، وتأييد بعض امتيازات الكنيسة ورجال الدين ، كما ألغيت منها بعض الامتيازات المفرقة .

٣ — سانشو الثاني الملقب بذي الثوب الكهنوتي

كان سانشو الثاني في العشرين من عمره حينما خلف أباه على العرش ، وكانت مهمته الأولى أن يصلح بينه وبين رجال الدين ؛ ففي المجلس النيابي الذي عقده في قلمرية في يونية سنة ١٢٢٣ وضع اتفاق ينص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التي آلت إليهم في عهدى الملكين السابقين ، وأن تلغى جميع الحقوق والسلطات التصفية التي كانت الكنيسة تشكو منها بحق ، وزيد على ذلك أن منح الأساقفة سلطات جديدة على حساب العرش ؛ ومع أن الملك اعتبر حامياً للكنيسة ، فإنه لم يكن يسمح له بأن يقضى في الخصومات التي تنشأ فيما بين رجال الدين .

وعقد الملك مع مطران براغا اتفاقاً خاصاً تمهد فيه بأن يدفع له ستة آلاف قطعة من الذهب ، وأن يعوضه عن جميع الأضرار التي نزلت به من جراء النزاع ؛ وقام المطران من جانبه بإلغاء قرار الحرمان والتحریم ، وتبرئة المونى الذين دفنوا من قبل دون تبريك وفقاً لطقوس الكنيسة .

كذلك عقد سانشو الصلح بينه وبين عماته ؛ فنزل لهم عن الأماكن التي وهبت لهم بمقتضى وصية جده . وقرر لهم راتباً سنوياً قدره أربعة آلاف قطعة من الذهب ؛ واعترف الأميرات من جانبهن بسلطة الملك ، وأن يقدمن إليه وقت الحرب الجند اللازمين ، وأن تستعمل السكة الملكية في أملاكهن ؛ وبعد وفاتهن تؤول الأماكن والحصون الهامة التي بأيديهن إلى العرش ؛ أما باقى أملاكهن فتوزع على الكنائس والأديار التي خصصت لها . وفي مقابل ذلك أيضاً رد فرديناند ملك ليون وقشتالة (سنة ١٢٣١) حصن سبت اشتين الذى استولى عليه

إلى سانشو ، وهكذا سوى هذا النزاع الذى طال أمده بين أفراد الأسرة الملكية .
ولما انتهى سانشو من ترتيب جميع الشؤون التى يمكن أن تمس سلام المملكة
الداخلى ، وقطع فى الحكم بضعة أعوام بدير الأمور بحزم وفطنة ، عول على أن
يشهر الحرب على المسلمين ؛ وكانوا فى تلك الفترة يكثرون من الاغارة والبيش فى
أطراف المملكة الجنوبية تارة بقيادة الأمراء الموحدين ، وتارة بقيادة خصومهم .
وكان قد استولى عنوة على مدينة الواس فى سنة ١٢٢٦ ، وشحنها بالسكان
النصارى الذين أعطاهم حن المشاركة فى احتلال يابره ؛ وفى الأعوام التالية كرر
غزواته للأراضى الإسلامية . ولما أخذت دولة الموحدين فى الانهيار وقام ابن
هود بمحاول إنشاء دولة جديدة فى الأندلس والمغرب ، انتهز سانشو فرصة
الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية ، وعمل على توسيع حدوده الجنوبية ،
فافتتح صربا وبرمنها وغيرها من القلاع ؛ وسر البابا جريجورى الحادى عشر
لهذه الفتوح أيعا سرور حتى أنه أصدر فى ١٢١ أكتوبر سنة ١٢٣٤ م قراراً وعد
فيه جميع النصارى الذين يحاربون مع الملك سانشو ضد المسلمين بقفران ذنوبهم ،
كما لو كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية فى الأراضى المقدسة ، على أنه يبدو أنه
لم يقصد البرتغال يومئذ لمحاربة المسلمين كثير من الصليبيين ، ومع ذلك فقد ضاعف
سانشو العزم فى فتوحاته . وكان من أهمها فيما بعد الاستيلاء على مدينة مارتلة ،
وهى مدينة كانت لموقعها الحصين تصلح قاعدة لفتوح أخرى ، وقد أعطاها سانشو
لفرسان شنت ياقب تمكيناً للمحافظة عليها . وترتبت على هذا الفتوح فتوحات أخرى
فى الأراضى الإسلامية ؛ وهوجم المسلمون من البر والبحر ؛ وأثار البابا حماسة
البرتغاليين بقرار جديد أصدره سنة ١٢٤٠ م ؛ وافتتح الفرسان البرتغاليون طبيرة
وهى قلعة هامة فى الغرب فى سنة ١٢٤٣ م ؛ فوهبها سانشو أيضاً إلى فرسان
شنت ياقب ، وهى هبة صادق عليها البابا .

وبالرغم من أن الملك بذل جهود استطاعته لإرضاء رجال الدين وجد فى محاربة
المسلمين ، ونشر النصرانية ، وبالرغم من أنه كان يستند فى ذلك إلى تأييد البابا

فانه لم يستطع اجتناب النزاع مع جميع أساقفة المملكة ، فلم يكن هؤلاء ليهدا لهم بال قبل إسقاطه عن العرش .

وقد اضطر سانشو أن ينزل عن هيئته الملوكية إرضاء لمطالب يوليان أسقف بورتو ؛ وكان هذا الخبر قد شكاً منذ أوائل حكم سانشو إلى البابا ، بأن الملك ييسط سلطته القضائية على أسقفية بورتو ، وأبى الأسقف بيدرو خاف يوليان أن يسمح للملك أن يكون له اختصاص في قضايا الأفراد الماديين أو المنازعات التي تقع بين رجال الدين ، أو أن يسمح لرعايا الأسقف بأن يؤخذوا للقتال مع الملك . ولو سلم الملك بهذه المطالب لفدا الأساقفة في دوائرهم كالأمرء المستقلين .

وقدم الأسقف شكواه في رومه إلى البابا ، فتولى الوساطة بينه وبين الملك ، وعقد اتفاق (في سنة ١٢٣٣ م) يتعهد الملك بمقتضاه باحترام الحريات والحقوق الكنسية ، ولكنه يتمسك بمقابل ذلك بأنه إذا نشبت الحرب ضد المسلمين فعلى أسقف بورتو وكذلك أساقفة المملكة الآخرين أن يقدموا إليه الجند المعونة ، وبأن يكون للقضاة الملكيين وحدهم حق الفصل في الخصومات التي تقع بين الأفراد الماديين وبين رجال الدين ؛ على أن هذا الاتفاق لم يكن حاسماً للنزاع لأن البابا لم يصادق على هذه النقطة الأخيرة .

وسرعان ما اضطرم النزاع من جديد بين المدنيين ورجال الدين فإنه لم يرض سوى القليل على تسوية النزاع مع أسقف بورتو ، حتى أخذ الموظفون الماسكيون يتدخلون في الشؤون الدينية حسبما زعم مطران براغا . ولما لم يحقق الملك رغبة المطران في عمل الترضية اللازمة ، أصدر المطران قرار التحريم ضد أولئك الموظفين الماسكيين ، وتوجه بشكواه إلى البابا ؛ وبذل مضمون هذه الشكوى بوضوح على أن منح الامتيازات المفرقة لطبقة من الطبقات مما يحمل الطبقات الأخرى على أن تستعمل وسائل العنف والضغط لتفوز بنوع من المساواة ؛ وقد كانت الشكوى في مجملها ضد الموظفين الماسكيين أعنى ضد الملك الذي يعملون ويقضون باسمه وبأمره ، بيد أنها تضمنت أيضاً شكوى معينة ضد الملك ذاته ، منها أنه أثناء

سفراته يرهق الأديار والضياع الكنسية بطلب المال والمؤن ، وأنه يقبض إيراد الكنائس الخالية لحسابه ويولى أمرها للمدنيين ، وأنه يدعى حق الحماية على بعض الكنائس الحرة ، ويسلمها إلى أشخاص من السفلة ؛ وأما الشكاوى التي قدمت في حق الموظفين ، فأهمها أنهم يرهقون المطران ورجال الدين بالغرامات المالية لحملهم على الاشتراك في الحرب ، وينفقون على إطعام رجال الملك وخيله من أموال الكنائس ، ويرغمون الأقباط على اتباع النظم الدنيوية ، ومن ذلك إرغامهم على الحضور أمام القضاة المدنيين في قضايا النزاع على الملكية ، ومنعهم أن يتقبلوا الهبات أو الأوقاف من الأتقياء متى وصلت أملاكهم إلى حد معين ، وأنهم كثيراً ما يمتنعون المطران من معاقبة القساوسة المدنيين ، وكثيراً ما يدخلون منازل القساوسة لأوحي الأعذار فيهيئونهم ، ويسرقون أموالهم .

وفي ١٥ أبريل سنة ١٢٣٨ أصدر البابا قراراً بوجوب إلغاء هذه المساوىء ، وخول للمطران في حالة ما إذا أصر الملك على موقفه ، أن يجدد ضده قرار الحرمان ؛ فإذا لم يكف هذا الإجراء ، لجأ البابا إلى وسائل أخرى ؛ ولم يجد سانشو في الرسوم البابوى ما يمس حقوقه الملكية بصورة مباشرة ، فوافق على تنفيذ النص الخاص بحرية الكنائس كما ورد في الرسوم ومراعاته ؛ وبذلك استطاع أن يجتنب العاصفة مرة أخرى .

على أن استسلام الملك لم يرق في أعين فريق كبير من الأشراف . ذلك أنه كلما ارتفعت مرتبة رجال الدين وزادت امتيازاتهم زاد عبء المعونة العسكرية ونفقات الحرب على الأشراف . وكانت الأشراف قد اعتادوا أن يحصلوا بالمنف والفصب من رجال الدين ما كان يخلق بهم أداؤه مختارين لو وزعت الحقوق والواجبات بصورة عادلة ، بحيث كانت امتيازات رجال الدين ، امتيازات اسمية أكثر منها فعلية . وكان على رأس خصوم الأقباط ، أخ فقي للملك هو الأنثانت فرديناند صاحب صربا ؛ وكان قد ارتكب ضد الكنائس والأديار كثيراً من ضروب العسف ، حتى أن مطران براغا جعل قرار الحرمان

يشمله . ووجه اللوم إلى الملك كرة أخرى لأنه لم يجمع عدوان آلِه وسحبِه ؛ واضطر الأنفانت فرديناند أن يذهب إلى رومه (سنة ١٢٣٩م) ليقدم ضراسته إلى البابا وليحصل على عفوه ؛ فمعا عنه البابا مقابل تمهده بألا يعتدى بعد على شيء من حقوق الكنيسة . ولكن سانشو لم يكن باستطاعته أن يرغم جميع أشراف مملكته الذين يرتكبون العسف ضد الكنيسة ، على مثل هذا الخضوع . واستمر سانشو مدى أعوام أخرى يبذل أعظم الجهود في أداء واجبات الحاكم اليقظ ، يتابع الحرب ضد المسلمين بنجاح ، ويكافح داخل المملكة ضروب الإخلال بالنظام والعسف أينما ظهرت ، ويدبر دفة الحكم بمنتهى العناية والحرص ؛ بيد أن الصعاب كانت تتفاقم في سبيله ، فقد بدأ الأشراف بالتحرك ، وكان أخص أقاربه على تفاهم معهم ، وكان رجال الدين ينفضونه ، ويتربصون الفرصة لإسقاطه ؛ ولهذا لم يكن غريباً أن ينحدر سانشو بعد هذه الأعوام الطويلة التي قضاه في جهود عقيمة إلى نوع من السأم والخلول ، وأن يعتمد أعداؤه إلى انتهاز هذا الظرف لإسقاطه ؛ واضطر سانشو أن يقف الحرب ضد المسلمين بعد أن تخلف عن طاعته فريق من الأشراف ، وحتى الحدود غدت دون دفاع كاف ضد غزوات المسلمين ؛ وعمد الأجبار — بدلا من البحث لدى الأشراف المخالفين عن سبب اضمحلال سير الحرب ، ومحاولة إقناعهم بالخضوع — إلى اتهام الملك بالإهمال والتواكل ، وتمريض الملكة بذلك إلى الخطر ، وانحازوا خفية إلى الثائرين . وقد كان اضطراب أية ثورة ينذر سانشو بالويل . ذلك أن أخوية الفونسو وفرديناند ، وعمه بيدرو كانوا يمثلون الحركة الثورية ، وكان لكل منهم حزب من الثوار ؛ وكان الجمود الذي لزمه سانشو يومئذ ، وخضوعه المطلق لتفوذ زوجته السيي ، وهي الملكة ماريالويس دي هارو ، مما يثبط هم أقرب أنصاره ويشجع خصومه على اتخاذ خطوات سريمة حاسمة .

ولما كان سانشو دون ولد ، فقد كان ذلك يحفز الأشراف إلى الاهتمام بأمر الملكة ؛ وكانت أطباعهم تتفق مع أمانى الثوار في خلع الملك عن عرشه . وكان

المعتقد أنه لا ينقص مثل هذه الخطوة سوى موافقة الكنيسة ؛ ولهذا انجبه الثوار وعلى رأسهم الأحبار بشكواهم إلى البابا أنوسان الرابع ، وكان يومئذ يقيم في ليون مجلساً كنسياً (سنة ١٢٤٥ م) لخلع القيصر فردريك الثاني ؛ فأصدر كتاباً إلى الملك بأن يعمل على تلافى أسباب الشكوى ، وأن يقدم الترضيات اللازمة ، وإلا اضطر الأب المقدس إلى أن يتخذ في حق ملك البرتغال ومملكة البرتغال خطوات شديدة أخرى .

وذهب في تلك الآونة أيضاً إلى المجلس الكنسي في ليون أسقفاً بورتو وفلمرية ومطران براغا ليمرضوا شكواهم شخصياً على البابا ؛ وكان يصحبهم عدة من الأشراف البرتغاليين كسفراء للملك يدافعون عن حقوقه ، بيد أنه تبين فيما بعد أنهم خائنون لقضية مليكهم ؛ وما كاد الأحبار والأشراف البرتغاليون يصلون إلى ليون حتى قدموا شكواهم ضد مليكهم ، وطلبوا عزله عن الملك ، وتوايه أخيه الأنفانت الفونسو مكانه ؛ وكان هذا الأمير قد غدا بزواجه من السكونته مانيلده صاحبة بولونيا ، أميراً لهذه الولاية ؛ وكان قد توثقت صلاته بالكنيسة منذ أعوام ، وكان يمد بأن يقود جيشاً إلى المشرق لمحاربة الفزاة التتار ، وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمى الأندلس ؛ وكان الأحبار والأشراف الخوارج يرون فيه أداة لينة لتنفيذ خطتهم . واستجاب البابا أنوسان الرابع لرغبات هؤلاء النفر القلائل ، وقبل أن يعمله من البرتغال جواب كتابه السابق ، أصدر في ٢٤ يولييه سنة ١٢٤٥ م قراراً بعزل الملك سانشو الثاني ، محتجاً بأنه اغتصب بعض الأملاك الكنسية ، وترك الفوضى تغمر البلاد بجزء وإمهاله ، وتنصيب أخيه الأنفانت الفونسو صاحب بولونيا مكانه في الحكم ، وقد كان من حقه أن يخلف سانشو في الملك إذا توفى دون عقب ؛ وكان القرار يحمل بالفاظه معنى إقامة الفونسو وصياً لا ملكاً ، ولكن تبين فيما بعد أن المقصود هو العزل الحقيقي . وكان الفونسو يومئذ في باريس لدى خالته المالكة بلانكا والدة القديس لويس ، فانقلب عائداً إلى البرتغال . بيد أنه اضطر أن يقطع في البداية لزعماء الأحبار الذين

ذكرناهم عهداً بأن يحترم جميع امتيازات رجال الدين ، وأن يبذل لهم امتيازات وحقوقاً أخرى ، وأن يؤيد كل القوانين العامة والحقوق الخاصة ، بل تعدد لهم بأن يعطيهم نصيباً في حكم المملكة .

قطع الفونسو على نفسه هذه المهود في سبتمبر سنة ١٢٤٥م مشروطاً مع ذلك ألا تضر بحقوقه أو حقوق المملكة ، ثم ترك لزوجيه إدارة الإمارة ، وركب البحر مع الأبحار والأشراف البرتغاليين ، عائداً إلى البرتغال ، فوصل إلى ثغر اشبونه في نهاية سنة ١٢٤٥م ؛ وفي الحال أقبل الشعب على مبايعته بالطاعة والخضوع . وكان تطور الحوادث على هذا النحو مفاجأة لسانشو ، فما تصور قط أن تفضى الأزيمة إلى مثل هذه النهاية ، ولم يفكر في الاستعداد لمحاربة خصمه وإخضاعه بقوة السيف . ذلك أن الفونسو كان معه رجال الدين وفريق من الأشراف ؛ ولم يكن لرأى الشعب يومئذ قيمة في تأييد هذا أو ذاك ، ولكنه كان ينحاز حتماً إلى الجانب الذي تؤيده الكنيسة والأشراف . هذا إلى أن مطران براغا وأسقف قلورية ، قد استصدرا من البابا مرسوماً يخولهما أن يوقعا العقوبات الكنسية على كل مخالف لحكومة الفونسو ، وهكذا اضطر سانشو أن يبحث عن سلامة نفسه ؛ ففر إلى قشتالة ، ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث « المقدس » ، فاستقبله في طليطلة ، ووعدته — عملاً بنصح الأساقفة وبعض الأشراف — بالمعاونة والتأييد ضد ثوار مملكته الذين تزعموه من العرش .

وخرج سانشو على رأس جيش جهزه له ملك قشتالة ، ومعه ألفونسو أكبر أبناء فرديناند الثالث ، وزحف على البرتغال ، بيد أن محاولته كان مقضياً عاجها بالفشل . ذلك أن ألفونسو الثالث أمير البرتغال الجديد ، بادى إلى استمالة كثير من أنصار سانشو المترددين ، بالوعود والمطايا ، وإلى إرهاب أولئك الذين أصروا على معارضته وإخضاعهم ؛ ولم يبق إلى جانب الملك القديم سوى عدد من القلاع التي نبت أصحابها على ولائهم ؛ فلما غزا الجيش القشتالي الأراضي البرتغالية ، لقيه ألفونسو في قوى ضخمة ؛ بيد أنه قبل أن يشتبك معه في القتال ، حاول أن يقنع

القشتاليين بالحسنى أن يعودوا إلى بلادهم ؛ وبعث إلى الأنفانت ألفونسو يطلبه على القرار البابوى ، وكيف أنه تلقى الحكم من الأب المقدس ، وأن كل من يقف فى سبيله يمرض نفسه لمقوبة الحرمان ؛ كذلك حث الأخبار الأنفانت على العود ؛ ورأى الأمير أنه لا يستطيع أن يحمل من تلقاء نفسه تبعة خطوة قد تمرض عواقبها قشتالة ذاتها للخطر ، فعاد بالجيش إلى قشتالة دون أن يشتبك مع البرتغاليين فى موقعة ما . وربما رأى سانشو فى تصرف القشتاليين من الحكمة وبعد النظر ، أكثر مما أبدوا من وفاء بعهودهم . ومع ذلك فقد آثر أن يعود ليعيش فى قشتالة على أن يحاول أن يجوز تقلبات الحرب فى مملكته . وقد كان أنصاره المخلصون يسيطرون على كثير من القلاع ، وكان فى وسعهم أن يهددوا حكومة ألفونسو أعواماً أخرى ، ولكن سانشو آثر فيها يظهر دعة الحياة الخاصة ؛ وعاش الأمير الذى كان ولوعاً بالحرب ثلاثة أعوام أخرى كما يعيش الرهبان ، بين الاستغفار والصلاة وأداء الصدقات ؛ وهو أكثر اتصالاً بالعالم الآخر منه بهذا العالم . وقد نعتقد أن لقبه وهو « ذو الثوب الكهنوتى » اشتق من هذه الحياة التى عاشها فى أعوامه الأخيرة ؛ ولكننا نعلم فى الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل — على أثر مرض خطر أصابه — ثوب راهب تبركاً بالقديس أوغسطين ووفاء لنذرته بذرتة متى شفى . ونوفى سانشو فى طليطلة فى يناير سنة ١٢٤٨ م .

ومع أن سانشو قد نبذ عرشه ، وترك أنصاره إلى مصيرهم ، فانه مضت أعوام أخرى قبل أن يوطد ألفونسو سلطانه فى سائر أنحاء المملكة ، وقد اضطر إلى أن يحاصر كثيراً من القلاع مدداً طويلة ؛ ولم يستطع تغلباً عليها إلا بالجوع . وكانت قلعة قلهرية ما تزال تقاوم حتى موت سانشو ؛ وكان حاكمها مارتن دى فريتاس يدافع عنها وهو يمانى كل ما يفرضه حصار أعوام من ضروب الضيق والإرهاق ؛ بل لقد أبى أن يسلمها حتى بعد أن جاءت الأنباء بوفاة سانشو ، وطلب أن يتحقق بنفسه أولاً من صدق الخبر ؛ فأعطاه ألفونسو أماناً وإذنًا

بالسفر ، فسافر إلى طليطلة ؛ وطالب أن يفتح قبر سانشو ، وهناك وضع بين يديه مفتاح قلعة قلمرية . ولما اطمان إلى أنه أدى واجب الولاء للملكة تاما ، عاد إلى القلعة ، وسلمها إلى ألفونسو .

٤ — فتوح ألفونسو الثالث في ولاية الغرب

لم يتخذ ألفونسو الثالث لقب الملك إلا بعد وفاة سانشو ، وعلى أثر ذلك دعا نواب الطبقات الثلاث إلى الاجتماع ، فبايعوه بالطاعة باعتباره « أميراً ملكاً » ؛ أما قبل ذلك فكان يلقب فقط بالقائم بشؤون الدولة أو نائب الملك .

وما كاد ألفونسو يطمئن إلى توطد عرشه ، حتى أخذ يفكر في استئناف الفتح في ولاية الغرب (غربي الأندلس) ؛ وكانت الظروف يومئذ أشد مما تكون موافقة لإعلان الحرب على المسلمين ؛ ذلك أن سقوط إشبيلية في يد فرديناند الثالث في ذلك الحين قد أثار الروع في باقي الأراضي الإسلامية . وكان سانشو الثاني قد افتتح معظم ولاية الغرب ، واستولى على عدة من القلاع الواقعة على ضفة وادي يانة اليسرى مثل مورده وصربا ويامونت ، فلم يبق على تنمة إخضاع الأراضي الواقعة غربي مصب وادي يانة سوى الاستيلاء على بعض الحصون .

وكانت دولة الموحدين قد انهارت تمام الانهيار ، وساد التفرق بين مسلمي الأندلس ، وغدا أقوى أمراءهم ، أمير غرناطة من أتباع ملك قشتالة ، فلم يكن من الممكن أن تعتمد الحصون الإسلامية في ولاية الغرب على أية مساعدة من الخارج ؛ وكان في وسع ألفونسو أن يطمئن إلى نجاح غزوه ؛ وقد بدأ بمحاصر قلعة فارو الواقعة بين شلب وطبيرة ، فطوقها من البر والبحر ؛ وممرعان ما اقتنع المسلمون بميث المقاومة ، وجنحوا إلى تسليم المدينة (١٢٤٩م - ١٢٤٧هـ) وأُتفق على أن يحتفظ المسلمون الذين لم يرغبوا في الهجرة بأموالهم ، بدينهم وأموالهم وشرائعهم ، وأن يكونوا رعايا الملك البرتغالي ، يؤدون إليه من الضرائب ما كانوا يؤدونه فعلا إلى أمراءهم المسلمين ؛ وتلا الاستيلاء على فارو ، سقوط

المدن المجاورة بسهولة ؛ وكانت البفيرة قد أخذت قبل ذلك بقليل ؛ ولم تستطع لوله وما جاورها أن تقوم بمقاومة تذكر ، فلم يأت منتصف سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) حتى سقطت ولاية الغرب كلها في أيدي البرتغاليين . وفي العام التالي عبر البرتغاليون نهر وادي يانه ، ومضوا في فتوحهم على ضفته اليسرى في قلب الأندلس ، واستولوا على قلعتي أروشه وأرسينه الواقعتين على مقربة من لبله ؛ وشجر الخلاف من أجل هذه الفتوح بين ملك البرتغال وملك قشتالة ، وسوف نقص فيما بعد كيف سوى هذا الخلاف بين الملكين ، وكذلك ما تبقى من سيرة الفونسو الثالث .

وهكذا غدت مملكة البرتغال — التي لم تكن عند قيامها في عهد مؤسسها الملك الفونسو هنريكز (ابن الرين) سوى الرقعة الممتدة بين نهري منهو ومنديجو — بفضل جهود البرتغاليين وشجعائهم ، في ظرف قرن فقط ، ضعف ما كانت عليه ؛ وكان الملك الفونسو الأول قد استطاع خلال عدة حروب موقعة أن يدفع حدود المملكة إلى ما وراء نهر التاجه ، وأن يفتح العاصمة أشبونه ؛ ثم غزا ولده سانشو الأول ولاية الغرب ، وافتتح منها عدة حصون ، بيد أن هذه الفتوح لم تكن ثابتة نظرا لبعده هذه الحصون وعزلتها ؛ ولم يمهد طريق الفتوح الثابتة في الغرب إلا بعد أن افتتح الفونسو الثاني بمساعدة الجند الصليبيين قصر أبي دانس ؛ ثم جاء سانشو الثاني فأبدى همة مضاعفة ، وقام بفتح بعد فتح ، من الفاس إلى يامونت وطبيره ، وافتتح كل الأراضي الواقعة على ضفتي نهر وادي يانه الأسفل حتى مصبه ، ومهد بذلك السبيل إلى إتمام افتتاح ولاية الغرب ، وكان هذا الفتح من نصيب أخيه وخلفه الفونسو الثاني ، في منتصف القرن الثالث عشر . ولم تزد مملكة البرتغال حتى يومنا في حجمها على ما كانت عليه في بداية حكم الفونسو الثالث .

الفصل التاسع

أحوال الدول الاسبانية

حتى وفاة فرديناند الثالث

يستمد فرديناند الثالث شهرته وعظمته في التاريخ الاسباني بالأخص من فتوحه ؛ ذلك أنه لم يوفق ملك اسباني في القرن السابق من المصور الوسطى إلى ماوفق إليه من اجتتاب جميع المنازعات مع جيرانه من الملوك ، حتى لا يشغل في حروبه ضد المسلمين ؛ ولم يكن نعمة ريب في أن الحماسة الدينية لنشر النصرانية كانت أهم البواعث التي حملته على خوض الحرب مع المسلمين بلا انقطاع ، بيد أنه لم يفعل مع ذلك مصالح المملكة السياسية ، فقد بقي مثلاً على ارتباطه الوثيق مع أمير غرناطة . أما موقفه إزاء جاييم ملك أراجون ، فقد كان بحيث يخشاه هذا الملك دائماً نظراً لما كان ينشأ من خلاف بينه وبين أكبر أولاده وكثير من أشرف مملكته ؛ على أن فرديناند لم يكن ليخشى من أراجون شيئاً على سلامة أراضيه ؛ ذلك لأن فتوح جاييم في مملكة مرسية لم تكن تهدد قشتالة في شيء . وليس هناك ما يدل على أن فرديناند كان يطمح إلى امتلاك نافارا عقب وفاة ملكها سانشو السابع بلا عقب ، وقد كان النافاريون والأرجونيون يقاتلون معاً مثل هذا التوسع من جانب قشتالة ؛ ولكن فرديناند كان أعقل من أن يقدم على مثل هذه الخطوة العقيمة ، التي كانت لتحول بلا ريب دون فتوحه في الأندلس ؛ ومع أن ملك قشتالة كان قليل التدخل في شؤون البرتغال الداخلية ، فإنه مع ذلك تولى حماية سانشو الثاني

حينما فقد عرشه على يد رجال الدين ، ثم حاول أن يردّه إلى عرشه بقوة السيف (سنة ١٢٤٦م) ؛ ولكن حال دون تحقيق مشروعه قرار الحرمان البابوي ، و وفاة الملك المخلوع عقب ذلك ، وكان يقيم في ظل رعايته في طليطلة . كذلك يستمد چايم ملك أراجون شهرته بالأخص من فتوحاته ؛ وقد اشتهر أيضاً بأنه مشرع ومقنن ؛ ولكنه لم يكتسب هذه الصفة إلا في النصف الأخير من حكمه وهي فترة تتصل بمصر آخر لا معنى به هنا . وأبدى چايم في مسألة وراثة العرش كثيراً من الضعف والتردد ، وكاد يقضى من جرائها على جميع ما أداه من خير لمملكته ؛ ذلك أنه طلق زوجته الينور بحجة القرابة حينما أصبحت لا تروق له ؛ ومع ذلك فقد اختار ولده الفونسو الذى أعقبه منها ولداً لعمد المملكة كلها ، وذلك على يد المجلس النيابى الذى عقده في طركونه سنة ١٢٣٢م . وكان هذا التصرف من جانب چايم مناقضاً للمعاهدة التى عقدها مع سانشو السابع ملك نافارا ؛ وكان هذا الملك - الذى لم يقم منذ موقعة العقاب بأى عمل حربى يذكر - يمشى مع جاره في سلام دائم ، معتمداً ببجالة ، بيد أنه استيقظ من جهوده ، منذ ضم فرديناند الثالث عرش قشتالة وليون في مملكة واحدة ؛ وعقد مع ملك أراجون في الاجتماع الذى تم بينهما في تطيله (سنة ١٢٣١م) معاهدة تحالف وثيق ضد قشتالة ، نص فيها على أن يتبنى كل من الملكين زميله ، وأن يخلفه في عرشه ، وذلك بالرغم من أن چايم كان له ولد ، وكان سانشو قد اختار من قبل ولد أخته الكونت تيوبولد أمير شيبانيا ليخلفه في عرش نافارا .

فلما أعلن چايم في العام التالى ولده الفونسو ولياً لعمده ليخلفه في جميع مملكته ، قضى بذلك على معاهدته مع ملك نافارا . بيد أنه تقدم نحو عرش نافارا بطلبات بحجة ، حينما توفى سانشو السابع في السابع من أبريل سنة ١٢٣٤م ، في الثمانين من عمره ؛ واختار نواب الطبقات بالإجماع ابن أخته الكونت تيوبولد أمير شيبانيا ملكاً شرعياً لنافارا . وكان عدول ملك أراجون

عن دعواه الباطلة ضد نافارا ، يرجع بالأخص إلى اشتغاله بالغزو في أراضي المسلمين أكثر مما يرجع إلى اعتراضات رجال الدين والبابا جريجورى التاسع . وهكذا بقي تيوبولد حتى وفاته ملكاً لملكته بلا منازع ، وخلفه في العرش عقبه . أما تاريخ هذه الأسرة الجديدة التي تولت عرش نافارا ، والتي تدين مؤسسها بتنظيم الدولة وتزويدها بكثير من القوانين الحكيمة ، فيدخل في تاريخ العصر التالى .

وكان تصرف فرديناند إزاء چايم ملك أراجون مليئاً بالشهامة . ذلك أن چايم طلق زوجته الأميرة الينور القشتالية بحجة القرابة ، واختار الفونسو ولده (سنة ١٢٣٢م) ولياً لعهده ، ولكنه عاد فانتزع منه بعض أجزاء المملكة ليعطيها لأبنائه من زواجه الثانى ؛ ومع ذلك فقد بذل فرديناند كل ما فى وسعه لى يهدى بوساطته ما ترنّب على تصرفات چايم التسفية من الاضطرابات فى أراجون ؛ ولما تزوج چايم فى سنة ١٢٣٥م بالأميرة يولانتا ابنة اندرياس اثناى ملك المجر ، ورزق منها بأولاد جدد ، قرر على يد المجلس النيابى الذى عقد فى دروفه سنة ١٢٤٣م ، أن يعطى ولده من زواجه الأول الفونسو ، أراجون وحدها ، وأن يعطى ولده من زواجه الثانى بيدرو ولاية قطلونية . وقد أثار هذا التصرف من جانب چايم غضب ولى العهد وجميع الأشراف ؛ وكادت أن تنرب عليه حرب دموية بين الوالد والابن ، لولا أن وفق فرديناند بتدخله إلى اجتنابها ؛ ذلك أنه أرسل ولده البكر الفونسو ، إلى ملك أراجون ، فعقد مؤتمرأ فى المسيرة (سنة ١٢٤٤م) ، واستطاع أن يسوى النزاع القائم بين قشتالة وأراجون على حق الفتوح فى ولاية مرسية ، وأن يسوى فى نفس الوقت ما شجر من خلاف بين الأحزاب الأرجونية . كذلك عقد الفونسو ولى عهد قشتالة خطبته على يولانتا ابنة چايم توثيقاً لملائق الصداقة بين الملكتين المتجاورتين ، واشترط أن تعطى الأماكن المختلف عليها بين قشتالة وأراجون كمهر لها .

وما كاد النظام يستتب في أراجون حتى وجه جايم كل عنايته لتزويد المملكة بالقوانين الكفيلة بتقديم الشعب ورفاهته ؛ فأعد في أوائل سنة ١٢٤٧ م على يد المجلس النيابي المنعقد في وشقة تشريعاً جديداً قام بوضعه جماعة من علماء القانون والعرف ؛ وكان واضحاً أن هذا التشريع الجديد يرمي إلى الحد من امتيازات الأشراف ، والتوسع في حقوق الطبقة الوسطى . وجمعت قوانين المملكة المختلفة في هذا التشريع وشرح منها ما كان غامضاً ، ونقح منها ما كان في حاجة إلى التنقيح ؛ ونص على أنه في الأحوال الغامضة يُرجع إلى رأى ذوى النزاهة والمعرفة الذين خبروا هذه الشؤون ؛ وأضيفت إلى التشريع أيضاً مجموعة الأوامر القديمة المتعلقة بالحقوق الشخصية ، وإجراءات المرافعات ، والنظم الإدارية . ولم تبحث الأصول الدستورية ، وقصد بذلك على ما يلوح أن تمنح الامتيازات التي يتمتع بها الأمراء التابعون بمضى الزمن ، على أن جايم لم يخطر في باله أن الحقوق الملكية التي لم تسجل بوضوح ستغدو هي ذاتها موضعاً لاعتداء الأمراء ، وهو ما وقع بالفعل فيما بعد .

وكان ثمة فكرة مشؤومة تلاحق الملك جايم وهي تقسيم المملكة بين أبنائه . وما كاد ينتهي من تزويد أراجون بالقوانين الصالحة ، وهي خير قوانين عرفت يومئذ في أوروبا ، حتى أخذت تغلب عليه تحريضات زوجه البارعة الطاموحة بولانتا . وكانت الملكة تريد أن يمنع جميع أبنائها مناطق من أراضي المملكة ، فاستطاعت أن تحمل زوجها على أن يضع لها تقسيماً جديداً (سنة ١٢٤٨ م) ؛ وبمقتضى هذا التقسيم خص ألفونسو ، ولد الملك من زواجه الأول ، بولاية أراجون فقط ، ومنح بيدرو أكبر أبناء بولانتا ولاية قطلونية وجزيرة ميورقة وباقي الجزر الشرقية ، وحصل أخوه جايم على ولاية بانسية ، وفرناندو على إمارة روسيون وكوفلان ، وشرطانية ومونبلييه ، وعدة أماكن أخرى شمالي البرنيه ؛ أما أصغرهم سانشو فقد التحق برجال الدين ، ولم يحصل على شيء ، بيد أنه رقى رغم حدائته إلى أرفع المناصب الدينية .

وما لبث هذا التقسيم أن أثار في أراجون حرباً أهلية أخرى ، وثار ألفونسو أكبر الأبناء من جديد ، وتحالف معه الأنفانت البرتغالي بيدرو صاحب بلنسية الفنى بموارده ، وكان قد تنازل عن ميورقه لقاء بلنسية . وقد أرغم الأميران مدى حين على مغادرة المملكة ، بيد أنهما انضبا في معظم أنصارهما — وهم أشجع فرسان أراجون وبلنسية — إلى الملك فرديناند الثالث ، وقدا إليه خدمات جلى في محاصرة إشبيلية وافتتاحها ؛ ولهذا كان من الواضح لجاييم أن ابتعادها عن المملكة لم يضع للمحرب حداً ، ولكنه أرجأها فقط . ورأى جاييم لكى يحول دون تفاقم الاضطراب فى المملكة ودون تدخل قشتالة فى شؤونها الداخلية أن يدمو نواب الطبقات إلى الاجتماع فى القنيس (سنة ١٢٥٠ م) ؛ واختار النواب عدة محكمين للفصل فى منازعات الأحزاب والعمل على التوفيق بينها ؛ ورجع الفضل بالأخص إلى نصيح فرديناند فى أن ولى العهد ألفونسو ، والأمير البرتغالى — وكانا يقبان يومئذ فى إشبيلية — انتهيا بالخضوع إلى هيئة المحكمين . وكان ملك قشتالة يرجو مخلصاً أن يعود السلام الداخلى إلى أراجون ، وعلى هذا فقد اضطر ولى العهد ألفونسو أن يخضع إلى القرار الذى أصدرته هيئة المحكمين التى تدبها مجلس النواب فى برشلونه فى ٢٦ مارس سنة ١٢٥١ ، وإن لم يكن هذا القرار فى صالحه ؛ وكان القرار يقضى بأن يخص ألفونسو بأراجون وحدها والفتوح الجديدة فى ولاية بلنسية ، ويؤيد منح ولاية قطلونية للولد الثانى بيدرو ، وأن يعلى الولد الثالث جاييم جزيرتى ميورقة ومنورقة ومونبلييه ، والولد الرابع فرديناند ولاية روسيون وشرطانيه وكونفلان . وهكذا حمل جاييم بحبه الأعمى لأولاده من زواجه الثانى على أن يمزق مملكة أراجون ، فى الوقت الذى عظمت فيه قوتها بافتتاح بلنسية ، وفى الوقت الذى استطاعت فيه قشتالة باتحادها مع ليون وفتوحها فى جنوبى اسبانيا أن تقضى على التوازن بين الدول الاسبانية ؛ بيد أن حكم جاييم الطويل الحازم ، وموت ولى العهد ألفونسو قبل أبيه حالاً دون انقسام وحدات المملكة الرئيسية وحى أراجون وقطلونية وبلنسية . أما فرديناند ملك قشتالة فقد استطاع

بالمعكس أن يوطد وحدة الأراضي التي ورثها ، والتي افتتحها ، وأن يغم بذلك عرفان الأمة الاسبانية التي اعتبرته بحق مؤسس المملكة الاسبانية .

ولما شعر فرديناند بدنو أجله ، استدعى ولده وولى عهد الفونسو ، وهو الذى اختير منذ مولده فى سنة ١٢٢٢ م على يد مجلس برغش لولاية العهد ، وأوصاه بحضور الأشراف أن يعنى بأمر إخوته الخمسة وأن يكون لهم بمثابة الأب ، وأن يعامل الملكة — وهى جان دى بونتيه التى تزوجها فرديناند فى سنة ١٢٣٨ م بعد وفاة زوجه الأولى بياتريس — بمنتهى الرفق والتبجيل ، وأن يترك الأمراء التابعين حقوقهم وامتيازاتهم ، وألا يفرض شيئاً من الضرائب إلا إذا قضت بذلك الضرورة القاهرة ، وأن يسهر على تحقيق العدالة بين الناس دون تفریق بين أحد منهم ، وأن يحكم الملكة فى خشية من الله . وفى ٣٠ مايو سنة ١٢٥٢ م توفى فرديناند مأسوفاً عليه من الجميع بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاماً ، وحكم ليون اثنتين وعشرين عاماً . ودفن فى إشبيلية آخر فتوحه ، وكان قد جعلها قاعدة لمملكته ؛ وأسبغ عليه معاصروه — نظراً لورعه وتقواه — لقب « المقدس » ، ورويت عن قبره أساطير عديدة ؛ وخلع عليه البابا كليمنطوس المائس لقب القداسة فى سنة ١٦٧٧ ، تحقيقاً لرغبة الملك كارلوس الثانى .

ومنذ توات الأسرة البرجونية عرش قشتالة وليون ، وقعت فى نظم الحكم فى هاتين الدولتين تغييرات عديدة وإن تكن غير جوهرية . وكان أثر النظم والتقاليد الفرنسية قد أخذ يبدو مذنبوات الأسرة النافارية عرش قشتالة ، ولكن زاد هذا الأثر ظهوراً ، مذ وليت الأسرة البرجونية المتفرعة من أسرة كاييه المالكية ، عرش المملكة الاسبانية . فزادت سلطة الملك بمد أن كانت محدودة جداً ، وألغى مبدأ حق الانتخاب ؛ وكان حصول الملوك على حق اختيار أولياء العهد راجعاً بالأخص إلى أن الفتوح التى يقومون بها فى الحروب الموفقة ، تعتبر ملكاً خالصاً لهم يتصرفون فيه بما شاءوا ، وكان الملك يحصل فى هذه التصرفات على موافقة

الكبراء من الأشراف والقواد والأساقفة ، وهم الذين حققت هذه الفتوح على أيديهم ، ولكن هذه الموافقة لم تكن فرضاً لازماً ، وإنما كانت تؤخذ فقط لتسهيل إجراءات التصرف ؛ ومن ثم فقد تبوأ معظم ملوك قشتالة وليون العرش بطريق الوصايا الملكية من أسلافهم ، وهي وصايا كانت يعاقد عليها دائماً كبراء المملكة ؛ وكان لكل ملك أن يقسم ولايات المملكة بين أبنائه . ولكن مملكة تقوم على مبدأ الانتخاب تأتي مثل هذا التقسيم . وكان فرديناند الثالث ، الذي تولى عرش ليون بالرغم من إرادة أبيه وحرمانه إياه في وصيته ، أول من وضع لخير المملكة قانوناً يحرم تقسيم مملكة قشتالة وليون المتحدة (وذلك في سنة ١٢٣٠ على ما يظهر) ولكن لم ينص فيه صراحة - في حالة ما إذا لم يوجد عقب مباشر من الذكور - ماذا يتبع في توريث الفروع أو إلى أي حد يفضل فرع الذكور ، على الأعقاب من الإناث . ومع أن فرديناند الثالث كان يسيطر على نحو ثلثي شبه الجزيرة ، وقد دفع أطراف مملكة قشتالة إلى حدود لم يوفق إليها أحد من أسلافه ، فإنه لم يفعل ما فعله ملوك قشتالة السابقين من ادعاء السيادة على باقي الممالك النصرانية ولم يتخذ كبعض أسلافه لقب القيصر .

وكانت الحقوق الملكية ونظم البلاط في هذا العصر باقية على النحو الذي نرحناه من قبل ^(١) ؛ فالوزير الأول يسمى « محافظ القصر » Majordomus ويليهِ وزير الحرب أو حامل السلاح Armiger ؛ وكان وزير العدل يسمى Merinus Major ؛ ويتولى توقيع الراسيم والتصرفات الملكية المسجل الملكي والمستشار الملكي . وحدث أثناء عهد الوصاية على الفونسو النابيل ، وهنري الأول ، أن استطاع الأشراف أن يفتصبوا معظم سلطات الحكم ؛ وكان سن الرشد قد عين عند بلوغ الملك الرابعة عشرة ؛ وقد بلغت غطرسة الأشراف يومئذ حدا عظيماً بحيث كان من المألوف أن يرفضوا طاعة الملك ، بل لقد زعموا لأنفسهم يومئذ حقاً خطراً على كيان المملكة هو أن في وسعهم أن يرفضوا

(١) راجع ص ١٢٢ وما بعدها من الجزء الأول من هذا الكتاب .

الولاء للملك وأن يختاروا أميراً غيره ؛ وقد استطاع الفونسو النبيل ، وكذلك فرديناند الثالث في أعوام حكمه الأخير أن يحطاً سلطان الأشراف — وقد كانوا يعفون من الضرائب ويملكون الضياع الواسعة والحصون والقلاع — وذلك بالأخص بمعاونة رجال الدين الأقوياء الأثرياء ، ورفع الطبقات الأخرى من الناحية الاجتماعية ؛ ومما يذكّر في ذلك أن الفونسو النبيل قد نزع من الأشراف هيبتهم ، واضطهدهم ، وسلاح المدن والفلاحين لمحاربتهم ؛ وعاون الكفاح المستمر ضد المسلمين في المدن ، ولا سيما في أطراف المملكة الجنوبية على إنهاض الروح العسكرية ؛ وكانت هذه المدن كلها تقريباً تحكم نفسها طبقاً لقوانينها وتقاليدها الخاصة fueros ، وهي التي حصلت عليها أو انتزعتها من الملك ؛ وكانت تنزل إلى ميدان الحرب بأعلامها وقوادها مجهزة أحسن تجهيز ، وكثيراً ما تحوز النصر الباهر على العدو ، وتعود جيوشها مثقلة بالغنائم ؛ وظهرت بالأخص في هذا الميدان عدة مدن من قشتالة الجديدة واسترمادوره مثل آبله ، وصوريا ، وسقوبية ، ومدينة ردريك ، وشلمنقة وغيرها . وفي أواخر القرن الثاني عشر صادق على مرسوم أصدره الفونسو النبيل منظم لورثة العرش زعماء خمسين مدينة منها اثنتا عشرة تقع شمال نهر دوبره ، وتقع الباقية في جنوبه ، وتقع في المنحدر الجنوبي لوادي الرملة منها أربع عشرة ، وتقع في المنحدر الشمالي الشرقي أربع وعشرون . وأما كان فرديناند الثالث قد افتتح في القرن الثالث عشر عدة مدن كبيرة مثل بياسة وأبدة وجيان وقرطبة وإشبيلية وغيرها وشحنها بالسكان النصارى ، فقد كانت الطبقة الثالثة يومئذ غنية بمدها ؛ وكان نواب الطبقة الثالثة يمثلون عندئذ في المجالس النيابية ؛ ومن الخطأ أن يقال إن نواب الطبقة الثالثة مثلوا في الكورتيس (البرلمان) لأول مرة في عهد الفونسو الحادى عشر في سنة ١٣٢٥م ؛ وكانت المدن التي تمتت فيما بعد ، في سنة ١٣٤٩ ، في مملكة قشتالة وليون المتحدة بحق إرسال نوابها إلى البرلمان ثمانى عشرة فقط .

وكان ابتعاد مجلس البرلمان (الكورتيس) خلال القرنين الثاني عشر والثالث

عشر من الشؤون الكنسية يبدو شيئاً فشيئاً ، وغدت الشؤون الكنسية تبحث في مجالس خاصة (synod) ؛ وكان الأساقفة يمثلون في البرلمان كسابق عهدهم ، ولكن — بالأخص — باعتبارهم من الكبراء والأشراف ؛ وكان الكورتيس يدعى في هذه المصوّر بالأخص في أحوال ثلاث :

أولاً — حين صدور المراسيم الملكية الخاصة بوراثنة العرش والوصاية ، وإصدار القوانين ، أو إصدار النظم المتعلقة بإدارة شؤون الدولة ، مما يجب أن يحوز مصادقة الأشراف .

ثانياً — عند إعلان الحرب على المسلمين ، وذلك للمصادقة على توزيع نفقات الحرب ، وتقرير عدد الجند الذين يجب حشدهم .

ثالثاً — عند فرض الضرائب وتقريرها ؛ ولما كانت هذه المسألة تهم المدن بنوع خاص ، فقد جرت العادة شيئاً فشيئاً أن يدعى مأمورو الملك وزعماء المدن إلى مجالس الكورتيس ؛ ولم يكن لهؤلاء حق التصويت في هذا الشأن ، ولكن كان لهم أن يبدو رأيهم ، وأن يبدو اعتراضاتهم في الأحوال التي يرون فيها فداحة الضرائب . وكان يوجد ثمة إلى جانب الضرائب المادية فروض وخدمات أخرى ، مثل تقديم المؤن والأقوات للجيش وأعمال التحصينات والحراسة في المدن والأماكن القريبة من حدود الأعداء .

هذا ، ولما كان لكل مدينة وكل ضيعة وكل دير تقريباً قانون خاص تجري العدالة بمقتضاه ، فقد كان من الممكن يومئذ نظراً لتجني الأشراف وسيادة حق القوة ، أن يقع التصادم بين مختلف القوانين ؛ بيد أن مثل هذا التصادم كان أقل مما تتصور . فقد كانت كل جهة تتمسك بقانونها دون أن تنبأ بمعارضة الآخرين . وكان السكان الذين يستقرون في المدن المفتوحة حديثاً يحصون على قانون جديد ، يقتبسونه عادة من مدينة سبقت لهم السكنى فيها . بيد أنه كان يجب الحصول على مصادقة الملك . وقد رأى فرديناند الثالث — لكي يحقق نوعاً من المساواة في التقنين في أراضي مملكته — أن يصدر تشريعاً عاماً يستند بقدر الاستطاعة إلى

القانون القوطى وإلى القوانين الخاصة المختلفة . بيد أن هذا المشروع لم يتحقق ، وأصدر ولده وخلفه ألفونسو الماثر تشريعاً جديداً ، ولكن على أسس أخرى غير التى رآها أبوه .

كذلك وضع فرديناند الثالث الأسس الأولى لمجلس قشتالة الملكى ، وهو عبارة عن محكمة استئناف عليا لجميع المملكة . وكانت هذه المحكمة تتألف من عشرة من كبار الشترعين من رجال الدين والدينين ؛ وكانت هى الملاذ الأخير فى المنازعات ، وفى وسعها أن تنقح أحكام الحاكم الدنيا أو تميد النظر فيها أو تنقضها ؛ بيد أن الستائف كان ملزماً بأن يودع مبلغاً كبيراً قدره ألف وخمسمائة دبلون (عملة اسبانية) ، بضيق عليه إذا لم يحكم لصالحه .

وكما أن فرديناند الثالث ، لم يستطع أن يسطر سيادة قشتالة على باقى الممالك النصرانية ، فكذلك لم يحاول مطران طليطلة أن يحدد السيادة التى كانت لكنيستته على باقى الكنائس الاسبانية ؛ وقد كان مطرانا شنت ياقب وطركونه يمارضان فى ذلك أشد المعارضة . وظهرت هذه المعارضة بشكل واضح منذ عهد المطران ردرىك الطليطلى حيث احتج زملاؤه على طوافه فى دوائره بهيئة رسمية وإصدار البراءات وغيرها من أعمال وظيفته ؛ وعقد يومئذ مجتمع دينى (سنه ١٢٤٠ م) تقرر فيه أن مطران طليطلة بمرضى الأماكن التى يمر بها على هذا النحو إلى الحرمان . ولم يرض البابا عن هذا القرار ، واسكن المطارنة الأسبان أصروا على رفض سيادة مطران طليطلة عليهم . ولم ينيروا موقفهم حتى عند ما تولى سانشو ولد فرديناند الثالث منصب المطران فى سنة ١٢٥١ م .

ونلاحظ فيما يتعلق بالشؤون الكنسية أن هيبة الأساقفة ورجال الدين قد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ما تولى الأساقفة القيادة ، وكثيراً ما حرصوا على أعمال القسوة ضد المسلمين ؛ وترتب على ذلك أن شابت الوحشية طباع الشعب ورجال الدين . ثم تلا ذلك ظروف محزنة جنح فيها الملوك — بالرغم من معارضة الكنيسة — إلى الزواج من أقاربهم ؛

وجلبوا بذلك قرار الحرمان والتحریم على أنفسهم وعلى الشعب ، واضطهدوا رجال الدين الذين أطاعوا البابا ، وأبدى فريق من الشعب اجتقاره للآخرين ؛ وغاضت المواطن الدينية حسب اعتراف الأساقفة أنفسهم شيئاً فشيئاً ؛ بيد أنها عادت فقويت من جديد في ظل حكم فرديناند المستنير . وحذا هذا الملك الورع ، الذي اضطر أيضاً إلى حماية سلطته من رجال الدين ، حذو الفونسو النبيل ، في إنشاء الأسقفيات والكنائس والأديار في المدن التي فتحت حديثاً ؛ وتمسك الملك بحقهم القديم في تعيين الأساقفة ، وشدد في هذا التمسك الفونسو النبيل وفرديناند المقدس ؛ وشدد الكرسي الرسولي من جانبه في إنكار هذا الحق على الملك . كذلك كان على رجال الدين أن يقدموا الجند إلى الجيش أسوة بالأشراف ؛ بل كان على الأساقفة أن يؤدوا قسماً من أعشار الكنائس كغريبة حرب للمعاونة في الكفاح ضد المسلمين . بيد أنهم لم يكونوا يؤدونه إلا بموافقة البابا . وفيما عدا ذلك كان رجال الدين يتمتعون بالإعفاء من الضرائب منذ أيام الفونسو النبيل ، ولم يتمتعوا بهذا الامتياز من قبل . كذلك تقرر في عهد هذا الملك ألا يضع الملك يده على تركات الأقباط وألا يستغلها بصورة مؤقتة ، بل تترك بجماعتها إلى خاقانهم ، وكان على الأقباط مقابل ذلك أن يصلوا من أجل صحة الملك ورفاهته ؛ وكان فرديناند الثالث يشجع العمل على تحسين أخلاق الكهنة ؛ واستطاع المندوب البابوي ، الذي كثيراً ما تولى عقد الاجتماعات الكنسية ، وجماعات الرهبان الجديدة من الدومنيكين والفرنسيسكانيين ، الذين ذاعت هيئاتهم في اسبانيا منذ تأسيسها في سنة ١٢١٨ ، بما أبدوا من ضروب الاعتدال والورع والتقشف ، أن يكونوا قدوة للكهنة الذين طفت عليهم المواطن الدنيوية وأن يردوهم إلى حظيرة الدين . بيد أنه مما لا يمكن إنكاره أن التعصب الديني ، وشهوة الكهنة إلى السلطان ، واعتناق الخرافات الدينية ، قد أخذت يومئذ تنتشر في اسبانيا .

وهنا أخذت الحرب ضد المسلمين تزداد عنفاً وقسوة ، وأخذ اليهود قسراً إلى التنصير بالرغم من اعتراض البابا على ذلك ، وأرغموا على أن يلبسوا من الثياب

ما يميزهم ، ومنعوا من تحصيل أعشار الكنائس ؛ وعوقب الذين ينتمون إلى الألبين^(١) ، أو بمتقون مبادئ غير الكتلركة بالموت حرقاً ؛ وكان الملك فرديناند الثالث بعثت الملاحدة أشد الوقت ، حتى أنه تولى بنفسه في بالانسيا (سنة ١٢٣٦ م) إضرام النار في محرقة أعدت لإحراق ملحد . ولم يذع في عصر من المصور عن ظهور المعجزات مثلما أذيع عنها في النصف الأول من القرن الثالث عشر ؛ فحينما أحرز النصارى في الحرب نصراً باهرأ ظهر القديس ياقب ، أو الفارس القديس جورج ، أو السيدة العذراء في المركة ، ومعها مدد غير منتظر لأولئك الذين أشرقوا على الهلاك ؛ وقيل إن راهباً من ليون يدعى مارتن معروفاً بغبائه وجهله ، نزل عليه القديس إيزيدور ، وأطمعه الكتاب المقدس ، فلي بذلك علماً وحكمة ، واستطاع أن يؤلف كتباً عديدة في أعوص المسائل الدينية ؛ ولا ذاعت التعاليم الإلحادية التي يرجع بعضها إلى مبادئ الألبين ، أصدر المجمع الديني المنعقد في طركونه سنة ١٢٣٣ م قراراً بتحريم قراءة المهدين القديم والجديد على المدنيين حتى في غير الاجتماعات العامة . وكذلك ذاع يومئذ اكتشاف آثار القديسين ورفاتهم ، ووضعها في الكنائس في المدن الكبيرة ؛ وعرفت اسبانيا في ذلك الوقت أيضاً قديسين معاصرين مثل القديس دومنيك مؤسس الهيئة المعروفة باسمه ، وقد أعلن قديساً في سنة ١٢٣٤ م

وكان من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين أن أسبغت حتماً على الأمة الاسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة ، ولم يحل دون تحولها إلى نوع من الحمجية المطلقة سوى شرف الفروسة والماطفة الدينية ، بيد أننا لا نجد أثر هاتين الخلتين الشهيرتين دائماً في الشعب الاسباني ؛ ففي أثناء حروب أمركي كاسترو ولارا في قشتالة ، والحروب الأهلية التي وقعت في عهد هنري الأول ، وأثناء حدانة الملك جاييم ، بدا كأن الصفات الرفيعة قد غاضت في نفوس الفرسان ولم يبق مكانها سوى الرذائل من العنف والاضطهاد والعنت والتمرد أسود هذه

(١) سبق أن أشرنا إلى مذهب الألبين في هامش ص ١١٠ من هذا الجزء

الأراضي التمسعة ، حتى لقد كان رجال الدين والنساء فرائس لهذا الاعتداء . ولما كان رجال الدين قد أثروا من جراء الهبات المتواصلة والإعفاء من كل الضرائب — بل ومن أداء ضريبة الحرب ضد المسلمين أحياناً — فكثيراً ما كان الفرسان والأشراف يحقدون عليهم ، ويتزعون منهم بالعنف ما يرونه زائداً عن حاجتهم . وقد قتل مطرانان في طركونه بيد اثنين من أكابر أشراف المملكة ، وكثيراً ما وقع النهب والقتل والحرق دون خشية من الله ؛ ولم يبد الناس من الطاعة للملك إلا بقدر ما رأوه ضرورياً ؛ وكثيراً ما كان الملوك أنفسهم يقدمون الأمثلة السيئة من أعمال العنف ، مثل چايم حينما أمر بقطع لسان أسقف جيرونه ، ولولم يعمد الفونسو النبيل في أواخر عهده وكذلك فرديناند الثالث إلى كبش جراح الفرسان بحزم وقوة ، لانهارت نظم الدولة كلها في قشتالة . ومن المدهش حقاً أن نرى رجال الدين في هذا العصر الذى ساد فيه قانون القوة ، يقنمون الفونسو النبيل بإلقاء « حق الإنقاذ »^(١) ، وسن عقوبات شديدة لمن يرتكب النهب من السفن الجانحة .

وليس من المستغرب أن تزدهر الفنون والعلوم في مثل هذه العصور التى سادها الاضطراب والفوضى ، فقد دلت التجربة في كثير من البلدان على أنه كثيراً ما تزدهر العلوم في ظل قمقمة السلاح . وفي هذا العصر بالذات أسست الجامعات الأولى التى عرفتها اسبانيا النصرانية في بالانسيا وشلمنقة . على أن ازدهار العلوم والفنون في قشتالة وأراجون يرجع بالأخص إلى العصر التالى ولا سيما في عهدى الفونسو العاشر والفونسو الحادى عشر .

ولا تقدم إلينا المصادر فيما يتعلق بأراجون التى يحفل تاريخها الدستورى بكثير من المسائل الهامة ، قبل عهد چايم سوى قليل من الوثائق المتناثرة ، كذلك من الواضح أن هذا الملك وخلفاءه قد سنوا كثيراً من النظم الدستورية التى لم

(١) الفصوص هنا حق الاستيلاء على نمويس مقابل مساعدة السفينة على النجاة

نمثر على أصولها في عصور سابقة . وقد تناولنا فيما تقدم كل ما يتعلق بتاريخ أراجون الداخلى من الشؤون الهامة في القرون الأولى من المصور الوسطى ، وذلك عند الكلام على حكم الملك بيدرو الثانى ؛ أما غير ذلك من الشؤون فيرجع إلى عصر لاحق .

وقد نستعرض في لحظة سريعة تلك المصور التي قامت فيها السيادة النصرانية على شبه الجزيرة الاسبانية ، ونسأل بعد تأمل أهم حوادث هذه السيرة ، أليس من المسلم به أنها عبارة عن صراع دموى حافل بالتقلبات شهره الاسبان ضد المسلمين في سبيل امتلاك شبه الجزيرة ، وهى ملكية رأى أبناء القوط دائماً أنها من حقوقهم الخالدة . وقد استطاع فرديناند المقدس وجايم الفانخ لأول مرة أن يحطوا تفوق الإسلام نهائياً ، وأن يحققوا للاسبان سيادة الأراضى الاسبانية بالرغم من أنها بقيت مدى حين مسرحاً لهذا الصراع ، وبقي المسلمون في مملكة غرناطة في رقعة من الأرض تمتد بين مملكتي قشتالة وأراجون وتشرف على المضيق .

إن السيف يفتتح الأراضى ، ثم ينظمها القانون إلى دول ؛ وقد بقي الفرسان ورجال الدين هما الدعائم التي تتمدنان الشعب الاسبانى بالقوة اللازمة لسحق الصرح العربى المغربى . ولما خف عبء الصراع الدائم ، ولم يبق المرء عاماً بعد عام يمشى في المعسكر ويخوض ميدان الحرب ، زادت عناية الاسبان بالزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون . ولم يكن من المستور قبل أن تسقط بلفسية وقرطبة وإشبيلية في يد النصارى أن تزدهر الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم بين النصارى كما ازدهرت بين جيرانهم المسلمين . ذلك لأن النصارى كانوا يسيطرون فقط على القسم الشمالى المجدب من شبه الجزيرة ، ولأن الأيدى العاملة كانت تؤخذ دائماً للحرب ، ولأن الدول النصرانية فيما عدا قطلونية كانت منقطعة عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأن الحرب وحدها كانت سبيل الشرف والثراء والصيت . وكانت النظم التأسيسية ترى كلها إلى توزيع الحقوق ، حينما

تفرض أعباء الحرب ، ولم يكن يستثنى من ذلك رجال الدين . فلما توطدت حياة إسبانيا في شبه الجزيرة بعد صراع دام خمسة قرون أمكن أن يعنى التشريع بحقوق الأفراد بعد الجهود التي بذلت للمغاية برفاهة الدولة ورخائها ؛ ولم تكن الحرب أو الضرورة القاهرة عندئذ باعث النظم التأسيسية ؛ ولكن كان التوسع الحرفي الحقوق هو الذى يوجه التشريع ، وكان التشريع ينظم أسس الدولة .

الفصل العاشر

نظم الدولة وفنون الحرب وأحوال الحضارة

في دولتي المرابطين والموحدين

كانت دولة المرابطين تشبه في قيامها ونموها واضمحلالها خليفتها ، دولة الموحدين شهماً عجبياً : كلتاها قد وضع أسسها داعية ديني ، وقاد الجند الذين غمرتهم الحماسة الدينية قادة عظام موهوبون من نصر إلى نصر ، وأنشأوا من هذه الفتوح دولة زودوها بنظم ، وأسرة ملوكية وراثية . بيد أنه ما كادت العوامل التي حركت هذه الشعوب — وخلقت ونظمت كل شيء — يفيض مميهاً ، وما كادت حماسة الشعوب تنخبو ، وتفترهم السلطان الحرية ، حتى انهارت هاتان الدولتان المسكربتان بمثل السرعة التي قامت بها .

وكان من أشد العوامل التي ساعدت على بسط سيادة هاتين الدولتين في شمال إفريقيا ، رغبة البربر والمغاربة الذين فرض العرب عليهم سلطانهم ، في أن يحطموا نير السيادة الأجنبية ، وأن يلتفوا حول الأمر القومية ؛ ولكن الأمر كان على عكس ذلك في اسبانيا المسلمة حيث لم تكن كتلة الشعب من المغاربة ، بل كانت عربية (مصرية أسيوية) ، فقد كانت الدولتان المغربيتان ، تمتبران بالرغم من كونهما قد استدعيتا لمحاربة النصاري ، غاصبتين ليس غير ؛ وكان الزعماء والأسر الملوكية بالأخص ، وهم الذين جنت سيادة الإفريقيين على حقوقهم ، يبنضونهم ويحقدون عليهم ؛ وحتى بعد أن فني معظم الأسر العربية العربية في

الأندلس وفي شرق اسبانيا ، لم يكن من اليسور إخضاع الشعب بغير القوة القاهرة . ومع أن الحروب المستمرة ضد النصارى الأسبان كانت تحتم الاحتفاظ في شبه الجزيرة بقوى ضخمة ، فإن اسبانيا المسلمة كانت مع ذلك ، في ظل دولة المرابطين ، وكذلك في ظل دولة الموحيين ، أغنى ولاية في الدولة المغربية ؛ كما أنها كانت في نفس الوقت أشد أجزائها تعرضاً لعسف الحكام العسكريين ؛ وكان من الطبيعي أن يترتب على غزو هذه القبائل المغربية الحشنة ، انهيار الثراء العظيم والتمهات السابقة اللذين عرفتهما الأندلس من قبل في عهد الدولة الأموية وعهد ملوك الطوائف ، وأن تفتر العناية بالعلوم والفنون ؛ بيد أنه من المدهش أن نرى مسلمي الأندلس في تلك المصور المضطربة التي ساد فيها الخراب والعيث ، ينافسون إخوانهم المسلمين في الشرق في جميع نواحي العلوم والحضارة .

١ — نظم الدولة وفنون الحرب عند المرابطين

كانت نظم الدولة التي قامت عليها مملكة المرابطين من صنع يوسف بن تاشفين ، فهو الذي أعطى المملكة حدودها ودعامتها الأساسية . واستطاع بعد أن أسس العاصمة مراكنش ، وافتتح أقطار المغرب والاندلس أن يتخذ — باعتباره زعيم المرابطين في الشؤون الدينية والدينية — ألقاب الخلافة وأمير المؤمنين دون أن يكون من فروع الدوحة النبوية ، تشبهاً في ذلك بأعظم أمراء الإسلام في عصره ، خلفاء بغداد العباسيين ، وخلفاء القاهرة الفاطميين ، وأن يحمل الملك متوارثاً في أسرته ؛ وكانت تقام صلاة الجمعة في المساجد باسم هذا السلطان المطلق ، وتضرب السكة باسمه في جميع أنحاء المملكة . وكان لون المرابطين السواد على مثل الدولة العباسية ؛ يحملون الأعلام السود ، ويرتدون المعاطف السوداء .

وكان كل سلطان يختار أثناء حياته ولي عهده بنفسه ، وكان يختار عادة من بين أبنائه أنجبهم وأكفاهم للاضطلاع بالحكم ؛ فقد اختار يوسف بن تاشفين مثلاً لولاية عهده أصغر أبنائه . وكان من أهم عوامل الخلاف على وراثته العرش فيما

بعد ، أنه لم يصدر قانون صريح ينظم وراثته العرش ، في حالة ما إذا فأت أمير المؤمنين القائم أن يختار خلفه . وكان تعيين ولى العهد يجرى وفقاً لرسوم نخمة ، فيمقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء ، وتمرض عليه رغبة السلطان ، ويصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولى العهد المختار سلطانهم المستقبل ويبايعونه بالطاعة إذا شاء ذلك أميرهم ؛ وللأمير إذا شاء أن يقبل ولى عهده وأن يختار بدلاً منه ؛ ويجب على الوزير أن يحرر وثيقة بوراثة العرش ، تودع في المحفوظات الملكية .

ومتى تولى سلطان الرابطين الحكم بايعه بالطاعة أولاً أفراد أسرته ، ثم الأسماء الرابطون ، وأقسموا له عين الإخلاص والطاعة ، ثم يتلوهم زعماء القبائل وعمال الحكومة ؛ ويخطر الشعب بمرسوم يتلى في المساجد ، ويستبدل اسم الملك الراحل في خطبة الجمعة باسم الملك الجديد .

ويعهد بحكم الأقاليم إلى الأسماء الرابطين الذين لم يولوا الملك ؛ وكانت الأندلس أهم هذه الأقاليم ، ويعهد بولايتها عادة إلى الأمير الذى يعين لولاية العهد ، ويلقب عندئذ بلقب خاص به وهو « النائب » ؛ ويتخذ مراكز الحكم على الأغلب في غرناطة أو إشبيلية أو قرطبة ؛ ويلى الأندلس في الأهمية ولاية فاس ، وهى عاصمة المملكة الثانية ، وفيها حاول الأسماء الرابطون من آل تاشفين أكثر من مرة أن ينشئوا مملكة مستقلة .

ويعاون أمير المؤمنين فى القيام بأعباء الحكم مجلس للدولة مؤلف من الوزراء ؛ وينتقل هذا المجلس معه أثناء الحرب ؛ ويوزع الوزراء فروع الإدارة والحكم بين أنفسهم ؛ ويتولى رئاسة المجلس كبير الوزراء أو الوزير الأول ؛ ويتولى الوزير الكاتب إعداد جميع الوثائق الرسمية العامة .

ويقوم نظام الدولة كله على أسس عسكرية ؛ وأمير المؤمنين هو قائد الجيش الأعلى ؛ وولائه هم فى الوقت نفسه من قواد الجيش يتزعمون منه أقساماً معينة ، بل كان قضاء الدين أنفسهم أيضاً من القواد العسكريين ؛ وكان معظم الموظفين فى

البلاط وفي الولايات ينتمون إلى قبيلتي لتوتة وكدالة الحرييتين ، وهما اللتان يرجع إليهما أصل الرابطين أنفسهم . هذا وقد عمل يوسف بن تاشفين على الاحتفاظ بمعظم طرائقهم في تنظيم فنون الحرب . وكان اللمتونيون شعباً وافر البراعة شديد المراس في الحرب لا يفرون أمام عدو مهما تفوق عليهم في العدد ؛ وكانوا يرتبون صفوفهم في المعركة ببراعة ؛ ومع أن قوتهم الأصلية كانت تقوم على الفرسان ، فإنهم كانوا يقدمون في الصف الأول أشجع جندهم من المشاة ، يتقلدون الحراب الطويلة ، ويغرسونها في الأرض .

وقد أكمل يوسف بن تاشفين تنظيم اللمتونيين وأعدهم للحرب أعظم إعداد ؛ وكانت دعامة جيشه قوة من الفرسان حسنة الدربة مزودة بأفضل سلاح ، وصل عددها في عهده إلى مائة ألف مقاتل ؛ وكانت كل فرقة تحمل علمها الخاص من مختلف الألوان ، وعليه رسوم ونقوش خاصة ، ولها زعيمها الخاص ، ويخرج الجيش إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواق ، وقد رتبت الصفوف حسب القبائل .

وكان ترتيب المعركة عند الرابطين يقوم على نظام خماسي . ويتقدم الجيش ، الجند المشاة ، ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحمة القسي ، وحمة النبال ، ويرتبون في الجناحين ؛ ويتكون القلب من وحدات الفرسان الرابطة الثقيلة ، وهي التي كان لها على الأغلب القول الحسم في المارك ؛ وكانت القوى الخلفية أو القوى الاحتياطية ، يقودها الخليفة بنفسه إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوف جنود الجيش ، وقوى الحرس المختلفة . وكان لكل قسم من القوى المقاتلة قائده الخاص ؛ ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب الذي يعقد قبيل المعركة ويتلقون الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى ؛ وكان الجند ينظمون وفقاً للأقاليم والمدن ، فيؤلف الأندلسيون مثلاً قسماً خاصاً من الجيش ، يحمل أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها . ولكن قوى الحرس الخاص كانت تؤلف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوى القوام

الحسن ، والشجاعة الفائقة ، والقوة والبراعة . وجمع يوسف بن تاشفين بواسطة تجار الرقيق في إقليم غانة عدداً كبيراً من المبيد ، واختار منهم أوفرهم وزودهم بالسلاح والخيل ، ودرّبهم على جميع فنون القتال ، وأنشأ منهم حرسه الخاص . الأسود من ألفي رجل . وأنشأ على مثل هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين ، يتألف من فتيان من النصارى المهادين الذين يحتم عليهم اعتناق الإسلام ؛ وكان يوسف يحبهم بمطقة وصلاته ، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة . يختلف المهابات من الخيل والثياب والسلاح والمبيد . وكان على بن يوسف أول أمير مرابطي اختار حرسه الخاص من بين النصارى ، وهو تصرف كان له وقع سيئ بين المسلمين المحافظين .^٢

وكان الجند عند السير ينظمون كما لو كانوا على وشك خوض المعركة ؛ وكانت الأقوات والحياض تحمل وراء الجيش على ظهور الدواب ؛ ويتبعها الرعاة وهم يقودون قطعان الماشية من كل صنف ؛ ومتى حط الجيش رحاله ، أقيم معسكر في منتهى الانتظام . وكان يوسف بن تاشفين لا يقتصر في استعمال الجمال على حمل الأثقال ، ولكنه كان في حروبه بالأندلس ضد النصارى يستعملها بالأخص مكان الخيل لكي يستعين بمنظرها الغريب على بث الروع في نفوس الأعداء ، ويقال إن هذه الخطة نجحت في موقعة بطليوس ؛ ومما بلغت النظرة أنه لم يرو قط أنهم استعملوا الفيلة في الحرب مثلاً كان يفعل القرطاجنيون القدماء .

وكان المرابطون في أيامهم الأولى ، حينما قامت دولتهم وازدهرت ، يقاتلون في الحروب تحت قيادة يوسف بمنتهى الإقدام والشجاعة ، ويطلبون الموت شهداء في سبيل الإسلام اجتناء لنعيم جنة الخلد ؛ ومن ثم كانت هجماتهم من العنف بحيث لم يقو أحد على ردهم ؛ وكان هذا الشنف بالكفاح يبدو بنوع خاص في الجهاد ضد النصارى الأسبان ؛ وكانت الصلاة تقام قبل بدء المعركة ، ومتى تمت هزيمة العدو ، أقيمت أهرام من رؤوس القتلى النصارى ، وأذن المؤذنون عليها للصلاة كأنها مأذن ؛ وأذيت أنباء النصر بين الشعب من منابر المساجد

وقرى منها للناس بيان أمير المؤمنين عن الموقعة .
وكان الخليفة يختص من الغنائم بالخمس وفقاً لأحكام الإسلام ، ويوزع الباقي
بين الجند .

والظاهر أن الرابطين بالرغم من بسالتهم في المعارك ، وبالرغم من أنهم كانوا
يعرفون آلات الحصار وطرائق رميها ، لم يكونوا على براعة كافية بفنون
الحصار ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن دعامة قوتهم كانت ترتكز إلى الفرسان ،
وهم أقل براعة في فنون الحصار . على أنهم كانوا يجيدون الاستماع بالقلاع ،
ويجيدون تحصينها ، وقد دللوا في مواطن كثيرة على أنهم يحسنون الدفاع عن
الأماكن الحصينة .

وكان الأسطول يتألف من سفن النقل أكثر مما يتألف من سفن القتال ،
وذلك لأن الغرض الأساسي من إنشائه ، هو حفظ المواصلات بين المغرب
والأندلس ونقل الجند ؛ وقد استخدم الأسطول في فتح بلنسية والجزائر الشرقية
(البليار) ولكن لم تنشب أية موقعة بحرية .

وكانت اسبانيا المسلمة فيما يتعلق بالحكم والإدارة في ظل الرابطين ، كلها
عبارة عن معسكر ضخم ، وذلك نظراً لاضطرار الحرب ضد التصاري بلا انقطاع ،
ولأن الرابطين كانوا يربّون في ولاء الأندلسيين ؛ وهكذا كانت الأندلس تعامل
دائماً كولاية على وشك الخروج والثورة ، ويحتلها باستمرار سبعة عشر ألف
فارس من الرابطين ، يقيمون في المدن والقلاع الهامة ؛ منها في إشبيلية حامية من
سبعة آلاف ، وفي غرناطة حامية من ثلاثة آلاف ، وفي قرطبة حامية من ألف ؛
وكان كل فارس يتقاضى مرتباً شهرياً قدره خمسة دنانير مرابطية ، هذا عدا الطعام
المجاني ؛ وكان قواد هذه الحاميات وكذلك الولاة وقضاة المدن ، ومعلم الموظفين
من المغاربة ، ولاسيما من اللمتونيين ؛ أما المسلمون من الأصول العربية والمصرية
والسورية والفارسية فقد أهملوا وأغضى عنهم ؛ وعلى هذا فقد كان من الطبيعي
ألا يرى مسلمو الأندلس في الرابطين سوى طغاة ظالمين . وفي عهد يوسف بن

تأشفين كان من المتعذر أن تبدو المساوى* التي كان من المحتوم أن تترتب على نظامه وصنوف الظلم والإرهاق التي يرتكبها الولاة ، لأنه كان من وقت إلى آخر يطوف بنفسه أرجاء مملكته الشاسعة ، ويتجسس أحوال المدن وحكوماتها ، ويستمع إلى الظلامات ، ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن ؛ ولكن المساوى* غلبت في عهد الملوك الضعفاء بسرعة ولا سيما في الأندلس ؛ وكان الأندلسيون أكثر احتمالا لخشونة الجند والقادة ، لأنهم كانوا على الأقل رجالا تغلب عليهم البساطة والصراحة ، بعيدين عن الخداع والجشع ؛ ولكنهم لم يحتملوا القضاة والعلماء الذين اختصوا بالفصل في شؤونهم ؛ ذلك لأنهم بدلا من أن يولوم العدل والحماية كانوا يغالبون في معاملتهم الظلم والاضطهاد والخديعة والجشع وكل صنوف الشر والإرهاق ؛ وكان الموكلون بتحصيل الضرائب عادة من اليهود ، يجمعون الكوس من المسلمين والنصارى المعاهدين ، طبقا لعدد الأنفس ، وكانوا بذلك أداة في يد الموظفين بوجهونهم وفق أهوائهم وجشعهم ؛ ثم انتهى الأمر بأن هذا الجند حذو الموظفين وأخذوا يمتدنون في المدن على حريات الأفراد وأموالهم ، وهكذا جنح الشعب إلى الثورة ، وانتهى الرابطون بأن فقدوا الأندلس سراعا حينما غزهاها الموحدون .

وكان لا يزال يقطن جنوبي اسبانيا في أوائل القرن الثاني عشر ، كثير من النصارى المعاهدين Mozarabes^(١) ، وكانوا يتمتعون بحرية الشعائر ، ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاةهم ؛ ولكن حدث أن نار النصارى المعاهدون ليرفعوا عنهم النير الأجنبي ، وليساعدوا ألفونسو الأول ملك أراجون في حملته ضد غرناطة ومالقة ، فترتب على ذلك أن عمل خليفة المرابطين على تشريد معظم السكان النصارى ونقلهم من الأندلس إلى إفريقية^(٢) ؛ فهلك معظمهم من الحرمان وتغير الطقس ، ودخل بمضهم في جيش الخليفة ، وحارب معه ، وألقى

(١) راجع الملحق في ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) راجع تفصيل ذلك في الجزء الأول ص ١٥٤ — ١٥٦ .

أمير المؤمنين على ابن تاشفين أن النصارى يستطيعون أن يؤدوا كثيراً من الخدمات ، فمِن في بلاطه فرسانا من النصارى ، وأنشأَ منهم فرقة خاصة في الجيش ، أسدت إليه خدمات طيبة في حربه ضد الموحدين ؛ وعهد إلى النصارى بتحصيل الضرائب في المغرب ، على نحو ما كان يحدث في الأندلس من قيام اليهود بهذا العمل .

ولم يتمتع اليهود — وكان عددهم كبيراً في المغرب والأندلس — بنوع من التسامح إلا في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين . وقد كان يوسف شديد العداء لليهود ، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام ، لأنهم في زعمه ، وكما ورد في بعض الكتب القديمة ، تمهدوا أيام النبي باعتناق الإسلام ، إذا لم يظهر مسيحهم المنتظر بعد خمسمائة عام . ولم يستطع اليهود اتقاء الاضطهاد إلا بعد أن بذلوا مبالغ طائلة من المال ، واشتروا بذلك سلامتهم وحرية شعائرهم .

ولم يبد سلاطين الرابطين كبير عنابة بأمر العلوم والفنون والشعر ، وتقدم المعارف ؛ وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل ؛ وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التي تنكرها التعاليم الرابطية ، وحظروا قراءة الكتب التي تحتويها وأحرقوها علناً ؛ وكذلك حرّمت وأحرقت جميع الكتب التي تتضمن قصص الفروسة والقصص العادى ، ولم يحذ الأُمراء الرابطون حذو أسلافهم العرب إلا في فن المارة ؛ فقد أنشأ يوسف بن تاشفين بالأخص كثيراً من المساجد والشكنات والقياسر ، والمساكن ، واختط الشوارع والأسواق ، ولم يدخر وسعاً في العمل على ترقية جميع المنشآت الضرورية والنافعة .

٢ — نظم الدولة وفنون الحرب عند الموحدين

كانت نظم الدولة عند الموحدين ترجع إلى أسس دينية ؛ وكانت أقل طغياناً من نظم الرابطين ، وكان الموحدون أقل عداء للتربية والعلوم ؛ ومع ذلك فقد كانت نظمهم كلها ترمي إلى تأسيس دولة عسكرية ؛ ومن ثم فقد كانت دواتهم تشبه دولة الرابطين من وجوه كثيرة ، سواء في قيامها أو نحوها ثم سقوطها .

وكانت دولة الموحدين ترى إلى إحياء مجد الإسلام الذابل في شمال إفريقيا ، وإن لم يكن ذلك على يد أسرة عريضة ، بل على يد أسرة من أهل البلاد . وقد وضع أسس هذه الدولة داعية ديني ، زعم أنه المهدي محي مجد الإسلام في المغرب وإمام الدولة الجديدة .

وقد لقيت نظم الدولة التي وضعها المهدي تغييرات جوهرية على يد مؤسس الدولة الموحدية ، ووارث سلطان المهدي ، ونعمى عبد المؤمن بن علي ، وهو من أعظم القادة والساسة في العصور الوسطى ؛ وقد كان شأنه في تأسيس أسرته أعظم من شأن يوسف بن تاشفين بالنسبة للأسرة الرابطة . ويسمى بعض المؤرخين العرب سلاطين الموحدين ببني عبد المؤمن ، نسبة إلى مؤسس الأسرة . وكان عبد المؤمن أحد العشرة الذين اختارهم الإمام المهدي ليكونوا وزراءه ووضع فيهم أعظم الثقة ؛ وقد زود منذ فتوته بأعظم سلطة ، واستطاع بعد موت سيده ، بدهائه وعظيم هيئته وبراعته الحربية التي دلل عليها من قبل ، أن يستخلص السلطان لنفسه ؛ وبعد أن قضى على دولة الرابطين ، تبوأ عرش مراکش ، ونادى بنفسه خليفة الموحدين وأمير المؤمنين ، ووضع للمملكة الجديدة التي شملت حدود الدولة الراحلة ، نظاما اشتقت من نظم الموحدين وتعاليم المهدي وصيغتها بنظمه العسكرية الخاصة ؛ ودعى في الخطبة في المساجد التي طهرت من جديد لخليفة الموحدين كما كان يدعى لخليفة الرابطين من قبل ؛ بل لقد أمر عبد المؤمن بهدم مساجد مراکش وبنائها من جديد ؛ وضرب الموحدون سكة جديدة مرصمة مكان السكة الرابطة الستديرة ، ونقش عليها إلى جانب اسم الخليفة القائم والمبارات الإسلامية المعتادة اسم المهدي أيضاً ، وهو مما يؤكد أصل الدولة الدينية ؛ كذلك ذكر اسم المهدي في الصلاة ، وكان يحج إلى قبره في تينال ، كما يحج إلى قبر النبي . (كذا)

وكان لون الموحدين السيامي البياض ؛ ويرتدى الموحدون المعاطف البيضاء ، في الحفلات الرسمية ؛ وكانوا يستعملون إلى جانب البياض ، اللون الأخضر ، بيد

أنهم كانوا يقصرون استعماله ، فيما يظهر ، على بعض المناسبات الخاصة ، ولا سيما عند إعلان الجهاد ضد النصارى .

وكذلك لم يكن عند الموحدين قانون ثابت لوراثته العرش ؛ وكان السلطان يختار بنفسه ولي عهده من ولده وفقاً لشيئته ، وذلك بغض النظر عن حقوق الولد البكر ؛ ولما انقطع تسلسل الوراثة من الأب إلى الابن ، مجت المنازعات على العرش بانقيار الملكة ؛ وكان بوسع أمير المؤمنين أن يحصل لولى العهد الذى اختاره على مبايعة بالطاعة من مجلس الدولة والعلماء ، بل كان يشركه أحياناً فى الحكم معه كشريك فى الملك ، وفى تلك الحالة يذكر اسمه فى الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين ؛ وكانت مدينة نينال التى دفن بها الهدى ، أيضاً مدفناً لملوك الموحدين .

وعند ما يتولى السلطان الملك ، يبايعه بالطاعة أولاً الحاضرون من أمراء بني عبد المؤمن ، ثم الوزراء ، ومجلس الدولة ، والعلماء ، ثم الشعب أخيراً ؛ ويداع نبأ جلوسه فى جميع أنحاء المملكة ؛ ويتخذ كل سلطان شعاراً خاصاً لتوقيعه وأعلامه الملكية .

وكان الأمراء الموجودون ينتمون أنفسهم بلقب السيادة فيتقدم اسمهم دائماً لقب « السيد » ؛ وتوزع بينهم ولايات المملكة ؛ وكان ذلك من أهم الأسباب التى عجلت باضمحلال دولة الموحدين إذ ثارت المنازعات على العرش ، ولم يكن يعوز الأمير الطموح أن يعمل لاستقلاله عن العرش ، بل أن يدعى الخلافة لنفسه .

* وكان يعاون أمير المؤمنين فى تصريف شؤون الحكم عشرة وزراء كان كبيرهم يتخذ لقب الحاجب كما كانت الحال أيام الأمويين ؛ وكثيراً ما كان السلطان يعين أولاده فى سلك الوزارة ؛ وكان الحاجب يقوم بتبليغ المراسيم والأوامر التى يصدرها الخليفة شفويًا ؛ وإذا اقتضى الأمر إصدار مراسيم مكتوبة ، وقمها

الحاجب كما يرقمها الوزير الكاتب^(١) ، وكان يتولى الإشراف على القضاء ثلاثة من الوزراء يسمون قضاة في نفس الوقت ؛ وثلاثة فقهاء يسمون بالنظر في كل ما يتعلق بالدين والتعليم والمعارف ؛ ويتولى الشؤون المالية وزير يسمى والى الخزانة ؛ وهؤلاء الوزراء جميعاً لم يكن عملهم قاصراً على أعباء الحكم وشؤون الدولة ، بل كانوا أيضاً موظفين في البلاط ، عليهم أن ينعنوا بكل ما يتعلق بشخص الخليفة ، باعتبارهم خدامه الأوائل ، وعلى ذلك فقد كان من بينهم الطبيب الخاص ، والنديم ، والقارى ، والأمين .

وكان نعمة إلى جانب هؤلاء الوزراء العشرة مجلسان يعاوان أمير المؤمنين في تصريف الشؤون ؛ ولم يكن في اجتماع هذين المجلسين ما يحد من إرادة أمير المؤمنين أو سلطانه ، وإنما كان القصد من إنشائهما أن يجد أمير المؤمنين في معاونتهما وسيلة لتخفيف أعباء المهام عن كاهله ؛ وكان أمير المؤمنين يعهد بالبحث والفصل في الأعمال التي ليست لها أهمية خاصة إلى مجلس الحسين ، وبالأعمال الأقل أهمية إلى مجلس السبعين . ثم حدث أثناء حكم المستنصر ، وقت أن كان قاصراً تحت الوصاية ، أن اغتصب أعمامه وأبناء أعمامه السلطة في الأقاليم ، وانتزع مجالس الدولة أيضاً أنفسهم كثيراً من السلطة ، حتى أصبحوا يقرران أمر ورائة العرش ، ويمينان أو يمزلان ، وفق مشيئتهما ، خليفة بعد خليفة . ولكن الخليفة المأمون عول على أن يسترد سلطان العرش المطلق ؛ ولما أصدر أعضاء المجلسين قراراً بوزله أمر بهم فأعدموا ؛ وغير في نظام المجلسين وأنشأها من جديد حرصاً على المظاهر ؛ وقصر عملهما على معاونته وزير العدل ، والفصل في المنازعات بين الأشخاص الماديين ، وحظر عليهما التدخل في أي شأن من شؤون الدولة . وأراد المأمون أيضاً أن يحمل الشعب على احترام نظامه الجديد ، فذهب إلى حد الطعن في نظام المهدي ، وفي شخص مؤسسه ، وأعلن أن المهدي مخاضع ، وكتب

(١) هو الوزير الذي يتولى كتابة الوثائق السلطانية وصياغتها ؛ ومنصبه يقابل منصب كاتب ديوان الإنشاء في الدول العثمانية .

كتاباً في المساوي التي يرتكبا مجاساً الدولة ، ونوه بأهمية المبدأ القائل بأنه لا يصبح أن يوجد إلى جانب الحكومة الطائفة أية سلطة أخرى أو قوانين أخرى غير شريعة الله (أى القرآن) وإرادة الأمير .

وكان عبد المؤمن قد قام قبل ذلك بإحداث بضعة تغييرات في النظام الأساسى الذى وضعه المهدي ؛ وكان المهدي قد قسم الموحدين جميعاً إلى عشر طبقات ؛ وكانت هذه الطبقات العشر تأتي قبل باقى الشعوب الخاضعة لسلطان الموحدين ؛ وكانت الطبقة الأولى وفقاً لهذا النظام تتألف من الوزراء ، المشرة ، وتتألف الثانية من مجلس الحسنيين ، والثالثة من مجلس السبعين ، والرابعة من العلماء ، والخامسة من الحفاظ والمحدثين ، والسادسة من أقرباء المهدي ، والسابعة من أبناء قبيلة هرغة وهى قبيلة المهدي ، والثامنة من أهل تينال ، والتاسعة من أهل جرميوت ، والعاشر من باقى جنود الموحدين ؛ وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكان خاص للاجتماع فى السلم ووقت الحرب ، وعند السير ، وحين إقامة المعسكرات . ولما تولى عبد المؤمن الحكم ، ألغى نظام الطبقات العشر ولم يبق منه سوى مجلسي الحسنيين والسبعين . أما النظم العسكرية فتركها برمتها على ما كانت عليه وقت المهدي ، ولم يحدث فيها سوى تحسينات يسيرة بوصفه قائد الجيش الأعلى ؛ وكانت دعامة جيش الموحدين ، على تقيض جيش المرابطين ، ترتكز إلى قوة المشاة ؛ وكان تقسيم الجيش كله ، يجرى حسب الطريقة الجرمانية القديمة ، على نظام العشرية ؛ ولكل وحدة قائدها الخاص ؛ وكانت الصفة تكتسب على هذا النحو براعة فى حركاتها وتحولاتها ، إذ كان الجند والقادة على جانب عظيم من المروءة ؛ وكان المشاة من جنود الموحدين يحشدون بالأخص من القبائل البربرية ، ويحملون حراً طوله اثنتا عشرة قدماً ، وتسمى « الأهراس » ، يلقونها فى وجوه أعدائهم بمنتهى العنف .

وكان إنشاء جيش الموحدين يقوم على عناصر مختلفة من الجند ؛ وكانت نواة الجيش تتألف من الجند النظاميين والحرس ، وهم نخبة بارعة فى جميع ضروب

القتال ؛ وكان الحرس يتألف من العبيد ومن رجال القبائل ؛ وفي أواخر أيام دولة الموحدين أنشئ أيضاً حرس من الأندلسيين ، وحرس من الأسبان . أما باقي الجند النظاميين فكانوا من الذين يجب على القبائل المغربية أن تقدمهم إلى الخدمة العسكرية وفقاً لنظام خاص ، وكانوا يدربون على الفنون العسكرية زمناً طويلاً ؛ وإلى جانب هذه الجنود النظامية التي كان يزودها الأمير بالسلاح ، وتعنى الدولة بالاتفاق عليها ، كانت القبائل عند ما تنشب الحرب تقدم نصيبها من المشاة والفرسان والسلاح والمؤن ؛ وعند ما تنشب حرب الجهاد ضد الأسبان النصارى كان يدعى المتطوعون إلى القتال في سبيل الله ؛ وكانت هذه الجنود المختلفة تحارب في المعركة ، تفرق بينها أعلامها المختلفة الألوان والأشكال ، ولكن بحيث يتخذ قوادها بالاتفاق مع القائد الأعلى نفس الأماكن التي خصصت لهم من أمير المؤمنين .

وكان كل ما يتعلق بالحرب ينظم تنظيمًا دقيقاً ؛ وكان النظام الصارم يسود أثناء السير وفي المعسكر ؛ ولما كنا قد تحدثنا فيما تقدم في تاريخ عبد المؤمن عن نظام السير لدى الموحدين ونظام إقامة المعسكر ، فانا نكتفي بالإحالة عليه اتقاء التكرار ^(١) .

وكانت تتخذ قبل الإقدام على خوض المعركة عدة إجراءات ، فبمقدار عادة مجلس حربى ، يبحث فيه أمير المؤمنين — أو القائد الأعلى في غيبته — مع قواد الوحدات المختلفة خطة المعركة ، ويتقرر فيه متى وأين تقوم كل فرقة بالهجوم أو الارتداد ، أو الانتظار في المؤخرة . وكان من أهم فنون الحرب لدى الموحدين ، خدع الحرب ، ولم يشتركوا في موقعة ما دون أن يدبروا فيها نوعاً من الكمين لأعدائهم ، كأن يتصنعوا الفرار ونحو ذلك ؛ وكانوا يستطلعون على يد عيونهم وقواتهم الخفيفة كل ما يتعلق بالعدو من عدده ومواقفه وأحواله ، ثم يرتبون خطتهم على أساس هذه المعلومات .

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن ذلك في ص ٥٥ و ٥٦ من هذا الجزء .

ومتى استقر الرأي على خوض المعركة ، فإن أمير المؤمنين بعد أن يستمرض الجند ، وبعد أن يتم ترتيبهم للقتال ، يضرب قبته الحمراء ، يخفق عليها علمه الأبيض ، ويستحضر فرسه المطهمة ، ثم يرتدى ثوب عبد المؤمن الحربى ، ويجلس فى خيمته على درعه ، وفى إحدى يديه سبقة السلول ، وفى الأخرى المصحف ؛ وكانت هذه نذر اقتراب المعركة .

وكان نظام المعركة يقوم عند الموحدين عادة على فكرة الترتيب^(١) ؛ وكل قسم من الجيش يوضع تحت إمرة قائد خاص ، ويؤلف جانباً من الزوايا الأربع لترتيب المعركة ؛ وكانت قوة الجيش الرئيسية تتألف من المشاة النظاميين ، وتوضع فى الصفوف الأولى ، وتسليح بحراب طويلة جداً ، يتقلدها الجند بأيديهم وأرجلهم ؛ وبلى هؤلاء صفوف من الجند قد سلحوا بالسيوف وتقلدوا الدروع الكبيرة المستديرة ، ثم يليهم حملة النبال والقسي ؛ وكانت قوة الفرسان تحتل المكان الأوسط من الربع ، ويخصص لها أمكنة معينة فى جميع جوانب الربع وتفتح لها مخارج سريعة ، بحيث تستطيع صفوف الفرسان أن تنطلق منها كما تنطلق من القلعة المحصورة ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تخل بنظام المشاة ؛ ويقوم بالم هجوم الأول أولئك التطوعون الذين وهبوا أنفسهم فى سبيل الله ، تحت قرع الطبول وصوت الأبواق والقرون ، رافعين أعلامهم الخضراء ، تؤيدهم القوات الخفيفة ؛ فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء وأن يتقدم حتى موافق الجنود الموحدة النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدى الذى لا يخترق ، واستقبل حملة القسي والنبال المهاجمين بسيل من السهام والحجارة ؛ فإذا استطاع العدو أيضاً أن يخترق صفوف حملة الحراب ، وقف أمامه حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وأمكن للفرسان أن يخفوا إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية ؛ وحتى لو استطاع العدو أن يتغلب على القلب والجناحين ، ولاح له بعد احتلال الأماكن الداخلية أنه قد أحرز النصر ، ففى الإمكان أن

(١) راجع الحلل للرشية ص ٩٨ ؛ وقد أشير إلى هذا النظام فى الجزء الأول ص ٢٠٩ .

تستمر المقاومة ؛ وحينئذ تقدم قوات الضلع الرابع من الربع ، وهى الاحتياطي
المكون من صفوة الجند ، ولا سيما جند الحرس الخاص ، ويقودها لقتال أمير
المؤمنين بنفسه ، وكثيراً ما كانت تبحر النصر بشجاعتها وخبرتها ؛ وكانت هذه
القوات تتمتع أحياناً داخل دائرة من السلاسل الحديدية ، تبرز منها الحراب
الطويلة ، فتشخن بذلك في المدوقنلاً ؛ ولا كانت قوة الجيش الرئيسية لدى
المرابطين والنصارى الأسبان تتألف من صفوف الفرسان الثقيلة ، فقد كانت
هذه الطريقة في ترتيب أوضاع المعركة ، تفيد أيماً فائدة في رد العدو الذى يتفوق
في قوى الفرسان .

وكان الموحدون يتفوقون كثيراً على المرابطين في فن الحصار ، وكانت أمتنع
المدن تتحطم أمام آلات الحصار والقذف التى يستعملونها ؛ وكان عبد المؤمن
بنوع خاص أستاذاً في هذا الفن الحربى ؛ وكان يستعين بتأييد العناصر ، حينما
عجزت شجاعة الجند وآلات الحصار ؛ ففي حصار فاس التى قاومت أسوارها
النيمة كل جهوده ، استعان على إسقاطها بمياه النهر ، وذلك بأن سلطها على المدينة
بعد أن حجزها حيناً في خزانات كبيرة ، ثم أطلقها فجأة في مجارى صناعية على
أسوار المدينة ؛ وأحرق وأسقط أبراج وهران بواسطة نار محرقة يؤيدها قصف
الآلات ؛ وافتتح المهدية بوسائل مماثلة ، وحطم جدرانها التى بلغ من سمكها أن
كان يسير عليها فارسان متجاوران ؛ واستطاع الموحدون أيضاً الاستيلاء عنوة
على مراكش وذلك بالرغم من قلاعها المنيعة وسكانها الكثيرين ؛ واستولى
الموحدون في الأندلس على كثير من القلاع ، حسبما ذكرنا في سياق تاريخهم ؛
وسقط في أيديهم كثير من القلاع الواقعة في أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية
وذلك بفضل آلات حصارهم المنيفة التى كانت تقذف كتلاً هائلة من الحجارة ،
وكرات ملتهبة من الحديد . وليس في وسعنا أن نقول بطريق التحقيق أن هذه
الآلات كانت مدافع ، وإن الموحدين كانوا قد عرفوا البارود يومئذ ؛ بيد أنه
يحتمل أن تكون هذه هى الحقيقة . ذلك أنه لم يعض قليل على ذلك ، أعنى في

أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، حتى شاع بين مسلمي إفريقيا استعمال الآلات القاصفة التي تقذف الكرات اللتهبة ؛ ووصف هذه الآلات لا يدع مجالاً للشك في أن هذه الكرات كانت تقذف بواسطة البارود .

كذلك كان للموحدين قوة بحرية لا بأس بها ؛ فضرورة الاتصال الدائم بين إفريقيا وإسبانيا ، ونقل مئات ألوف الجند إلى شبه الجزيرة كانتا تحتملان الاحتفاظ بأسطول نقل ؛ بيد أن أمراء الموحدين كانوا إلى جانب ذلك يحتفظون بأسطول حربي ؛ وقد افتتحووا الجزائر الشرقية وكثيراً من الثغور الواقعة على البحر بعمالة أسطولهم ؛ وفي عهد يوسف أبي يعقوب ، نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلوين على مقربة من طرطوشة ، وأحرز أمير البحر الموحدى كثيراً من ضروب التفوق . وفي حصار المهدية التي كان يحتلها النورمانيون أصحاب صقلية ، قدم من صقلية أسطول نصراني من مائتي سفينة ليحاول إنقاذ المدينة فهاجمه أمير البحر الموحدى عبد الله بن ميمون ، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية كبيرة ، لم تكن فيها براعة النورمانيين في البحر شيئاً ، وأحرز المسلمون عليهم نصراً باهراً ، وأحرقوا وأغرقوا جانباً من سفنهم واستولوا على جانب آخر منها .

وكان عبد المؤمن قد وضع حدود الولايات والناطق المختلفة ، وفرض على كل منها الضرائب المناسبة لحالتها وزروعها ومحاصيلها ، وكذلك ما يجب أن تقدمه كل منها من الجند من مختلف الأصناف سواء في حرب الجهاد المقدسة ضد النصارى أو في مقاتلة أى عدو آخر من أعداء المملكة . وكان ينظر في ذلك إلى عدد السكان وحالة المكان ؛ فثلاً كانت مراكن تقدم أربعائة بحار وثلثمائة مائة وخمسون ، وتقدم كل من طنجة وسبتة . ومرسى عريف ووهران ومرسى حنين مائة بحار ، وتقدم الأندلس ثمانمائة ؛ وكانت قبيلة كومية وحدها وهى من بطون زناتة تقدم عشرين ألف فارس ، وذلك لشهرتها بترية الخيل ؛ كذلك كان يحدد نصيب كل منطقة ودائرة من السلاح عدداً وصنفاً ، وعدد الخيل ودواب

الجل والجمال ؛ وكانت تقام مصانع السلاح في مختلف أنحاء المملكة ، وتصنع فيها السهام والسيوف والحراب والدروع وغيرها من أدوات الهجوم والدفاع . وأنشئت المدارس الحربية لكي تحفظ الروح العسكرية بين الموحدين وتعاون على إخراج القادة الأكفاء والمحاربين البواسل ؛ وكان يجمع لها الفتيان بالآلوف وبالأخص من قبيلة مصمودة ، ونراعى بينهم وحدة السن ، فيدرسون آثار المهدي وتعاليمه ويحفظونها عن ظهر قلب ، ثم يتدربون على استعمال جميع صنوف السلاح وفنون الركوب والسباحة ، ويدرسون كل ما يتعلق بالحصار والبحر والقتال ؛ وكانوا يتبارون في السباق ، ورمي الحراب ، والقتال بالقوس والدروع ، والركوب ، والسباحة ؛ وكانت تقام بجوار مساكن بركة ، وضمت فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة ، وفيها يتعلم الطلاب التجديف ، وقيادة السفن ، وكل ما تتطلبه الحرب البحرية من فنون ومهارة ؛ وكان هؤلاء الفتيان الذين يسمون بالحفاظ يعرضون من وقت إلى آخر أعمالهم وبراعتهم أمام أمير المؤمنين ؛ ويخص أولئك الذين يمتازون منهم بالبراعة والجرأة والعزم وحضور البديهة بجوائز الأمير وصالته ، أو يتلقون منه ثناءه ومدحه في عبارات مشجعة ، فكان ذلك يذكى هم الفتيان للحظوة برضى الأمير وعطفه ؛ وكان التعليم في هذه المدارس الحربية على نفقة الحكومة ويمنح الطلاب الخيل والسلاح مجاناً ؛ وكان يتخرج فيها بين أولئك الحفاظ معظم القواد ، وحكام القلاع ، وكبار الضباط .

وهناك كثير من الدلائل تؤيد أن الجند النظاميين الموحدين كانوا يتقاضون مرتباً ؛ وذكر بعض المؤرخين المسلمين أن بعض الأسراء كانوا يهبون الجند كثيراً من المال لكي يكسبواهم إلى جانبهم .

وفيما يتعلق بإدارة المملكة التي أمر عبد المؤمن بمسحها جميعاً من حدود الصحراء إلى جبال سيارا مورتنيا (جبل الشارات) في إسبانيا ، ومن المحيط الأطلنطي إلى الحدود المصرية ، فقد رأى أمير المؤمنين عبد المؤمن نزولاً على رغبة أشياخ القبائل ، أن يقسم إدارة الولايات بين أبنائه الأمراء (السادة) على أن تكون

هذه الإدارة وراثية في عقبيهم ؛ وكان يقوم بالعمل إلى جانب هؤلاء السادة نفر من الحكام (النواب) والوزراء يتوارث أبناؤهم وأقاربهم مناصبهم أيضاً ؛ وكانت هذه الولايات أو الإمارات تقسم إلى دوائر ، لكل دائرة حاكمها أو قاضها الخاص ؛ فمثلاً كانت ولاية بلنسية تشمل دوائر شاطبة ودانية ومرسية والجزائر الشرقية ؛ وكانت ولاية قرطبة تشمل دوائر بياسة وجيان وأبدو وأندوجار وغيرها ؛ وولاية إشبيلية تشمل دوائر الغرب وشريش وشذونة وأستجة وقرمونة ومالقة ؛ وولاية غرناطة تشمل دوائر المرية ووادي آش والمنكب وغيرها . وكانت الضرائب تفرض على الولايات وفقاً لحالة السكان وتربة الأرض ، وكذلك وفقاً لحصصها وإنتاجها ونوع الإنتاج وتربتها من الدواب ، وكان من المتبع عند جلوس الخليفة الجديد أن تترك المكوس المتأخرة ، وأن يوزع بيت المال مبالغ كبيرة على الفقراء ؛ وكان المشرف على بيت المال والمدير لأموال الدولة يلقب بوالى الخزانة . وكان الوزراء ورجال البلاط والحشم يتقاضون مرتباتهم من الخليفة ، وكذلك يتناول القضاة والفقهاء من الخزانة الموحدة جريات منتظمة ، وكثيراً ما كانت تزداد هذه الجريات في عهد الأمراء الأجواد ، وكانت جميع المنشآت العامة مثل المساجد والحصون (القصبات) والقصور والأبراج وجسور الماء والشوارع والقناطر ، والمستشفيات والملاجئ ينفق عليها من خزانة الدولة ؛ وكذلك يتقاضى الأطباء والمرضون في المستشفيات مرتباتهم منها ؛ وكان الدخل يتكون في مملكة الموحدين ، فضلاً عن الضرائب العامة ، من محصول الذهب والفضة المستخرج من مناجم إفريقية والأندلس ، ومن الغنائم التي تؤخذ في الحرب ، حيث كان للخليفة وفقاً للشريعة الإسلامية أن يتقاضى منها الخمس . وقد كان هذا الدخل عظيماً بلاربيب ؛ يدل على ذلك ما قام به الخليفة يوسف أبو يعقوب وولده المنصور في المغرب والأندلس من الأبنية العظيمة من مثحصل المناجم وغنائم الحرب . وكان المنصور سبي الأداء بالنسبة للقائمين بشأن البناء ؛ وقد كان هؤلاء يضطامون بنفقات البناء ، بيد أنهم قلما كانوا يصبرون على هذه النفقات نظراً لضخامتها ؛

ذلك لأن حقوقهم كانت تؤدي ببطء ، وفلما كانوا يجرون على المطالبة بها ؛
فاذا وفقوا إلى تقديم مطالبهم برفق ولباقة وفي الوقت المناسب ، ألفوا قبولاً من
الخليفة وأداء سريعاً .

ولما أخذت مملكة الموحدين في الاضمحلال عقب موقعة العقاب في عهد
حكومة المستنصر الضعيفة ، واستطاع الولاة (السادة) من أعضاء الأسرة الملكية
أن ينشئوا لأنفسهم حكومات مستقلة ، عمدوا إلى تنظيم الإدارة والمناصب وإجراء
المدالة وفقاً لأهوائهم ؛ فكان القاضي أو الوالي لا يستطيع الاحتفاظ بمنصبه
إلا إذا لم يتقدم آخر إلى إحراز هذا المنصب بدفع ثمن أكبر مما دفعه هو . ذلك
أن المناصب كلها عدت سلماً تباع وتشترى ، وعكف الموظفون الذين جروا على
شراء مناصبهم بالمال الطائل ، بدلا من تحقيق المدالة والنظام بين الناس ، على
امتصاص دماهم بشراهة ؛ فكان هذا من العوامل التي عجلت بسقوط
دولة الموحدين .

٣ — لحظة عن حضارة الأندلس

في عهد الرابطين والموحدين

ظهر الرابطون من بين سكان الصحراء البدو الساذجين ، فكانوا أعداء
لكل حضارة عربية ؛ ومن ثم كانت حكومتهم كريح الصحراء اللافح حين يهب
على الغياض النضرة ، تعمل لتحطيم جميع العلوم والفنون والصنائع التي وصلت
في ظل البسيادة العربية في الأندلس إلى ذروة التقدم والازدهار ؛ وكان أولئك
الحكام القساة يعقتون القبائل العربية وثقافتها ، ويعملون على سحق هذه الثقافة
بكل ما وسعوا ؛ فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون
كتبهم ، ويعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التي كانت تجدد
متمتها في قريض الفروسة والقصص المفرق . وكانت قراءة هذه الكتب تحظر
ويعاقب قارئها بأشد العقوبات ، وتقدم أيما وجدت ؛ وكانت المعاهد والمدارس

والمكتبات تنفاد شيتا فشيئا ، وكان قيام البقية الباقية منها يرجع إلى أن سيادة المرابطين لم تطل بعد القضاء على الأسر الملكية في الأندلس أكثر من نصف قرن ، وإلى أن الأواخر من ملوك المرابطين قد غمرهم سحر المدن دون أن يشعروا فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة العربية ، ومالوا إلى مصادرة الشعراء والعلماء ، ولا سيما أولئك الذين شادوا في نظامهم ونثرهم عديج حكومتهم وغزواتهم . على أن سيادة المرابطين كان لها من جهة أخرى أثر حسن في تكيف روح الشعب الأندلسي ، فقد حلت في ظلها مكان الفروسة الهامة ، والملاهي الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوي : روح حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطري ، ورجولة متينة .

ولقي فن المارة ، الذي بهواه أغلظ الطغاة لدى المرابطين قبولاً وتشجيعاً ؛ بيد أنه لم يصل في ظاههم إلى ما وصل إليه في عهد أسلافهم ، أو عهد أخلافهم الموحدين ؛ وعنى ملوك المرابطين بالأخص بإنشاء المساجد العديدة ذات الأبراج المالية ، وإنشاء الأسوار القوية حول المدن ، والقلاع المتينة (التحصينات) ، والقصور الشاسعة ؛ ولأنوا يراعون في جميع منشآتهم العناصر الضرورية قبل عناصر الفخامة والجمال . وقد أنشأوا مع ذلك بعض أبنية من المرمر ذات حدائق غناء ، وفساقى بديعة ؛ على أن هذه المنشآت الفخمة كانت دائماً قليلة نادرة بحيث عني المؤرخون بذكرها عناية خاصة .

ولم يكن الموحدون أيضاً من حاة العلوم والحضارة ؛ وقد نشأوا أيضاً في مهاد القبائل العسكرية الساذجة ؛ بيد أنهم لم يبدوا من الغلو في مطاردة الثقافة مثل ما أبداه أسلافهم ؛ وقد أبطلوا مطاردة القبائل العربية ، وأباحوا دراسة تعاليم الفيلسوف الغزالي بعد أن حظرت في عهد المرابطين ، وأباحوا قراءة كتبه وغيرها من الكتب المحظورة ، وأطلقوا حرية العلوم والفنون ؛ ولما وقفوا على أسرار الحضارة العربية التي أخذت تنهض من جديد ، غدوا من حمايتها ، وعنوا بتشجيع بعض أصناف العلوم ونشرها ؛ وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في نفس

الوقت في جميع أنحاء المملكة ، وغمرت الشعب موجة من الرخاء ، وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلي بين الشعوب ؛ وازدهرت الزراعة في الأندلس بنوع خاص ، وعولجت بالأساليب الفنية ، وتقدمت زراعة الفاكهة ، وكانت تررع في ولايتي بلنسية وإشبيلية بالأخص مساحات كبيرة من قصب السكر ؛ وتنمو حول مدينة إشبيلية غابات كبيرة من الزيتون ، وبالقرب منها نحو مائة ألف معصرة لاستخراج الزيت ؛ وكانت الترع تخرق جميع أرجاء ولاية بلنسية وتروى أراضيها ؛ وكانت تقوم إلى جانب مصانع السلاح المديدة ، مصانع مختلفة أخرى ولاسيما مصانع الصناعات الجلدية في قرطبة ، ومصانع الورق في شاطبة ؛ وقد عرف ورق السكتان في إسبانيا منذ القرن الثاني عشر ، وكتبت معاهدة صالح عقدت في سنة ١١٧٨ م بين الفونسو الثاني ملك أراجون والفونسو ملك قشتالة على ورق من هذا النوع ؛ وكانت التجارة تزدهر أيما ازدهار في ثغور المرية ، وبلنسية ، ودانية ، ومالقة ، وإشبيلية .

وكانت المعاهد والمدارس التي أسست في مراكش وفاهس ترمي بالأخص إلى تخريج الجند البارعين أكثر مما ترمي إلى تخريج العلماء ، بيد أن العناية في هذه المؤسسات لم تكن تقتصر على تربية الأجسام وتدريبها على فنون الحرب وحمل السلاح ، بل كانت تشمل تثقيف العقول ، وتزويدها بالدارف الضرورية ، وتعاليم الهدى الدينية ؛ ثم كانت تنشأ معاهد خاصة بالعلماء ، وتميز طوائفهم وفقاً لمختلف الدرجات والكفايات ، ويعتجون مختلف الهبات والصلوات ؛ وفي ذلك كله ما يدل على أن الموحدين كانوا يمنون بنواح أخزى غير الحرب وأنهم كانوا يشجعون العلوم والفنون ؛ بيد أنه لا ينكر أن ملوك الموحدين كانوا يمنون قبل كل شيء بالعلوم والفنون الضرورية التي يمكن الانتفاع بها في الحياة بسهولة ، أكثر من عنايتهم بالعلوم النظرية الخالصة ، فتراهم مثلاً يشجعون الطب والأطباء ، ويرفونهم أحياناً إلى مرتبة الوزارة ، وينشئون المستشفيات للمرضى وذوى المعاهات والعمى والمرج والضعفاء ، وينشئون

الشوارع والقناطر ؛ وفي البقاع المنمذلة القليلة السكان ينشئون الفنادق وأحواض الماء والآبار لينتفع بها السابلة ، ويحصنون الحدود ، ويؤدون المدن بالقلاع والمساجد والشكنات والمخازن وجسور الماء .

وابتنى عبد المؤمن من الأموال التي غنمها من المرابطين عدة أبنية نفحة في مراكنش ؛ وكان من بين المساجد والمعاهد التي أنشأها المسجد الجامع الذي يتبع القصر ، وهو من صنع المهندس الشهير « الأحوص » الملقب ، وقد أنشأه على أبداع طراز وفن ؛ وكان بهذا المسجد مخارج وأروقة بديمة الصنع ، وممرات سرية تمتد خفية إلى القصر ، بحيث يستطيع أمير المؤمنين أن يزور المسجد وأن يغادره دون أن يراه أحد . وكان منبر هذا المسجد قطعة فنية رائعة ، صنع من خشب الصندل الأحمر والأصفر ، وصنع كل ما فيه من إطارات ومزائج ومقاطيع ومسامير من الذهب والفضة صناعة فائقة ؛ وكانت المقصورة التي يجلس بها أمير المؤمنين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب ؛ فقد كانت حسب أقوال المؤرخين المسلمين تسع نحو ألف شخص ، وكانت تتحرك بواسطة محلات ثبتت في أسفلها ، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة ؛ وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت ، بل تدور جميعاً في أتم سكون ، ونظمت المحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعاً في وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين إلى المسجد عند صلاة الجمعة ؛ وكانت المقصورة تبرز من جانب ، ويبرز المنبر من الجانب الثاني ، وتلتف الجوانب في نفس الوقت حول مجلس أمير المؤمنين ، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب ، ويقاق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه ، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر لهذه المحركات ، كذلك نظمت أبواب المقصورة على هذا النمط ذاته .

وأنشأ عبد المؤمن في ظاهر مراكنش حديقة غناء تبلغ مساحتها ثلاثة أميال مربعة وغرس فيها أطيب الفواكه وأندر النراس وأكثرها تنوعاً ؛ وكان الماء

يجلب إليها من أغصان ، وقد صنعت فيها عدة فساق بديعة ؛ وكان إيراد أشجار الزيتون بقدر وحده في كل عام بثلاثين ألف دينار موحدى .

وأنشأ في تونس ، في أعلى مكان منها ، حصناً ذا أبراج جميلة ، مثلثة الزوايا ، وأقيمت بين المدينة والحصن عدة مدارس ومعاهد ؛ وأوصل الماء الحلو من رباط الفتح إلى سلا بواسطة قنطرة مائية ؛ وأراد أن يخلد ذكرى زعيم من زعماء القبائل افتداه بحياته في مؤامرة دبرت لقتله ، فابتنى له مدفنًا عظيمًا ، وأمر أن تبنى عشرة أسر من كل قبيلة مغربية إلى هذا المكان وتبنى حوله مدينة جديدة سميت بالبطحاء وغدت مزاراً يحجج الناس إليه من كل فج^(١) . كذلك أتم عبد المؤمن تحصين جبل طارق ، وأشرف على إتمامها الأحرص المهندس الفنان .

.. وكان يوسف ولد عبد المؤمن أيضاً من عشاق البناء ؛ وفي عهده أنشئ في مارنله برج شاهق الملو ؛ وعنى بالأخص أن ينشئ في إشبيلية عدة أبنية عظيمة منها مسجد نفخ وإلى جانبه عدة مدارس ومعاهد ، ومنها قنطرة من السفن على نهر الوادى الكبير ، ثبتت فيها السفن مما بالسلاسل ، ومخازن كبيرة ، وأسواق للفاكهة ، ورصيف بطول النهر ، ومراسى للتفريغ زودت بالدرج ؛ كذلك أنشأ قنطرة مائية تمد إشبيلية بماء الشرب ؛ وعنى عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة في إفريقية والأندلس ، وكان منها مناجم غنية جداً في مدينة جيان . وكان يعقوب المنصور ولد يوسف أشد منه شغفاً بالأبنية الفخمة ؛ وقد ذكر المؤرخون المسلمون بين المنشآت العديدة التي أمر بإقامتها عدة ؛ منها في مراکش مساجد بأبراج عالية وقصور ذات حدائق غناء ، وحصن ذو أبراج عالية ، ومنها مدينتان جديدتان إحداهما بجوار سلا ، وهى رباط الفتح ولها مسجد نفخ ، والأخرى في الأندلس على نهر الوادى الكبير وتسمى حصن الفرج ؛ وأتم المنصور مسجد إشبيلية الكبير ذا المنارة العالية ، وزود برجه بزر ضخمة ؛ وكان هذا الزر من الضخامة بحيث اقتضى الأمر توسيع الباب الذى أدخل منه ؛ وكانت الأعواد

(١) راجع ص ٥٩ من هذا الجزء .

الحديدية التي تحملها ترن أربعين ربما ، وصنمها ورفعها إلى أعلى المنارة الملم أبو الاليت الصقلي ، وموت تلك التفانيج بما قيمته مائة ألف دينار ؛ وسمى هذا البرج فيما بعد بالجيرالدا Giralda ، وكان يستعمل في الوقت نفسه مرصدا لرصد النجوم^(١) ؛ ورفع الزر الضخم إلى قمة المنارة بطريقة فنية استعملت فيها الآلات ، وذلك بإشراف الرياضي والفلكي الشهير جبر الذي ينسب إليه اكتشاف الجبر خطأ ؛ وابنى محمد ولد المنصور حول مدينة فاس أسوارا جديدة ، وكان عبد المؤمن قد هدم أسوارها وزودها بقلعة ضخمة ، وأنشأ في كثير من المدن الأخرى تحصينات قوية ؛ وأنشأ في سرا كش مسجدا فخما في مكان منعزل قليل السكان ، وأمر سكان الأحياء المجاورة أن يصلوا فيه وأن يلقوا المساجد التي في أحيائهم ، وزود الحى الذى يقطنه الأندلسيون بماء الشرب بواسطة قنطرة مائية ، وأنشأ المأمون قبل أن يعلى العرش ، وقت أن كان واليا لإشبيلية في ثغر مالقة قصر أعظما سعى بالقصر السعيد . أما فيما يتعلق بالعلوم ، وهى التى استؤنفت في عهد الموحدين ، فقد كانت الماهد المغربية في سرا كش وفاس ونونس ، والماهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف التى كانت ذائعة في ذلك العصر ؛ وكان على رأس هذه الماهد عمهاء ، كان منهم بعض اليهود الذين أبدوا في العلوم براعة خاصة في ظل الموحدين في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وكانت هذه الماهد تقدم إلى الطلاب كتباً دراسية في كل العلوم لتكون لهم مقدمة وعمهيداً ، وكانت المحاضرات تفتح وتختتم بالاحتفالات والخطب ؛ ويؤدى الطابة بعد إتمام الدراسة امتحاناً في مختلف العلوم ؛ وكانت هذه الماهد كلها مزودة بالمكتبات ، ولا يزال يوجد إلى اليوم في مكتبة الاسكوريال فهرس للمكتبات والمؤلفات التى كانت موجودة في مآهد غرناطة في أوائل القرن الثالث عشر . وإذا استثنينا المؤلفات التى تعنى بالثقافة العربية أو الأندلسية المحضة والتى لم يكن لها تأثير في سير الحركة العقلية الأوروبية ، مثل كتب الدين والفقه واللغة .

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ . وكذلك الهامش في ص ٨٨ من هذا الجزء .

والبلاغة والشعر ، التي كتبت في الأندلس في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ،
والتي عرفنا من بعضها أجزاء كاملة كما عرفنا محتويات البعض الآخر وذلك
بالأخص من مؤلف العلامة الفزيرى^(١) ، فانه يبقى علينا أن نتحدث عما أداه
الأندلسيون والمغاربة في عهد المرابطين والموحدين ، في الفلسفة والرياضة والعلوم
الطبيعية والتاريخ ؛ ولا بد لنا هنا أن نذكر الكتاب اليهود المعاصرين ، وهم
الذين كتبوا عن آثارهم الدينية وعن اللغة العبرية ، كما كتبوا عن الفلسفة والعلوم
الطبيعية والطب ، وذلك لأنهم وضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية أو تلقوا دراستهم
بالأخص في المعاهد العربية أو تولوا التدريس فيها .

فند القرن الحادى عشر وضع يهوذا شويج القاسى قاموساً عبرياً ، ومباحث
قيمة عن الإنشاء والترقيم في اللغة العبرية ، لم يطبع منها شئ ، حتى وقتنا ، وفي
القرن الثانى عشر ازدهرت المباحث العلمية اليهودية في اسبانيا بنوع خاص ،
وكتب الرّبن يهوذا لاوى المتوفى سنة ١١٥٣ م عن الحقيقة والإلهيات في الدين
اليهودى ، ووضع ابن عزرا الطليطلى المتوفى سنة ١١٦٧ م ، والمسمى بالحكيم
الكبير ، شرحاً لفظياً لنصوص كتب العهد القديم ، وكتب عدة مؤلفات في
النحو والفلسفة والفلك والطب ، ولم يطبع من كتبه الطبية سوى القليل ؛
واشتهر آل كمخى ، وهم يوسف الأب ، وكان موجوداً نحو سنة ١١٦٠ م ، وابناه
موسى وداود اللذان عاشا في أواخر القرن الثانى عشر ، بشروحهم للعهد القديم
والأجرومية العبرية ، على أن أشهر مشاهير الكتاب والعلماء اليهود هو الرّاب
موسى بن ميمون القرطبى المولود سنة ١١٣٩ م والمتوفى سنة ١٢٠٥ م ، وهو
علامة ضليع تولى التدريس في جامعة إشبيلية ، ثم عين طبيباً للسلطان صلاح
الدين ، ثم عميداً لأحد معاهد الإسكندرية ، ثم عميداً لأحد معاهد القاهرة ،

(١) مؤلف الفزيرى Casiri المشار إليه هنا ، هو الفهرس الذى وضعه الفزيرى اللباني
في أواخر القرن الثامن عشر باللاتينية للكتب العربية الموجودة في قصر الأسكوريال بعنوان
« المكتبة العربية الإسبانية » Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis وصف
فيه محتويات هذه الكتب وأتى على ملخصات الكثير منها .

وبها توفي ، وكتب ابن ميمون مؤلفات عديدة في جميع العلوم تقريباً ، ولكن لم يطبع منها سوى القليل ؛ وهي تتناول بالأخص شرح الكتب الدينية اليهودية والطب والفلسفة ؛ وقد أُرغمه القرار الذي أصدره عبد المؤمن — مهتداً اليهود بالآراء ومصادرة الأملاك — على أن يمتنع الإسلام في الظاهر ؛ بيد أنه سرعان ما انتهز الفرصة للسفر إلى مصر ، وهناك اشتغل حيناً بالتجارة في الأحجار الكريمة .

وازدهرت الفلسفة بالأخص في مهاد الأندلس ؛ وكانت العلوم الطبيعية والرياضية ترتبط بالفلسفة عادة ؛ ومنذ النصف الأول من القرن الحادى عشر نبغ أبو على الحسين بن سينا^(١) المتوفى سنة ١٠٣٧ (٤٢٨ هـ) في الفلسفة والطب .

وكتب أبو حامد محمد الغزالي الطوسي المتوفى سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) عدداً عظيماً من الكتب واشتهر بالأخص بكتابه «تهافت الفلاسفة» ، وأفتى جميع معاهد الأندلس والمغرب بأشارة سلطان المرابطين بأن هذا الكتاب يحتمى على آراء إلحادية ، ومنعت قراءته وأحرقت نسخة آينما وجدت^(٢) ؛ ولكن مؤسس دولة الموحدين (المهدي) أعاد مكانة أعظم فلاسفة الإسلام الدينيين في المغرب إلى ما كانت عليه ، بل عادت أعظم مما كانت في أى وقت ، وذلك بالرغم من أن كثيراً من علماء الأندلس كانوا يخالفون آراء الغزالي ؛ بيد أنه من الأسف أن مؤلفات هذا المفكر العظيم الذى تحتل كتبه وحدها حيزاً عظيماً في الآداب العربية لم ينشر منها سوى القليل^(٣) .

وكان أبو جعفر بن الطفيل الأشبيلي المتوفى سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) أوفر

(١) يسمى الأفرنج ابن سينا Avicenna كما هو معروف وسوف نثبت الأسماء الأفرنجية لأولئك العلماء في نهاية الكتاب مع مقابلهما العربى .

(٢) هذا ما ذكره المؤلف ولكن الحقيقة أن كتاب الغزالي الذى منع وصوله بالأندلس والمغرب في عهد المرابطين هو كتاب إحياء علوم الدين (راجع الحاشية في ص ١٩٦ من الجزء الأول) .

(٣) كتب المؤلف ذلك منذ نحو قرن . أما اليوم فإن عشرات من مؤلفات الغزالي قد طبعت غير مرة ، وهي ذاتة في جميع أنحاء العالم الإسلامى .

حقلاً ، فقد طبعت رسالته الشهيرة «حي بن يقظان» بنصها العربي ، وطبعت ترجمتها اللاتينية والألمانية ، وحازت إعجاب الفكر العظيم لايبنتز^(١) ؛ وهي قصة صبي ترك وحيداً في جزيرة منعزلة ، واستطاع بواسطة التأمل وحده أن يؤمن بوجود الخالق وأن يتعرف قوانين الطبيعة .

واشتهر أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد بالأخص من بين الفلاسفة الأندلسيين الذين استطاعوا بتراجمهم وشروحهم وتعليقاتهم أن يمهّدوا لدراسة الفلسفة اليونانية ولاسيما فلسفة أرسطو بين المفكرين المسلمين ؛ وقد ولد بقرطبة وتوفي سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ؛ وكان كثير الكتابة متضلعا في علوم كثيرة ؛ وقد تفوق بنوع خاص في الطب والفلسفة ؛ ومن مؤلفاته التي طبعت وذاعت شرحه القيم لفلسفة أرسطو ، وشرحه لجمهوريّة أفلاطون (وهو فيلسوف لايميل إليه المفكرون المسلمون على العموم) ، وردّه على كتاب الفزالي «تهافت الفلاسفة» بكتاب سماه «تهافت التهافت» . كذلك يحتل ابن رشد المقام الأول بين علماء الأندلس في علم الطب ، ولاسيما من أجل نظرياته الطبية التي يحاول أن ينوّه فيها بالفروق القائمة بين تعاليم أرسطو وتعاليم جالينوس ، وأن يدافع عن نظريات الأول ضد نظريات الثاني^(٢) .

وإلى جانب مشاهير الأطباء مثل أبي بكر بن زكريا الرازي ، وابن سينا وابن ميمون مؤلف «مختصرات جالينوس» وماسويه بن حمّش المارديني المتوفي سنة ١١٦٠ م مؤلف كتاب «الأدوية والمعالجة» ، يجب أن نذكر أبا القاسم خاف ابن عباس القرطبي المتوفي سنة ١١٢٢ م (٥١٦ هـ) ، وقد نبغ في الطب والجراحة والصيدلة نبوغاً فائقاً ، واشتهر بكتبه القيمة عن الجراحة والآلات الجراحية ، وعلاج النقطة ، والأورام البسرطانية ، وأمراض النساء ، وتحضير الأدوية ؛ ولم يطبع بعد كتابه الجامع في علم الطب ؛ والظاهر أنه كان عارفاً باستعمال حرق المخروط القطعاني على الجلد ؛ وكان يستعمل عملية استخراج الحصى من القضيب بنجاح .

(١) لايبنتز Leibnitz فيلسوف وعالم رياضي ألماني (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

(٢) أوردنا ترجمة موجزة لابن رشد في هامش نم ٦٥ من هذا الجزء .

واشتهر أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلي المتوفى سنة ١١٦٨ م (٥٦٤ هـ) بالأخص بقوة الملاحظة الخاصة ، وهو أوفر الأطباء المسلمين علما وبراعة ؛ ويبدو ذلك بوضوح في كتابه « التيسير في المداواة والتدبير » ؛ وقد شغل مدى أعوام طويلة منصب الطبيب الخاص لسلطان الموحدين أبي يعقوب .

وأما في العلوم الطبيعية ولاسيما في التاريخ الطبيعى ، فقد نبغ بالأخص العلامة النبأى ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن البيطار الماتى المتوفى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) وقد تولى الوزارة في أواخر حياته لحكومة دمشق ، وسما شأنه ؛ وساح في جميع الأنظار المعروفة يومئذ في أوربا وإفريقية وآسيا ، وضمن نتائج دراساته وبحوثه كتابه المعروف عن ممالك الطبيعة الثلاث ، وفيه يتحدث بالترتيب الأبجدي عن خواص النبات والسموم والحيوانات ؛ ولم يطبع من مؤلفه سوى جزء صغير .

وأما في الكيمياء — وهي في الواقع علم ندين به كله إلى العرب — فقد قام الأطباء والعلماء الطبيعيون الأندلسيون باكتشافات هامة ؛ بيد أنه من الصعب أن نعين الأوقات التي تمت فيها هذه الاكتشافات .

كذلك يدين العالم في الرياضيات بكثير من الفضل للعلماء العرب والأندلسيين وقد كان علم الجبر أهم ما اكتشفوه في هذا الميدان ؛ على أن هذا العلم لا يستقى اسمه من اسم العلامة جبر الأشبيلي الذي عاش في القرن الثاني عشر ، والذي كتب كتابا عن « الدوائر » ، ولكن يستقي من كلمة « الجبر » العربية ، ومعناها جبر الأعداد الكسرية إلى مجموع واحد ؛ ويسمى العرب مانسميه نحن « بالجبر » « الجبر والمقابلة » ؛ والمعروف عن ثابت بن قرة أنه كان من أعظم علماء الجبر ؛ كذلك كان ابن رشد متفوقا في الرياضيات ، وقد وضع مختصرا لكتاب « المجسطى » لبطليموس ؛ وطبقت الرياضة أيضاً في دراسة الموسيقى ، وعرف الأندلسيون الأتنام المسجلة « النونات » قبل أن يعرفها مكتشفها الزعوم جيدو دي أريئسو وبذيعها في إيطاليا .

وكان الفلك من العلوم المحبوبة عند العرب ؛ وكان الملوك ، وكذلك الأمر

الغربية يشجعون دراسته تشجيعاً كبيراً ؛ وكان التنجيم يرتبط بهذا العلم أبداً ارتباطاً . وقد ابتنى سلطان الموحدين يعقوب المنصور في سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) في مسجد إشبيلية الجامع برجا عالياً ليكون مرصداً ؛ ومن الواضح أنه أول مرصد بني في أوروبا ؛ ووضع المنصور في سنة ١١٥٧ م (٥٤٥ هـ) أزياجاً فلكية عن كسوف الشمس ، وكتب معاصره البتراجي Alpetragius المراكشي رسالة عن الأجرام ترجمت إلى اللاتينية وطُبعت ، ولكن أزياج المنصور لم تطبع .

أما كون البوصلة اختراعاً عربياً فما لا شك فيه ، يدل على ذلك ما كان يستعمل من قبل من الألفاظ لوصف اتجاه الأبرة المغنطة مثل قولهم « الشارون » للدلالة على الشمال ، و « الأفرون » للدلالة على الجنوب ، وهي ألفاظ اشتقت من العربية ؛ ولم يقتصر العرب على استعمال هذا الاختراع في رحلاتهم البحرية منذ القرن الثاني عشر ، بل استعملوه أيضاً في رحلاتهم الصحراوية ؛ كذلك كان يستعمل في الحياة اليومية لتعيين اتجاه القبلة للصلاة ، ومعرفة مواقع الجهات الأربع .

كذلك وضع مسلمو الغرب في تلك العصور مؤلفات قيمة في علم الجغرافيا ، وأهم هذه المؤلفات هو الكتاب الضخم الذي وضعه الشريف الإدريسي ، أبو عبد الله بن محمد السبتي الذي عاش حوالي سنة ١٠٩٩ إلى سنة ١١٧٥ م ، (٤٩٢ - ٥٧٠ هـ) . وقد وضع الإدريسي مؤلفه في صقلية في سنة ١١٥٣ م (٥٤٨ هـ) بعنوان « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . بيد أنه لم يطبع منه سوى مختصر فقط^(١) ، وعمل الإدريسي أيضاً لملك صقلية روجر (رجار) الثاني كرسية أرضية جغرافية من الفضة ، وقد طبع كوندى من « نزهة المشتاق » الجزء الخاص بإسبانيا ، ونشر منه العلامة الألماني هارتمان قطعاً أخرى .

(١) طبع مختصر نزهة المشتاق المشار إليه في سنة ١٥٩٧ م في رومة في مجلد واحد ؛ ويوجد بدار الكتب نسخة فتوغرافية غير كاملة من نزهة المشتاق ؛ وقد طبعت منه أجزاء مختلفة ؛ وتولى العلامة المستشرق دوزي نشر القسم الخاص بالأندلس والغرب مع ترجمته الفرنسية .

وأما فيما يتعلق بالتاريخ ، فإن عصر المرابطين لم يكن مشجعاً على كتابته ، إذ كانت حكومتهم تُخضع المؤلفات التاريخية لرقابة صارمة ، وكانت تأمر بحرق جميع الكتب التي لا تروق لها . فلما جاءت حكومة الموحدين أبدت تسامحاً في البداية وألغت رقابة المؤلفات التاريخية ، وصححت بالكتابة عن تاريخ الدولة ؛ ومع ذلك فقد كان لزاماً على المؤرخين أن يكتبوا بعماف عن الأسرة الموحدية ، وقد هدد خلفاء عبد المؤمن المؤرخين بالموت إذا كتبوا عن حكومتهم أموراً لا تسر . ومع ذلك فإنا نجد في بعض المؤلفات الأندلسية المعاصرة أقوالاً تدل على أن مؤلفيها لم يخشوا من قول الحقيقة ، وكثيراً ما ترد بها مطاعن شديدة على سلاطين الموحدين ووزرائهم ؛ ولم يطبع إلى اليوم مؤلف منها بنصه الكامل ولكن الغزيري أورد شذوراً منها ، وترجمت أقسام كبيرة وصغيرة منها في مؤلفي دومبي Dombay وكوندى Condé ، وإليك أهم أوائلك المؤرخين :

، أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان المتوفى سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) كتب تاريخاً للأندلس في عشر مجلدات^(١) ، ومؤلفاً تاريخياً آخر في ستين جزءاً ، وكتابه أهم المصادر بالنسبة لبداية عصر المرابطين ، ومن أهم المؤلفات التاريخية في عصره ، ويقلب الصدق على روايته .

الحُمَيْدِي ، وهو أبو عبد الله بن محمد بن أبي نصر المتوفى حوالي سنة ١١٠٠ م (٤٩٣ هـ) ، وقد كتب تراجم لمشاهير رجال الأندلس ، وهو قيم بالأخص فيما يتعلق بتراجم العلماء^(٢) ، وأهم منه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) ، ومؤلفاته مصدر في منتهى الأهمية لتاريخ القرن

(١) هو كتاب المقتبس في أخبار أهل الأندلس ؛ ولم يصلنا منه سوى قطع صغيرة ؛ وقد طبعت إحداها أخيراً بمثابة بعض المستشرقين ؛ وأما الكتاب الثاني فهو كتاب «المبين» ؛ وقد ترجم له ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٠) وذكر أن مولده في سنة ٣٦٧ هـ ووفاته سنة ٤٦٩ هـ .
(٢) كتاب الحميدي المشار إليه هو كتاب جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس وترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٤) .

الحادى عشر وقسم من القرن الثانى عشر^(١) .

أبو على بن رشيد وابن ختم ، وقد عاشا فى أواسط القرن الثانى عشر وعاصرا المهدي ، وكتبنا عن قيام دولة الموحدين وحياة المهدي ، وحملنا عليه صراحة ، وقد اختصرهما أبو مروان الذى عاش فى القرن الثالث عشر .

ابن الأبار القضاى البلسنى الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر ، وقد انتفع فى تاريخه عن اسبانيا بكتب المؤلفين السابقين ؛ وهو بالنسبة لتاريخ بنى هود فى مرسطة المرابطين والموحدين مصدر فى غاية الأهمية ؛ وقد وصف لنا أحوال دولة الموحدين فى أواخر أيامها ، وكذلك فتوح النصرى فى الأندلس ، وصف معاصر وشاهد عيان^(٢) .

ابن الخطيب (وهو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد) ، وقد ولد بمدينة لوشة من أعمال غرناطة سنة ١٣١٣ م (٧١٣ هـ) وتوفى سنة ١٣٧٤ م (٧٧٦ هـ) ؛ ألف فضلا عما كتبه من المؤلفات التاريخية العديدة كتابا عن تاريخ ملوك الاسبان ، وكتابا آخر عن أعلام الاسبانيين وكلاهما قيم فى بابه ، وقد أورد الغزيرى منهما شذورا فى معجمه^(٣) . وكان من معاصريه ابن عبد الحليم الغرناطى ،

(١) أشهر كتب ابن بشكوال كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس لابن الفرضى ، وقد تناول فيه أخبار علماء الأندلس وأعيانها حتى عصره ؛ وطبع فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية .

(٢) كتب ابن الأبار التوفى سنة ٦٥٩ هـ تكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها ، وطبعت فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، وله أيضاً كتاب الحلة السيرة فى تراجم بعض أعيان الأندلس منذ الفتح إلى عصره ؛ طبع بناية السعترق دوزى وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس فى القرن السادس الهجرى .

(٣) كان ابن الخطيب من أعظم وزراء الأندلس وكتابتها وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى ؛ وله ثبت حافل من المؤلفات التاريخية والأدبية ، منها كتاب الاحاطة فى أخبار غرناطة ، وهو أشهرها ، وتاريخ الدولة النصرى ؛ وريحانة الكتاب . والسحر والشعر . والسكتية السكتة فى أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرئ صاحب نفع الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

وقد كان مؤرخاً ذا شأن لدولتي المرابطين والموحدين ، وقد ترجم مؤلفه التاريخي من فاس ومراكش — وهو الذي اعتمد في وضعه على المصادر العربية في تاريخ إفريقيا والأندلس وكذلك على المحفوظات الملكية — بنصه إلى الإسبانية بمناية كوندى ، وقد نقل فيه عن المؤرخين السابقين مثل ابن حيان وغيره ، أحياناً شذوراً برمتها وأحياناً بطريق التلخيص^(١).



« تم الكتاب »

(١) كتاب ابن عبد الخليم الترناطلى المشار إليه هنا هو كتاب « الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » وهو في الواقع من تأليف أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي ، ونسبته إلى ابن عبد الخليم الترناطلى ضعيفة ، وقد نشر هذا الكتاب بمناية المستشرق تورنبرج مع ترجمة لاتينية بمدينة أوبسالة سنة ١٨٤٣ ؛ وقد انتفع به المؤلف استفاداً كبيراً .

ملحق

لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية

نشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٦٩) فهرساً للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ومقابلها الأوربي؛ وقد وردت بالجزء الثاني أعلام جغرافية وتاريخية جديدة لم ترد بالجزء الأول ، فرأينا أن نثبتها في هذا الملحق على النحو الآتي :

Abulcasis	أبو القاسم (خلف بن عباس القرطبي)
Alcantra	القنطرة
Alcázar, Alcazar da sol	القصر أو قصر أبي دانس
Alicante	لقنت (وقد وردت محرفة في ج ١)
Avempace. Avenpace	ابن باجه
Avenzoar	ابن زهر الأشبيلي
Averroes	ابن رشد
Avicenna	ابن سينا
Burriana	بريانه
Cintrin	شتنرين
Guadelete.	وادي لكه
Maimonides	موسى بن ميمون
Miqueneza, Miquenenza	مكناسة الأندلس

Navas di Tolosa	حصن المعقاب أو موقعة المعقاب
Osma	أوسمه
Rasis	الرازي (أبو بكر بن زكريا)
Salvatierra	سربطرة أو شربطرة
Segura	نهر شقورة (وقد وردت بحرفة في ج ١)
Turgiello-Turillo	ترجاله
Urgel	أورقلة
Xucar	شقور — جزيرة شقور

فهرس الموضوعات

الجزء الثاني

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومات الخماسية النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية

صفحة

الفصل الأول : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ وفاة القيصر الفونسو ريموندز

حتى ولاية الملك الفونسو الثاني الأرجوني الحكم ... ٢

الفصل الثاني : قيام جماعات الفرسان الدينية في اسبانيا والبرتغال ... ١١

الفصل الثالث : صراع أسرتي كاسترو ولارا في سبيل السيادة في قشتالة ١٩

الفصل الرابع : تاريخ مملكتي البرتغال وليون منذ وفاة القيصر الفونسو

إلى وفاة الفونسو هنريكز وفرديناند الثاني ٢٧

الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية في عهد الفونسو الثاني ملك

أراجون ٣٥

الفصل السادس : تاريخ الموحدين في الأندلس منذ افتتاح غرناطة ، حتى

وفاة يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك ٤٩

صفحة

- ١ - تنظيم حكم الموحدين في عهد عبد المؤمن ٤٩
- ٢ - باقى غزوات الموحدين فى الأندلس بقيادة عبد المؤمن ٥٩
- ٣ - حكم أبى يعقوب يوسف وحروبہ ٦٤
- ٤ - يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك ٧٦

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين وازدياد تفوق قشتالة وأراجون

فى النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول : حال اسبانيا بعد موقعة الأرك حتى موقعة تولوزا أو موقعة

المقاب ٩٤

الفصل الثانى : موقعة نافاس دى تولوزا أو موقعة المقاب ١٠٥

الفصل الثالث : بيدرو الثانى ملك أراجون ١٢٥

الفصل الرابع : تاريخ مملكتى ليون وقشتالة منذ موقعة المقاب حتى

اتحادهما ١٣٦

الفصل الخامس : اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين فى الأندلس ١٥١

الفصل السادس : نزاع جايم الفاتح مع عمه وحروبہ ضد المسلمين فى الجزائر الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه المملكة لسيادة

أراجون ١٦٧

الفصل السابع : فتوح فرديناند الثالث فى جنوبى اسبانيا ونهاية ساعان

الموحدين فى الأندلس ١٨١

صفحة

الفصل التاسع : تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول حتى افتتاح الفونسو

الثالث لولاية الغرب ٢٠٠

١ - سانشو الأول الملقب بالمعمر ٢٠١

٢ - الفونسو الثاني الملقب بالبادن ٢٠٣

٣ - سانشو الثاني الملقب بذي الثوب السكهنوتي ٢٠٧

٤ - فتوح الفونسو الثالث في ولاية الغرب ٢١٥

الفصل التاسع : أحوال الدول الأسبانية حتى وفاة فرديناند الثالث ... ٢١٧

الفصل العاشر : نظم الدولة وفنون الحرب وأحوال الحضارة في دولتي

المرابطين والموحدين ٢٢٢

١ - نظم الدولة وفنون الحرب عند المرابطين ٢٢٣

٢ - نظم الدولة وفنون الحرب عند الموحدين ٢٣٩

٣ - لمحة عن حضارة الأندلس في عهد المرابطين والموحدين .. ٢٥٠

ملحق لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية ٢٦٤



٢٥-١٧
٨١٤

الإشراف اللغوي: حسام عبد العزيز
الإشراف الفني: حسن كامل
التصميم الأساسي للغلاف: أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة